

كتاب
طبقات المشائخ بالمغرب

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني رحمه الله
المتوفى حوالي 670هـ

الجزء الثاني

حققه: إبراهيم طلاي

بسم الله الرحمن الرحيم
ذكر طبقات المشائخ
جيلا بعد جيل وسيرهم ومناقبهم رحمهم الله
الطبقة الأولى

قد قدمنا في الجزء الأول أن الطبقة الأولى هم أصحاب رسول الله ﷺ وأن فضيلتهم أشهر، ومزاياهم وأسماءهم أظهر من أن تحتاج إلى تسميتهم، فأقول الآن: أن الصحابة رضوان الله عليهم تحصل من سيرهم وأخبارهم في الدواوين، ومن آثارهم محفوظاً في صدور الراوين، ما أغنى من تكلف تصنيف وانتحال تأليف، وحسبهم أن قال فيهم رسول الله ﷺ «لا يشقى من رآني»، وقوله عليه الصلاة والسلام: أفضل أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»، وأحاديث كثيرة من فضائلهم، فإذا ثبت هذا فاعلم أن من الصحابة من لا يخالفنا في تقدمهم مخالف، فقد امتلأت بذكر فضائلهم الصحف، ومنهم من لم ينل حظاً من الإنصاف، عند كثير من أهل الخلاف، وهم معدودون عندنا في جمل أخبار الأسلاف، فلنذكر منهم من أمكن ذكره، ووجب علينا وإن عاب الغير شكره.

عبدالله بن وهب الراسبي:

فمنهم عبدالله بن وهب الراسبي الأزدي العماني رحمه الله، لما كان من أمر الحكمين ما كان، ونجاه من نجي من تلك المحن والافتتان، وانحياز من انحاز الفريقين، وتبين الاعتدال والعدل، عن كلا الطريقتين، أرادوا تولية رجل منهم يعتمدون عليه في أمورهم ويطبق على طاعته، رأى جمهورهم فعزموا على تولية عبدالله بن وهب، ففكره ذلك وأباه، فلم يريدوا غيره ولم يرضوا سواه، فلما رأى ذلك منهم قال: يا قوم استبينوا الرأي -أي دعوه يغيب- وتأتي عليه ليلة، فندبر عواقبه، وكان يقول: نعوذ بالله من الرأي الدبري، فبايعوه وكان ذا رأي وحزم، ودين وعلم، وقع به الائتلاف وارتفع في أيامه الاختلاف، فلم يزل يقول بالحق، ويحكم بالعدل، ويلطف بالرعية ويقسم بالسوية، حتى قبض رحمة الله عليه.

حرقوص بن زهير السعدي:

ومنهم حرقوص بن زهير السعدي، كان حرقوص من أهل النسك والعبادة والتقشف والزهادة، وكان ذا نجدة وبأس وشدة، وكان أحد الأمراء والأجناد في أيام عمر ٣٠، وهو الذي فتح الأهواز في أيام عمر، وكان له هناك آراء سديدة وآثار حميدة، وشكره عمر رحمه الله واستحسن ما كان منه حينئذ فإنه صبر وصابر، حتى أظفره الله تعالى، واطلب ذلك في أخبار فتوح العراق تجده، وكان حرقوص ممن شهد صفين، وأبى تحكيم الحكمين، وكان في أصحابه حتى قتل رحمه الله. الأحاديث المنتحلة فيه والرد عليها:

وحرقوص هذا هو الذي ينتحل¹* أحاديث لا يبعد أن تكون مصنوعة فإن فيها ما يدل على سقمها لتناقض ميثوتها، ولكن أكثرها منتحل، ورواها على طرق، فمنها ما نسب إليه أنه قال لرسول الله ﷺ وهو يقسم غنائم خيبر: «ما عدلت منذ اليوم» فغضب رسول الله ﷺ فقال عمر: ألا أقتله يا رسول الله؟ فقال: إنه يكون لهذا أو لأصحابه نبأ، ومنها ما نسب إليه أنه لما قال ذلك لرسول الله ﷺ قال: ويحك فمن يعدل إن لم أعدل؟ ثم قال لأصحابه واحداً بعد واحد: أيكم يقتله؟ فقال له الأول: وجدته راعياً، وقال الثاني: وجدته ساجداً، وقال الثالث: لم أجده، فقال رسول الله ﷺ لو قتل هذا ما اختلف في الله اثنان، ومنها أنه قال وقد قسم رسول الله ﷺ مالاً ورد عليه بين أربعة من المؤلفة قلوبهم، فزعموا أنه قال: لقد رأيت قسمة لا أريد بها وجه الله، فغضب رسول الله ﷺ حتى تورده، ثم قال: أمني الله على أهل الأرض ولا تأمنني؟! فقام عليه عمر رحمه الله فقال: ألا أقتله يا رسول

الله؟ فقال: سيكون من ضئضى*، هذا أقوام تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يتجاوز حناجهم يمرقون من الدين -إلى قوله- وتتمارى في الفرق، ففي هذه الأخبار دلائل على سقمها من أوجه كثيرة، أحدها: أنه لو صح عنه أنه غير عدل إذ قال ما عدلت منذ اليوم ما آمن ولا أقام على دينه ولا صلى إلى قبلته، والثاني: لو صح عنه ع أنه خاض بالطعن في النبوة لم أهمله، وكان هو المبتدر إلى قتله، ولم يكله إلى غيره، الثالث: أنه لو صح ذلك عند عمر ت وأنه من المأمورين بقتله، وأعلمه أنه مارق من الدين فكيف يستعين به على الجهاد؟ وهو أعظم أركان الدين، فيجعله أميراً على جنوده المؤمنين، وظهيراً على قتال الكافرين، الرابع: أنه لو صح عند أصحاب رسول الله ع أنه قال ذلك وأنهم مأمورون بقتله لم يتراخوا في قتله، بل يجعلونه أوكد فرائضهم، فكيف تسامحوا حتى خرج ثم لم يكثرثوا به، الخامس: أنه ع الله منزّه عن أن ينتسب إلى كلامه الغلو والمجازفة، حتى يقول لو قتل هذا ما اختلف في الله اثنان، فيلزم على هذا أن تكون حياة حرقوص سبباً لكفر اليهود والنصارى، والصابيين والمجوس، وعبدّة الأوثان، والمعطلة والزنادقة وغيرهم، وهذا من المحال الذي ينكره الحس ويأباه العقل، ويقوى الدليل على بطلانه، إذ لو شاء لضلوا جميعاً قبل وجود حرقوص وبعد موته، لكنهم [لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم] فقد اتفقوا واختلفوا وبينهم من هو خير من حرقوص وهو رسول الله ع كما اتفقوا واختلفوا وفيهم شر منه وهو أبو جهل، لعنه الله، فهذا يبعد أن يكون من كلام من لا ينطق عن الهوى، السادس انه قد شهد من ضئضه من حرق القرآن قلبه، وصدع كبده فضلا عن مجاوزة الحنجرة وشوهد من مخاليفهم من لا يصل لسانه فضلا عن الحنجرة، أعنى في العمل به والامتثال لأوامره، والانتهاء عن مناهيه، السابع ذكر المروق. فرأيتك أعلم بالمارق وباللص السارق، وقد حقق كثير منهم ممن عامل بالأنصاف أن القوم إنما قاتلوا هروبا من اتباع الهوى واطراحا لزهرة الحياة الدنيا ورغبة فيما يرجونه عند الله في الدار الآخرة، وفيها أدلة كثيرة غير ما ذكرناه، فحرقوص مبرأ مما قالوه، ومما إليه نسبوا.

الطبقة الثانية 50-100هـ

جابر بن زيد الأزدي

منهم جابر بن زيد الأزدي رحمه الله. بحر العلوم العجاج* وسراج التقوى، ناهيك به من سراج، أصل المذهب وأسه الذي قام عليه نظامه، ومنار الدين ومن انتصبت به أعلامه، صاحب ابن عباس رضى الله عنه، وكان امهر من صحبه، وقرأ عليه، والمقدم ممن يشار في الفتوى إليه، ذك أبو طالب المكي في كتاب قوت القلوب قال ابن عباس رحمه الله: اسألوا جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه، وعن اياس بن معاوية قال: لقد رأيت البصرة وما بها مفت غير جابر بن زيد وعن الحصي بن حيال انه قال: لما مات جابر بن زيد بلغ موته انس بن مالك فقال: مات أعلم من على ظهر الأرض أو قال مات خير أهل الأرض، وعن ابن عباس أيضا انه قال: جابر بن زيد أعلم الناس، وعنه انه كان يقول عجا لأهل العراق كيف يحتاجون ألينا وعندهم جابر بن زيد، لو قصدوا نحوه لوسعهم علمه، وله آثار كثيرة مذكورة، وكرامات، ومقامات في العلم تعلو المقامات سيأتى ما أمكن. إن شاء الله.

جابر بن زيد يدعو الناس للاعتبار

فمن ذلك ما ذكر أبو سفيان* قال: أصاب الناس على عهد جابر بن زيد ظلمة وريح، ورعد، ففرعوا إلى المساجد قال فخرج أبو الشعثاء إلى بعض المساجد فجلس فيه يذكر الله، والناس في تضرع وضجة، قال فلما انجلت تلك الريح وتلك الظلمة أخذ الناص ينصرفون إلى أسواقهم ومنازلهم قال فدعا قوما كانوا قريبا منه فقال لهم ما كنتم تظنون هذا الأمر؟ قالوا خفنا أن تكون

القيامه قد قامت قال إنما خفتكم طي الدنيا والإفضاء إلى الآخرة، قالوا نعم قال لقد خفتكم أمرا عظيما فحق عليكم أن تخافوه، ثم قال أين تذهبون الآن؟ قالوا إلى منازلنا قال لقد خفتكم أمرا عظيم ففزعتكم إلى الدعاء، ولو جاء ما خفتكم لم يغن عنكم ما كنتم فيه شيئا، فالآن إذ رد الله عليكم دنياكم فاعملوا حين قبول العمل وإما ما كنتم فيه فلو كان الأمر ما خفتموه لم يغن عنكم دعاؤكم من الله شيئا.

وذكر أبو سفيان: أن جابر بن زيد دخل المسجد الحرام فإذا برجل من الحجاج يصلي على ظهر الكعبة، قال، فقال: جابر بن زيد من المصلي؟ لا قبله له، قال، وكان بان عباس في ناحية المسجد، فسمع قوله أو أخبر به، فقال أن كان جابر في شيء من البلد فهذا القول منه، قال فنظر فإذا هو جابر بن زيد.

جابر بن زيد يسأل عائشة ويستقيتها

وقال أبو سفيان أن جابر بن زيد وأبا بلال دخلا على عائشة رضى الله عنها، فعاتبها على ما كان منها يوم الجمل فال فاستغفرت الله تعالى، وتابت مما كانت قد دخلت فيه وقال أبو سفيان دخل جابر بن زيد على عائشة رضى الله عنها فاقبل يسألها. مسائل م يسألها أحد عنها حتى سألها عن جماع النبي صلى الله عليه وسلم، كيف كان يفعل، وإن جبينه يتصبب عرقا، وهي تقول سل يا بنى، ثم قالت له ممن أنت؟ قال من أهل المشرق من عمان، قال أبو سفيان فذكر شيئا له لم احفظه إلا أنى أظنها قالت. النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ليكثرون وراة حوضى من أهل عمان أو شبه هذا.

جابر يتمنى لقاء الحسن البصري قبل أن يموت

ولما حضرت جابر بن زيد الوفاة أتاه ثابت البناني وقال يا أبا الشعثاء، هل تشتهي شيئا؟ قال أنى لا اشتهى إلا أن ألقى الحسن قبل أن أموت، قال فخرج ثابت البناني فدخل على الحسن فأعلمه بقول جابر بن زيد قال وكان الحسن إذ ذاك مستخفيا، فقال: كيف لي بذلك؟ قال اركب بغلتي على السرج وأنا أردف خلفك، وأعطيك طياسانى وارجوا أن لا يعرض لنا. قال ففعل، ودخل على أبى الشعثاء وهو مضطجع فانكب عليه الحسن وهو يقول يا أبا الشعثاء قل لا اله إلا الله فرفع جابر عينيه، فقال: أعوذ بالله من غدو ورواح إلى النار، ثم قال يا أبا سعيد حدثني بحديث ترويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في المؤمن إذا حضرته والوفاة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أن المؤمن إذا حضرته الوفاة وجد على كبده بردا) فقال جابر الله أكبر، والله أنى لأجد بردا على كبدى.

يجس لكسي لا بذهب إلى الحج

قال وكان جابر بن زيد يحج كل سنة فلما كان ذات سنة بعث إليه والى البصرة أن لا يبرح العم فان الناس إليه محتاجون، فقال لا افعل: ف حبسه، فلما كان غره ذى الحجة جاءه الناس فقالوا اصلحك الله قد هل هلال ذى الحجة فأرسل إليه وأخرجه من السجن. قال فأتى إلى دارة وله ناقه قد أعدها للخروج فأخذ يشهد عليها الرحل، ويقول ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، ثم قال: يا أمانة* عندك شيء؟ قالت نعم، قال فاجعليه في جرابي، قال فهيئت له زاده، ثم قال من سألك فلا تخبريه بمسيرى يومى هذا قال فخرج من ليلته، قال فانتهى إلى عرفات والناس بالمرقف، قال فضربت بجرانها الأرض، وتجلجت فقال الناس: ذكها ذكها يا أبا الشعثاء، فقال حقيق لناقة رأته هلال ذى الحجة بالبصرة أن تفعل هذا ثم سلمها الله، قال وكان قد سافر عليها أربعاً وعشرين سفرة، في حجة وعمرة.

جابر يحاج المستحلين لدماء من خالفهم

وقد بلغنا عن جابر بن زيد إن امرأة كانت له جارية فقالت له يا أبا الشعثاء إن فلان يخطب ألى جاريتى فما ترى؟ قال: لا تزوجه، فانطلقت فعاد أليها الرجل فعادت إلى جابر، وقال لا تزوجه

فانطلقت فعاد إليها الرجل فقال إن لم تزوجيها وقعتها حراما, فأنت جابرا , فأعلمته بالذي كان من قول الرجل, فقال زوجيها الآن فهذا خوف العنت.

وقال: حدث ضمان أن جابر بن زيد كان يلقي الخوارج فيقول: أليس قد احل الله دما أهل الحرب بدين بعد تحريمها بدين؟ قال فيقولون بلى. قال: ويقولوا وحرم ولا يتهم بدين بعد الأمر بها بدين؟ قال فيقولون بلى, فهل احل ما عدا هذا بدين؟ قال ف يسكتون ولا يجيبونه بشيء. قلت وهؤلاء الصحاب نافع بن الأزرق ومن قال بقولهم, في استحلال أموال المسلمين بدين.

حكم عطاء الجبابة

وقال: تكلمت نساء من المسلمين بعد جابر في المال الذي تجمععه الجبابة فقلن انه حرام, قال ثم أفشينه حتى لقين رجلا يقال له أبو الوزير, فأجابهن إلى ذلك فقال صدقتن قال وهمن أن يرفعن ذلك إلى ضمام وأبي عبيدة, قال فلم يزل بهن حتى لقين أبا حمزة الأشعث فكلمنه في ذلك فقال لهن أو حمزة ومن وافقكن على ما تقلن؟ قلن أبو الوزير, فقال أبو حمزة أو قد بلغ من ضعف أبي الوزير ما أرى؟ قال, ثم نهاهن واعظم ذاك عليهن فقال أما إذ واصحابه, فانهم ماتوا وهم يأخذون أعطيتهم, قال وبلغ ذلك ضماما فاشتد في ذلك واعظم قولهن قال فرجعن واستغفرن الله ولم يعدن إلى ذكر شيء من ذلك .

قال وما مات جابر بن زيد أتى قتادة وهو غز ذاك قد عمي وقال أدنوني من قبره قال فأدنوه حتى وضع يده على قبره ثم قال اليوم مات علام العب, وقال : لقي جابر امرأة من أهل الدعوة فوقف ساعة يكلمها وتكلمه قال فما أرادا ففكر في قوله فنا أنى أحبك, فانصرف إليها وقال في الله قال فقالت له وما تظن أني حملت ذلك على غير الحب في الله؟ أي والله في الله.

وقال خرجت آمنة وزج جابر إلى مكة ذات سنة, فأقام جابر تلك السنة قال فلما وجعت سألها عن كريها* فذكرت منه سوء الصحبة, ولم ترض عليه بخير, قال فخرج إليه جابر فادخله الدار فأر باشتراء لابل علفا, وعولج له طعام فلما تغدى خرج به إلى السوق, فاشترى له ثوبين فكساهما أياه, ودفع إليه ما كان مع آمنة من قربه وأداة وغير ذلك من آلات السفر, قال فقال له آمنة أخبرتك بسوء الصحب, ففعلت معه ما أرى قال أفنكافيه بمثل فعله فنكون مثله؟ لا بل نكافيه بسوء خيرا. وبالإساءة إحسانا.

ر أي جابر في الهرم العاجز عن الصوم

وقال أبو سفيان كانت جدة أبي يقال لها أم الرحيل والرحيل أبي وبه يسمى, واسم جدي العنبر وكانت أم الرحيل قد كبرت حتى لم تطق الصيام , قال فأت بها أبنائها الرحيل والعنبر إلى جابر, فقالا يا أبا الشعثاء إن لم الرحيل قد كبرت فلا تطيق الصيام قال: وأنها لحية بعد, قال نعم, قال: تطيق فصوما عنها قال فتنافسا في ذلك قال وكان الرحيل أكبر من العنبر, فصام عنها الرحيل, فلما كان في العام الثاني أتياه فأعلماه أيضا بحالها, فقال م كنت أمرتكم به في العم الأول قال أمرتنا أن نصوم عنها, قال فأطعما عنها فأطعم عنها العنبر.

وقال جاء أبو الحرالي أبي عبيدة ذات سنة قال يا أبا عبيدة أقم للناس بعد الموسم خمسة أيام فامتنع وقال لا بي الحر عليك بضمم بن السائب فانه يفعل, قال أو عنده من العلوم ما يكتفي الناس به؟ قال نعم, وأكثر من ذلك, قال فأتاه فأقام الناس فاجتمع إليه من حضر الموسم, فجعوا يسألونه عن أشياء كثيرة من مسائل دينهم, قال فكان جوابه ان يقول سألت جابرا, أو سئل جابر أو سمع جابرا, أو قال جابر قال أبو سفيان وكان ضمام قد حفظ عن جابر ما لم يحفظه عنه أبو عبيدة ولا أبو نوح ولا أحد من تلاميذه وقال بعثت هدة بنت المهلب إلى جابر جزورا في رمضان فنحرها وعالج للناس طعاما, فلما غابت الشمس أتانا بالجفان في لمجلس فوضعت للناس وكان مؤذنه يقال

له أبو هارون وكان فاضلا, وقال له يا أبا هارون أرى أن تهبط فتأكل معهم ولا تعجلهم الإقامة, حتى يتفرغوا من طعامهم.

وقال: اطلع أبو الشعثاء يوما فإذا برجل من الاكارين يبكي ويصيح. ف قال مالك ويحك؟ فقال أن فتیان در بكم هذا نزعوا منى قنوي نخل جثت بهما إلى صاحب الأرض, فأخاف أن لا يصدقني قال فبعث جابر إلى رجل من أصحابه له نخل, فأخذ قنوين فدفعهما إليه.

ووفد جابر بن زيد فيما كان يقف فيه إلى يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج, وكان به خاصا, قال فأدخله أبو مسلم على الحجاج, فكان فيما كان يسأله إن قال له: أتقرأ؟ قال نعم, قال أتقرض؟ قال نعم, فعجب الحجاج, ثم قال للمسلمين, قال فقال جابر إني اضعف من ذلك, قال وما مبلغ ضعفك؟ قال يقع بين المرأة وخادمها شر فلا احسن ان اصلح بينهما, قال ان هذا لهو الضعف, ثم قال فهل لك من حاجة؟ قال نعم وما هي؟ قال تعطيني عطائي وترفع عني المكروه, فقال الحجاج هذا أمر لا يستقيم ان أعطيك من بيت مال المسلمين, ولا نستعملك لهم فقال له يزيد بن أبي مسلم اضحك الله أن هاهنا خصلة تخف على الشيخ وفيها عون للمسلمين, قال وما هي؟ قال تجعله في أعوان صاحب ديوان البصرة, قال وذلك, قال فلما خرج من عنده قال له جابر: يا هذا ما صنعت شيئا أتراني أن أكون عوناً لصاحب الديوان؟ قال له يزيد اكتب إلى صاحب الديوان أن لا يكلفك مؤونة, ويعطيك عطائك كاملا, قيل وكان عطاؤه سبعمائة أو ستمائة درهم قيل وكان في ديوان المعاملة.

رأي جابر في القدر

وقال وقع ف نفس الحجاج شئ من أمر القدر, فدعا كتابه يزيد بن أبي مسلم قال ويحك يا يزيد وقع في نفسي شئ من القدر فهل عندك فرج؟ قال سأكتب لك إلى رجل بالبصرة عنده من ذلك علم, قال فكتب إلى جابر بن زيد, أما بعد فان الأمير وقع في نفسه شئ من أمر القدر فالكاتب إليه بما تفرج به عنه, قال قلا للأمير يكثر ترديد خطبته فان فيها بيانا لما سأل عنه, قال فأعلمه بذلك يزيد, قال فرددها مرارا كل ذلك لا ينتبه منها بشيء حتى إذا كان بعد ذلك انتبه, ف قال من يهدى الله فلا مضل له, ومن يضل فلا هادي له, فقال يا يزيد ويحك ما أعلم صاحبك!.

مما يؤثر عن جابر

وقال خرج جابر بن زيد وهو يريد الجمعة فما أتى المسجد تلقاه الناس متفرقين و قال فشق ذلك عليه مشقة عظيمة شديدة وقال اللهم لك علي أن لا أعود, وقال: استأذن عمارة بن حيان على جابر بن زيد فقال له ارجع, فلما ذهب قال روده فردوه فقال أراك وجدت في نفسك أما انه أركى لك إذ رجعت, وقال دخل العنبر على جابر في ليلة صافية مظلمة وأمنة قاعدة إلى جانبه في الدار. وقال فأخذت عليها صلاته فحدثها جار, وقال: إن الله جعل الليل لباسا, قال: يقول أن الخمار والمقنعة بالليل يجزيان عن رداء.

وقال قال جابر بن زيد ليس للعالم أن يقول لجاهل أعلم مثل علمي وإلا قطعت عذرك ولي للجاهل ان يقول للعالم أجهل مثل جهلي وإلا قطعت عذرك, فإذا قال العالم ذلك للجاهل قطع الله عذر العالم وإذا قال الجاهل ذلك للعالم قطع عذر الجاهل.

وقال مر رجلان من أهل الدعوة على أبي الشعثاء وهو قاعد في سقيفة باب دارة ولم يرياه وهما يتذاكران رجلا فقالا عليه لعنه الله, فقال أبو الشعثاء لعن الله من لعنتما, قال فاصرفا حين سمعا كلامه, فقالا ما رأيناك ولا علمنا بمكانك ثم قالوا: يا أبا الشعثاء أعلن رجلا ولم يثبت عندك أمره؟ قال وأي شئ اثبت منكما وقد أجمعتما على لعنه؟ وعن الربيع بن حبيب عن شيخ من أهل البصرة. انه قال دخل جابر على عائشة رجمها الله فسألها عن مسائل ثم انصرف فقالت عائشة لقد سألتني عن مسائل لم يسألني عنها مخلوق قط تعني جابرا. وعن الربيع بن حبيب عن بعضهم

قال أنيت جابر بن زيد في بعض الفتى مما يبتلى به الناس فما أعلم أنى كلمت فقيها ولا عالما ولا أميرا قد أعلم منه, ولا أعقل منه.
جابر تمنى من الله ثلاث فحقها له

وعن الحصين عن جابر بن زيد أنه قال: سألت ربي عن ثلاث فأعطانيهن سألت زوجه مؤمنة, وراحلة صالحة ورزقا حلالا كفافا يوما بيوم, وقال لأصحابه ليس منكم رجل أغنى مني, ليس عندي درهم ولا علي دين, وعن قتادة أن الحجاج أرسل إلى جابر بن زيد يسأله عن الخنثى كيف يورث؟ فقال تحبسوني وتستفتوني! ثم قال يورث من قبل مباله قلت وعى ذلك العمل.

عبدالله بن أباض

ومنهم عبدالله بن أباض المرى التميمي رحمه الله: كان عبدالله بن أباض إمام أهل الطريق وجامع الكلمة لما وقع التقريق, فهو العمدة في الاعتقادات, والمبين لطرق الاستدلالات والاعتمادات, والمؤسس لآبانية هي مستندات الأسلاف, والمهدم لما اعتمده أهل الخلاف, وكان رأس العقد, ورئيس من بالبصرة وغيرها من الأمصار والمتقدم في حلبة الفضل بين أولئك الأخيار, قعد عن اللحاق فاشتراه من غير إنكار, وقنع بالخمول من غير قصور ولا اقصار, وقلى ما اعتقده ابن الأزرق في المحمدية*, وعدل عن طريقي البيهسية, والنجدية وسلك محجة العدل, وكان قدوة لأهل الفضل, فأليه النسبة اليوم في العقائد, معدولا بها عن اسم الولد إلى اسم الوالد طلبا للتخفيف واختصاص الأشهر, وذلك في اللغة معروف لا ينكر, ولابن أباض فضائل مشهورة في الآفاق, وأثار حميدة مخلدة في بطون الأوراق.

أبو بلال وعروة

أبو بلال وعروة الشاريان

ومنهم أبو بلال مرداس وعروة أبنا أدية وحمهما الله بلغا في الورع والديانة, والعلم والصيانة الأمد الأقصى ولكل منهما فضائل لا تحصى بعجز عن وصفها كل قائل فلا تكاد تحصى ولكل منهما أيام الخروج, وأيام القعود كل موطن مرضي وكل مقام محمود, من أمر بالباعة ونهي عن المحارم لا تأخذه لومه لائم, وإما التشخير والصميم في الدين والأنفة عن طريق المهادين, فذلك عليهما وقف, لا وهن ولا ضعف يدركهما*.

أبو بلال يحذر غيلان الضبى

ثبت عندنا من طريق صحيح أن أبا بلال رحمه الله كان في المسجد الجامع فسمع زيادا يقول على المنبر: والله لأخذن المحسن منكم بالمسيء والحاضر بالغائب والصحيح بالسقيم, فقام رحمه الله إليه فقال: قد سمعنا ما قلت أيها الإنسان وما هكذا ذكر الله عن نبيئه إبراهيم عليه السلام, إذ يقول (وإبراهيم الذي وفى أن ل اتزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى, ثم يجزيه الجزاء إلا وفى) وانك تزعم أنك تأخذ المطيع بالعاصى قيل وفى عقب ذلك اليوم كان خروجه رحمة الله عليه, وروى أن غيلان بن خوشت الضبى سمر ذات ليلة عند ابن زياد ومعه جماعة فذكر أمر أبي بلال وأصحابه فأحنى عليهم غيلان ثم أنصرف بعد الليل إلى منزله فلقبه أبو بلال فقال له يا غيلان, قد بلغني ما كان منك الليلة عند الفاسق من ذكر هؤلاء القوم الذين يشرون أنفسهم, وابتاعوا آخرتهم بديناهم, ما يؤمنك أن يلقاك رجل أحرص والله على الموت يبلغك أنى ذكرتهم بعد الليلة.

وعن غير واحد من أصحاب التواريخ أن أول سيف سل للمحكمة سيف عروة بن أدية وذلك أن الأشعث بن قيس لما جاء بصحيفة دعوة أهل الشام في صفين إلى الحكمين جعل الأشعث يطوف

بها في منازل أهل عسكر العراق من منزل إلى منزل, حتى أتى بني تميم فسل عروة سيفه وأقبل على الأشعث, فقال: ما هذه الدنية يا أشعث؟ وما هذا التحكيم؟ أشرط أوثق من شرط الله؟ ثم ضربه بالسيف والأشعث مولى فأصاب بالسيف عجز البغلة فشبت البغلة فنفرت اليمانية, وكانوا جل أهل العسكر, فلما رأى ذلك الاحنف قصد هو وحارصة بن قدامة ومسعود بن فديك* وشيبة بن ربيع إلى الأشعث, فسألوه الصفح ففعل.

صراحة عروة وتقواه

وذكر المبرد أن عروة لم يزل باقيا مدة من أيام معاوية حتى أتى به زياد, ومع عروة مولى أه فسأل زياد عروة عن أحوال الخلفاء والولاة حتى سألته عن نفسه, فقال: أولك لزنى وآخرك لدعوى, وأنت بعد عاص لربك ثم أمر به ف ضربت عنقه, ثم دعا مولاه فقال صف لي أموره فقال أظن أم اختصر؟ فقال: اختصر, فقال ما أتته بطعام نهارا قط ولا فرشت له فراشا بليل قط, ومن كامل المبرد قال: وكان مرداس بن حدير أبو بلا* أحد بني ربيعة بن حنظلة يعظمه الخوارج وكان مجتهدا كثير الصواب في لفظه, فلقبه غيلان بن خوشت الطبي فقال يا أبا بلا: أني سمعت البارحة الأمير عبدالله بن زياد يذكر البلجاء وأحسبها ستوخذ, فمضى إليها أبو بلا فقال لها أن الله قد وسع عن المؤمنين في التقية فاستتري قان هذا المسرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك فقالت ان يأخذني فهي أشقى به فأما أنا فما أحب أن يعنت إنسان بسببي فوجه إليها عبيد الله بن زياد فأوتى بها فقطع يديها ورجليها ورمى بها في السوق فمر بها أبو بلال والناس مجتمعون وقال ما هذا فقالوا البلجاء فعرج إليها ثم عض لحيته فقال لنفسه: لهذا أطيب نفسا على بقية الدنيا منها يا مرداس؟*

قال ثم إن عبيد الله اتبع أبا بلال وأصحابه يحبسهم فحبس مرداسا فرأى صاحب السجن شدة اجتهاده وحلاوة منطقه فقال أني أرى مذهبنا حسنا وأنني لأحب أن أوليك معروفا أفرأيت أن تركتك تتصرف إلى بيتك ليلا أتروح إلي؟ قال نعم فكان يفعل ذلك فلج عبدالله في قتلهم وحبسهم. فكلّم في بعضهم فأبى. وقال اقمعهم قبل أن ينجموا كلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع* قال: فلما كان ذات يوم قتل رجل منهم رجلا من الشرط فقال ابن زياد ما ادرى ما أصنع بهؤلاء كلما أمرت رجلا يقتل رجلا منهم فتك بقاتله, لا تقتلن من في حبسي منهم, وقد أخرج السجن مرداسا إلى منزله كما للرجوع فقال اه أهله انتق الله في نفسك فانك أن رجعت قتلت. فقال ما كنت لالقي الله غادرا, فرجع إلى السجن فقال: أني علمت ما عزم عليه صاحبك فقال أو علمت ورجعت؟!

قال ويروى إن مرداسا مر بإعرابي هنا بغيرا فهرج البعير فسقط مرداس مغشيا عليه, فظن الأعرابي أنه صرع, فقرأ في أذنه, فلما أفاق قال له الأعرابي أني قد قرأت في آذنك فقال مرداس ليس في ما خفته علي, ولكن رأيت بعيك هرج من القطران, فذكرت به قطران جهنم, فأصابني ما رأيت, فقال له لا جرم, والله ما فارقتك,

رأي الشراة في السكوت عن الظلمة وخروجهم عنهم

قال فلما خرج من حبس ابن زياد ورأى جده في طلب الشرة عزم على الخروج, فقال لأصحابه انه والله لا يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين تجري علينا أحكامهم مجانفين للعدل, مفارقين للفضل, والله أن الصبر على هذا لعظيم, وأن تجريد السيف وإخافة السبيل لعظيم, ولكننا نشذ عنهم ولا نجرد سيفا, ولا نقاتل إلا من قاتلنا. فاجتمع إليه صحابه زهاء ثلاثين رجلا منهم حريث بن حجل السدسى وكهمس بن طلق الصريمى, فأرادوا أن يولوا أمرهم حريثا فأبى, قولوا أمرهم مرداسا فلما مضى بأصحابه لقيه عبدالله بن زياد الأنصاري*, وكان له صديقا فقال له يا أخي أين تريد؟ فقال أريد أن أهرب بديني وأديان أصحابي من أحكام هؤلاء الجورة, فقال أعلم بكم أحد؟

قال لا , قال : فارجع , قال أتخاف علي مكروها؟ قال نعم , وأن يؤتي بك قال : فلا تخف , فأني لا أجرد سيف ولا أخيف أحدا ولا أقاتل الا من قاتلني ثم مضى حتى نزل أسك وهو ما بين (رام هرمز) و (أرجلان) فمر به مال يحمل إلى ابن زياد وقد قارب أصحابه أربعين فحط ذلك المال , فأخذ منه عطاءه , ورد الباقي على الرسل . وقال لهم : قولوا لصاحبكم إنما قبضنا اعطياتنا , فقال بعض أصحابه فعلام تدع لهم الباقي وهو في؟ فقال لهم إنما يقسمون الفئ كما يقيمون الصلاة . أفنقاقتهم على الصلاة؟

ولأبي بلال إشعار في الخروج اخترنا منها قوله :
ابعد ابن وهب في الوفاء وفي التقى
ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
احب لقاء أو أرجى سلامة
وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيا رب سلم نيتي وبصرتي
وردني التقى حتى ألقى أولئكا*

قال : ويروى أن رجلا من أصحاب ابن زياد قال خرجنا في جيش نريد خراسان , فمررنا بأسك , فإذا نحن بهم ستة وثلاثين رجلا , فصاح بنا أبو بلال : اقاصدين لقتالنا انتم؟ وكنت أنا وأخي فدخلنا زربا , فوقف أخي ببابه فقال السلام عليكم فقال مرداس وعليكم السلام , فقال لاخى أجنتم لقتالنا؟ قلنا لا إنما يريد خراسان , قال : فابقعوا من لقيكم اننا لم نخرج لنفسد في الأرض ولا لنروع أحدا , ولكن هربا من الظلم , ولسنا نقاتل الا من يقاتلنا , ولا تأخذ من الفئ إلا اعطياتنا ثم قال أندب الينا أحد؟ قلنا نعم اسلم بن زرعة الكلابي , قال فمتى ترون يصل الينا؟ فلنا يوم كذا وكذا فقال أبو بلال : حسبنا الله ونعم الوكيل . وجهز عبيد الله بن زرعة في أسرع وقت , ووجهه إليهم في ألفين , وقد تنام أصحاب مرداس أربعين رجلا : فلما صار إليهم ابن زرعة صاح به ابو بلال : اتق الله يا مسلم فأننا لا نريد قتالا ولا نحتجن فيئا , فما الذي تريد؟ قال أريد أن أردكم إلى ابن زياد , قال مرداس إذا يقتلنا , قال وأن قتلكم ! قال تشرك في دماننا , قال أذن الله بأنه محق وأنت مبطلون , فصاح به حريث بن جل : هو ممن يطيع الفجرة وهو أحدهم ويقتل بالظنة , ويخص بالفئ ويجور في الحكم إما علمت أنه قتل بآب بن سعادة أربعة براء , وأنا أحد قتلته؟ ولقد ضعت في بطنه دراهم كانت معه* . ثم حملوا عليه حملة رجل وأحد , فانهزم هو وأصحابه بغير قتال , قال وكان معبد أحد الشراة فد كان إن يأخذه , فلما ورد على ابن زياد غضب عليه غضبا شديدا , وقال ويحك أتمضى في ألفين وتهزم لحملة من أربعين رجلا؟ وكان مسلم يقول لان يذمني ابن زياد وأنا حي أحب إلي من أن يمدحني وأنا ميت . وكان إذا خرج إلى السوق ومر بصبيان صاحوا به أبو بلال وراءك , وربما صاحوا به يا أبا سعيد* خذه , فشكى ذلك إلى ابن زياد فأمر الشرط أن يكف الناس عنه , ففي ذلك يقول عيسى بن فاتك التميمي من بني تميم اللات بن تغلبة في كلمة له :

فلما اصبحوا , صلوا وقاموا
إلى الجرد العتاق مسوينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم
فظل ذوو الحفال يقاتلونا
بقية يومهم حتى اتاهم
سواد الليل فيه يرواغونا

يقول بصيرهم لما أتاهم
بأن القوم ولوا هاربينا
ألفا مؤمنين فيما زعمت
ويهزمهم زهاء بربعينا؟
كذبتم ليس ذاك كما زعمت
ولكن الخوارج مومنون
هم الفئة القليلة غير شك
على الفئة الكثيرة ينصرون

قال ثم ندب ابن زياد لهم الناس فاختر عباد بن اخضر فوجهه في أربعة آلاف فنهد لهم, ويزعم أهل العلم: أن القوم قد كانوا تتحوا عن دار (بجرذ) بأرض فارس فصار إليهم عباد وكان التقاؤهم في يوم الجمعة فناداهم أبو بلال أخرج إلي يا عباد, فإني أريد أن أحاورك, فخرج إليه) فقال له (أبو بلال) ما الذي تبغي؟ قال إن أخذ بأقفاكم ونردكم إلى الأمير عبدالله بن زياد, قال أو غير ذلك؟ قال وما هو؟ قال إن ترجع, فأنا لا نخيف سبيلا, ولا نذعر مسلما, ولا نحارب إلا من حاربنا, ولا نجبي إلا ما حمينا. فقال ه عباد الأمر م قلت لك, فقال له حريث بن حجل أتحاول أن ترد فئة من المسلمين إلى حبار عنيد؟ فقال لهم انتم أولى بالضلال منه, وما من ذلك بد. قال وقدم القعقاع قال ما هذا؟ قيل له الشراة, فحمل عليهم ونشبت الحرب فأخذ القعقاع أسيرا, فأوتى به أبا بلال, فقال له من أنت؟ قال لست من أعدائك وإنما قدمت للحج فجهلت وغررت, فأطلقه فرجع إلى عباد, فاصح من شأنه ثم رجع فحمل عليهم ثانية وهو يقول.

أقاتلهم وليس علي عتب
نشاطا ليس هذا بالشطاط

أكر على الحروريين مهري
لأحملهم على وضح الصراط

فحمل عليه حريث وكهمس فأسراه فقتلاه, ولم يأتيا به أبا بلال.
يقتلون غدرا لإجل محافظتهم على الصلاة

فلم يزل القوم يتجلدون إلى وقت الصلاة صلاة يوما لجمعه, فناداهم أبو بلال يا قوم هذا وقت الصلاة, فدعونا حتى نصلى وتصلوا صلاة الجمعة قالوا لك ذلك, فرمى القوم أجمعين بأسلحتهم, وعمدوا للصلاة, فأسرع عباد ومن معه, وأبو بلال وأصحابه بين راعع وساجد وقائم في الصلاة وقاعد, حتى مال معليه عباد ومن معه فقتلوه جميعا, واتي براس أبي بلال وكان في القوم كهمس وكان ابر الناص بأمه فقال يا أماء لولا مكانك لخرجت, فقالت يا نبي قد وهبتك لله ففي ذلك يقول عيسى بن قاتك.

ألا في الله لا في الناس شالت

بداوود واخوته الجدوع

مضوا قتلا, وتشرىحا وصلبا

تحوم عليهم طير, وقروع

إذا ما الليل أظلم كابدوه

فيسفر عنهم وهم ركوع

إطار الخوف نومهم فقاموا

وأهل الأمن في الدنيا هجوع

وقال عمران بن حطان:
يا عين أبكي لمرداس ومصرعه
يا رب مرداس اجعلني كمرداس
تركنتي هائما ابكي لمرزئتي
في منزل موحش من بعد ايناس
أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه
يا رب مرداس اجعلني كمرداس*

قال: ثم أن عبادا لبث في المصر محمودا لما كان منه حتى ائتمر به جماعة من الشراة, إن يفتكرا به, وذمر بعضهم بعضا على ذلك فجلسوا له في جمعة, وقد أقبل على بغلة له, وابنه رديفه فقام إليه رجل منهم, فقال أسألك عن مسألة؟ قال, قل قال رأيت رجلا قتل رجلا بغير حق والقاتل ذو جاه وقدر وناحية عند السلطان, أولى ذلك المقتول أن يفتك به أن قدر عليه؟ قال, بل يرفعه إلى السلطان, قال: أن السلطان, قال أن السلطان لا يعدى عليه لمكانه منه, قال أخاف عليه من أن يقتله به, قال: دع ما تخافه هو وأصحابه, وخبطوه بأسيا فهم, فرمى عباد بابنه فنجأ, وتتادى الناس, قتل عباد فأخذوا أقواه الطرق, وكان مقتل عباد, سكة بني مازن فحارب بنو مازن قتله عباد حتى قتلوه.

قيل, وكان ذلك سببا لجا ابن زياد في تتبعه الشراة حتى بعث إلى خليفته بالصرة, أن وجه إلى بعروة بن سويرة المنقري. فكتب بذلك إلى عبيد الله بن زياد فقرأ عليه الكتاب: إن أصبناه في شرب*, فتهانف به عبيد الله فقال له صفحت ولؤمت, إذ هو في سرب العلا بن وسويرة ولوددت أنه ا كان. أنه ما كان ممن يشرب النبيذ قلت وهذا الخبر قد تقدم معناه, وفي الرواية بعض المخالفة للخبر المتقدم من ذكر عروة.

الحوار الذي دار بين ابن زياد وعروة

قيل, فلما أقيم عروة بين يديه أخذ يحاوره وقد اختلف في خبره وأصحابه عندنا أنه قال له: أجهزت أخاك علي؟ فقال والله لقد كنت به ضنينا, وكان لي عرى* ولقد أردت له ما أريد لنفسى, فعزم عزما فمضى عليه رأيه قال كنا نعبد ربا واحدا قال أما والله لا مثلن بك. اختر لنفسك من القصاص ما شئت فأمر به فقطعوا يديه ورجليه ثم قال له كيف ترى؟ قال أفسدت علي دنياي وأفسدت عليك آخرتك, ثم أمر به فقتل ثم صلب علي باب دارة, ثم دعا مولاه فسأله عنه فأجابه بجواب قد مضى ذكره, وقال أبو سفيان لما قطع الفاسق عبيد الله بن زياد يدي عروة ورجليه جاءه أعرابي, فقال من هذا؟ قالوا رجل أراد الأمير عذا به, قال هلم إلي بسيف فأعطاه سيفاً فضرب عنقه, قال فاجتمع لذلك نفر من الشراة قاتوا إلى امرأة منهم فقالوا لها: قاتل عروة دلينا على موضعه, فقالت اقتلوه في بيتي وعلى أن أتاكم به فعمدوا إلى موضع في البيت فحفروا فيه حفرة. ثم القوا عليها شيئا ثم ذهبت إليه فعرضت عليه شيئا يشتريه أو اشترت منه شيئا, وأقبلت فأدخلته الدار عليها, فالقوه في الحفرة فردوا عليه الحجارة والتراب ثم غيبوه, والحقه الله إلى النار وبئس المصير.

إذا كنت في مجلس فاحسن حمل رأسك

وقال أبو سفيان مر أبو بلال يوما بجماعة من قومه في ناديهم على فرس له, فوقف فسلم, فقال شاب منهم يا أبا بلال فرسك حروري, فقال أبو بلال وددت والله أني أو طأته بطنك في سبيل الله, قال فمضى أبو بلال وقد وقع في نفس الفتى قوله أبي بلال قال فقال لأصحابه أني مقتول, قالوا لا

تخف, قال دعوني أني مقتول قال فمشت إليه جماعة منهم بالفتى فقالوا: يا أبو بلال زلة كانت, فاصفح عنها. قال: فعلت, ولكن يا فتى إذا كنت في مجلس فأحسن حملان رأسك. خشية أبي بلال وخوفه من الله

وقال خرج أبو بلال مع صاحب له فبينما هو يسير في الطريق إذ مر بحدادين فنظر إليهم, فغشي عليه ولم يزل به الرجل يرش على وجهه الماء حتى أفاق, ثم سار فبينما هما يسيران استقبلتها امرأة جسيمة بهية عليها من الكسوة والهيئه ما الله به عالم, فلما نظر إليها غشي عليه, ولم يزل يزل يرش على وجهه الماء حتى أفاق ثم سار حتى استقبلها رجل على بردون في نزهة وهيئة عجيبة وخلفه غلمان, فلما نظر إليه غشي عليه, فلم يرش على وجهه الماء حتى أفاق فقال يا أبا بلال رحمك الله ما هذا؟ قال أما المرأة والرجل فقال إما المرأة فأني لما رأيت عظما وحسنا وما هي فيه من الهيئة ذكرت قلبها في النار فكان ما رأيت وأما الرجل فأني لما رأيت عظمها وحسنا وما هي فيه من الهيئة ذكرت قلبها في النار فكان ما رأيت وإما الرجل فإني كنت أراه كثيرا يشهد مجالس المسلمين ذكرت سوابق الشقاء. فنسأل الله العافية, وذكر أبو سفيان لما رفع أهل الشام المصاحف قال عروة رحمه الله:

أحرم أهل الشام منا بشبهة

وليس علينا قتلهم بمحرم؟

وقالوا كتاب الله يحكم بيننا

فقلنا كتاب الله خير محكم

قبلناه منكم, والحوادث جمعة

رضينا به في حرمة المال والدم

فـان تقبلـوه الهـدي فـي أكفـا
والا اجتـلـدنا بالـصـفيح المـصـمم
بـرب يزـيـل الهـام عـن مسـتقره
وشـيكا وطـعن بالوشـيح المقـوم
فـلا شـئ أدنـى مـن شـفاعـة ربـنا
والا ففـينا مـن بـقية جـرهم

عمران بن حطان

ومنهم عمران بن حطان الشاري رحمه الله ورضى عنه هو النهاية في الورع والصلاح واطراح الدنيا كل الاطراح لما خصه الله عز وجل من فنون العلم والنزاهة والحلم وشهامة الجنان, وفصاحة اللسان إن خطب ابلغ وأطنب أو أوجز وإن نظم سحر بيانه وأعجز فمن ذلك ما حكى المبرد قال لما قتل أبو بلال رحمة الله قال عمران بن حطان:

لقد زاد الحياة إلي بغضا

وحبـالـخـروج أبـو بـلال
أحـذر إن أمـوت عـلى فراشـي
وأرجـو المـوت تحـت ذرى العـوالي
فمـن يـكـهم هـالـك دنـيا فـاني
لـهـا والله رب العـرش قـالى

وقال يرثيه في أبيات قد تقدمت. وأولها (يا عين أبكي لمرداس ومصرعه) وقالها أبو بلال قبل الخروج , وقد نسبت لغيره, قيل والصحيح إنها له, ذكرها ابن السيكت وغيره وهي قوله:

لقد زاد الحياة إلى حبا

بنات أنه من من الضعاف
أحذر أن يرين الفقير بعدي
زتم يشربم رمقا بعاصف
وان يعررين ان كسرى الجوارى
فتنبو العرين عن كرم عفاف
ولولا ذاك سومت مهري
وفى الرحمة ان للضعاف
أبائنا من لنا أن غبت عنا
وصار الحبيبي بعديك في اخي تلاف

ومن هاهنا أخذ عمران قوله لقد زاد الحياة إلى بغضا قال المبرد كان عمران رأس العقد وخطيبهم شاعر هم، قال وكان من حديثه أنه لما طرده الحجاج كان ينتقل في القبائل فكان إذا نز في حي انتسب نسباً يقرب منه وفي ذلك يقول:

نزلنا ففبي بني سبي عيد بن زياد
وفى عواد وعامر وعوثبان
وفى لخي وففى أدب ابن عم
وفى بكري وحرى بنى العبدوان
ثم خرج حتى نزل عند روح بن زنباع الخدامى وكان روح يقرى الاضياف وكان مسامرا لعبد الملك بن مروان أثيرا عنده، وانتمى له من الازد وفي غير هذا الحديث إن عبد الملك ذكره وقال ما أعطى أحدا ما أعطي أبو زرعه أعطي فقه أهل الحجاز ودهاء أهل العراق، وطاعة أهل الشام قال وكان روح بن زنباع لا يسمع شعرا نادرا، ولا حديثا غريبا عند عبد الملك فيسأل عنه عمران ابن حطان ألا عرفه وزاد فيه، وذكر ذلك لعبد الملك بن مروان وقال أن لي جارا من الازد ما اسمع من أمير المؤمنين خيرا ولا شعرا إلا عرفه وزاد فيه، وقال : أخبرني ببغض أخباره فخبيره وانشده، فقال إن اللغة عدنانية وإنى لأحسب ضيفك عمران بن حطان حتى تذاكر الليلة بيتين من الشعر، فلم يدر عبد الملك لمن هما فرجع روح فسأل عمران عنهما، فقال هما عمران بن حطان فرجع روح إلى عبد الملك فأخبره فقال ضيفك عمران بن حطان اذهب فجنني به فرجع إليه فقال أمير المؤمنين قد احب أن يراك، فقال عمران قد أردت أن أسألك ذلك فاستحييت منك، فامض فإنني بالأثر فرجع روح إلى عبد الملك فأخبره فقال عبد الملك: إما انك سترجع فلا تجده فرجع وعمران قد ارتحل وخلف رقعة فيها:

يا روح كم من أخي مثوى نزلت به

قد ظن ظنك من لخم وغسان

حتى إذا خفته فارقت منزله

من بعد ما قيل عمران بن حطان

قد كنت جارك حولا لا تروعي

فيه روائع من انس ومن جان

حتى أردت بي العظمى فأدكني

ما أدرك الناس من خوف ابن مروان

فاعذر أخاك ابن زنباع فان له

في النائبات خطوب ذات ألوان
يوما يمان إذا لاقيت ذا يمان
وان لقيت معديا فعدناني
لو كنت مستغفرا يوما لطاغية
كمنت المقدم في سرى واعلاني
لكن أبت لي آيات مطهرة
عند الولاية في طه وعمران

ثم ارتحل حتى نزل بزفر بن الحارث الكلابي أحد بني عمرو بن كلاب فانتسب له أوزاعيا فكان
عمران ممن يطيل الصلاة, وكان غلمان بني عمرو يضحكون منه فأتاه رجل يوما, ممن رآه عند
روح بن زنباع, فسلم عليه فدعاه زفر, فقال من هذا؟ قال رجل من الازد رايتك ضيفا لروح بن
زنباع, فقال له زفر: ما هذا, أزديا مرة وأوزاعيا أخرى؟ أن كنت خائف أمناك وان كنت فقير
جبرناك . فلما أمسى خلف في منزله رقعة – وهرب - فيها:

أن التي أصبحت يعني به زفر
أعيت عياء على روح بن زنباع
ما زال يسألني حولا لأخبره
والناس من بين مخدوع وخداع
حتى إذا انقطعت عني مسائله
كف السؤال ولم يولع باهلاعى
فاكفف لسانك عن لومي وأسئلتى
ماذا تريد إلى شيخ لأوزاعي
إما الصلاة فإني لست تاركها
كل امرئ بالذي يعني به ساع
أكرم بروح بن زنباع وأسرته
قوم دعا أوليهم للعلا داع
جاورتهم سنة فيما أسر به
عرضي صحيح ونومي غير تهجاع
فاعمل فانك منعي بواحدة
حسب اللبيب بهذا الشيب من ناع

ثم ارتحل حتى أتى عمان فوجدهم يعظون أمر أبي بلال ويظهرونه فاطهر أمره فيهم فبلغ ذلك
الحجاج فكتب إلى عمان فيه, فهرب عمران حتى أتى قوما من الازد فلم يزل فيهم حتى مات
رحمة الله. وهو يقول:

نزلنا بقوم يجمع الله شملهم
وليس لهم عود سوى المجد يعتصر
نزلنا بحمد الله في خير منزل
نسر بما فيه من الإنس والخفر
من الازد إن الازد أكرم مشعر
يمانية طابوا إذا انتسب البشر

فأصبحت فيهم أمانا لا كمعشر
أتوني فقالوا من ربيعة أو مضر
أم الحي قحطان, فتلکم سفاهة
كما قاله روح, وصاحبه زفر
وما منهما إلا يسر بنسبة
تقربني منه وان كان ذا نفر
فنحن بنو الإسلام والله واحد
وأولى عباد الله بالله من شكر

ومر عمران بالفرزدق على باب بعض الملوك الطائيين ينشد شعرا يمدحه به فسمعه قد تجاوز
النهاية في المدح وغلا علوا عظيما فقال عمران:
ايها السائل العباد ليعطى
أن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما رجوت لديهم
وارج فضل المهيمين العواد
لا تقل في الجواد ما ليس فيه
وتسمى البخيل باسم الجواد

وذكر غير واحد من أهل التواريخ انه لما أوتي الحجاج بعمران بن حطان أسيرا قال يا حربي
أضرب عنق ابن الزانية, فقال له عمران: (بئس ما أدبك به أهلك يا حجاج: ابعد الموت منزلة
اصانعك عليها؟ ما كان يؤمنك أن ألقاك بمثلها؟) ! فاستحى الحجاج فأطلقه وذكر أن أصحابه
اجتمعوا إليه فقالوا إنما أطلقك الله لما رأى في رجوعك إلينا هلم إلى محاربة الحجاج فقال هيهات
غل يدا مطلقها, واسترق رقبه معتقها, والله لا أتحاربه أبدا, فجعل ينتقل في الأحياء مختفيا كما
تقدم.

جعفر بن السماك

ومنهم جعفر بن السماك رحمه الله. شيخ الصيانة والنزاهة, وركن الديانة والفقاهة*, المحافظ على
طريق الصديقين والمطرح في حرمة الخالق حرمة المخلوقين الآتي بيت الصلاح من بابيه, إلا
فيما ليس باللائق باضرابه له الكعب العالي في أهل زمانه, والتقدم في فضله ومكانه .
وفوده مع جماعة على عمر بن عبد العزيز

قال أبو سفيان وقد جعفر بن السماك العبدى وكان شيخ أبي عبيده وكان ما حفظ عنه أبو عبيد
أكثر مما حفظ عن جابر قال فخرج جعفر بن السماك, والخباب بن عبد العزيز حين ولي الخلافة,
قال فدخلوا عليه فكلموه, فقال لهم : هل تتكرون من أمر الأحكام شيئا؟ قالوا: لا قال فكلما كلموه
يفزع إلى الأحكام قال فبايعوه وكرروا أمر الولاة قبله فأخذ يعتذر عنهم, يريد أن ينصرفوا عنه
قال فقال الخباب, فضربت على ركبته وقلت أو انك لها هنا تذر الظلمة؟ وتقول؟ فقال عمر يا عبد
الله امسك عليك يدك فأني لو أمرت قال وكان جعفر ألطفهم به قال فقال ما فيكم أرفق من الاشج
وكان جعفر مشجوجا في جبهته. قال, فأجابهم عبد الملك بن عمر وقبل ما دعوه إليه قيل, وسئل
جعفر وأصحابه حين رجعوا من عند عمر عن عمر فقال: هو مثل الحسن يقدم رجلا ويؤخر

أخرى, وذكر أبو سفيان عن الحسن أنه كان يقول انهم وان قرنت بهم بر أدینهم فان ذل المعاصی في رقابهم أبي الله إلا أن يذل من عصاه.*

صحار العبدی

رأي أبي عبيده في القدر ومنهم صحار العبدی رحمه الله. ذو المآثر الأثيرة, ومن كان يدعو إلى الله على بصيرة, حمل فقها جزيلا. وكان باعه في العقائد طويلا وكان أحد الزهاد, وأحد الزاهدين عن معتقد فلدى الاعتقاد, قال أبو سفيان كان أبو عبيده يضعف أمر القدر, ويقول: والله ما فيه نكاح ذات بع, ولا انتحار هجرة ولا حكم بغير ما انزل الله, إنما هو رأى أحدثه الناس فيما بينهم فمن أقر بان الله علم الأشياء قبل أن تكون فقد أقر بالقدر قال أبو سفيان وذلك أن صحار يقول: كلمهم في العم فان أقروا به نقضوا أقوالهم وان أنكروه كفروا.

قريب بن مالك وزحاف

ومنهم قريب (و) زحاف ابنا مالك رحمهما الله كانا بالفضل بمكان, وبمن يعد الإمكان متبئلين للعبادة وكانت عنهما هفوة كفرتها الشهادة, حدث أبو سفيان قال لما الح ابن زياد في أخذ الشراة أخذ جماعه منهم فممنهم العرب والموالي, قال فأمر الموالى بضرب أعناق العب فأبوا وقالوا لا نقتل أهل ولايتنا وأهل نعمتنا قال وأمر العب بضرب أعناق الوالي, فضربوا أعناقهم فلما فعلوا ذلك خلي سبيلهم, قال فلما خرجوا من عنده قالوا ما صنعنا! قتلنا إخواننا وأولياءنا قال فأتوا إلى أوليائهم وقالوا استقيدوا منا قالوا تالله لانفعل عمدتم إلى أوليائكم فقتلتموهم وقد دعوا إلى مثل ما دعيتم إليه فأبوا ستلقونهم غدا عند الله. قال وكان فيهم قريب وزحاف وآخر يسمى كعبا, وغيرهم فندموا أشد الندامة قال وكان أحدهم إذا تيمم مجلسا من مجالس المسلمين يستأذن فلا يؤذن لهم ويخاطب بأقبح الخطاب, فيقف يبكي ما شاء الله, ثم ينصرف. قال فأما كعب فانه لم يذكر ذلك الموقف لط إلا صعق فال فخرج ذات مرة من البصرة إلى مكة مع أبي عبيده قال وكان ذات ليلة في مضجعه إذ انتبه, فتذكر ر فصعق ووقع عن الجمل فأتاه أبو عبيده فنزل إليه وجعل يرفع رأسه, ويقول: أني لارجو أن لا يعذب الله كعبا, فكان هذا ما سمع فيه من أبي عبيده, وإما قريب وزحاف فانهما لما أعياهم الأمر خرجا في سبيل الله فقاتلا حتى قتلا وكان فيما يزعمون يقول أحدهما كلما ضرب عضو منه الله عضو بعضو حتى قتلا وحدث عن حاجت بن مسلم, عن جابر والأسود ابن قيس بن أبي وقاص " أو أبي فقعس " انهما كانا يلقيان ابن عباس في الموسم فجاء جابر وحده, فقال له ابن عباس أين صاحبك؟ قال أخذه عبيد الله بن زياد قال ابن عباس وانه لمنهم فقال له جابر نعم. أو ما أنت منهم؟ قال اللهم لا, وذكروا أن " أشجع بن قره " كان واليا عليهم بعد عبدالله بن حوش حتى قتلوا جميعا وقد كانوا هزموا عدوهم مرتين.

الناس يومئذ ثلاثة أصناف

حدثت أم نافع بن خليفة: أن الناس يومئذ على ثلاثة أصناف صنف جبابرة واتباعهم وصنف فساق يشربون النبيذ ويضيعون الصلاة ويعملون بالفواحش وليس هنالك يومئذ صفرية ولا أزارقة ولا شكاك, وإنما الذي يسمون: القراء يدينون بقتال الجبابرة وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقمع الفساق عما يصنعون, فلما ر ذلك زياد جعل يتخذ الإدلاء عليهم, ويأخذهم فيقتلهم فلما رأوا ذلك منه خشوا أن يقتلهم على فرشهم, فحدثني من لا أتهم أن أول من خرج عليهم قريب وزحاف ابنا مالك وكان خال حصين بن عدي بن حاتم فحدث حصين بن همام الكندي عن يسرة أبي يسار, وكانت فاضلة قالت: لقد قالوا شاعرا بني دهل يومئذ تعني قريبا وزحاف:

وقالوا لنا خلوا لنا عن طريقنا
فقلنا لهم لا والحليم الكريم
إلى أن نجرى فيكم بسيوفنا
ونقطع في الهامات كل قويم
يجرون بالارسان من وسط دورنا
إلى موقف للظالمين لنائم

الأحنف بن قيس

ومنهم الأحنف بن قيس تضرب به الأمثال في الحلم, وأكثر صفات الكمال فسل عن أنبائه من
لقيت من الركاب, أو فاطلع على ما أمكنك في هذا الفن من ديوان تجده المشار إليه في كرم
الشمايل, والمعتمد عليه في كثير من الفضائل.

إياس بن معاوية

ومنهم إياس بن معاوية وتضرب به الأمثال في الذكاء وتحري الصواب في القضاء أو ما سمعت
قول أبي تمام:

أقدام عمرو في سماحة حاتم

في حلم أحنف في ذكاء إياس

ومن طريق ما يوثق عنه ما حكى أبو الحسن علي بن عبد الحسن التتوخي انه لما استخلف عمر
بن عبد العزيز كتب إلى والي البصرة أن يحضر إياس بن معاوية المدوني, والقاسم بن ربيعة
الحويني, ولنيطر أيهما أنفذ في الحكم يقلده إياه فلما وقف على الكتاب أحضرهما فقرأ عليهما قال
إياس اسأل عني وعنه فقيهي المصر الحسن وابن سريين واسمع مني ومنه, وقال: قل. فقال بالله
الذي لا إله إلا هو - وحلف يميناً مستوفية جامعاً لمعاني الحلف - إن إياس بن معاوية أصلح
للحكم مني وأنفذ فيه فإن كنت عندك صادق فقلده وإن كنت كاذباً فما يحل لك أن تقلد الحكم بين
المسلمين من يبارز الله بمثل هذا اليمين كاذباً فقال إياس: لا تسمع منه أيها الأمير فانك حيث
جئت به إلى شفير جهنم فافتدى نفسه بيمين حلف بها كاذباً أن يقع فيها يكفر عنها ويستغفر الله
وينجو, فقال الأمير أو ليس قد فطن بها؟ أنت لا يا إياس, وقلده الحكم بين الناس ولكل من سمينا
ه في طبقتهم مآثر, قد عمر بها صدور الرجال وسطور الدفاتر, ولكلهم في أعلى الدرجات منابر
وان غيببت أشخاصهم المقابر.

الطبقة الثالثة 100-150هـ

أبو عبيدة مسلم

منهم أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة رحمه الله كبير تلامذة جابر وممن حسنت أخباره والمخابر,
تعلم العلوم وعلمها, ورتب الأحاديث واحكمها وحافظ في خفية على الدين حتى ظهر على يد
الخمسة الميامين, حسب ما تقدم من ذكر دراستهم وحملهم العلوم وما شفى الله وبهم من الكلوم,

وكان عالما مع الزهد في الدنيا والتواضع مع نيل الدرجات العليا, والاعتراف بضيق الباع على ما عليه من الاتساع.

فمن ذلك ما حدث أبو سفيان قال كان أبو عبيدة يضعف أمر الشفعة يقول لا تحبس على اليتيم حتى يكبر ولا على غائب قال فابتنى بها رجل من أصحابه فجاءه يسأله فقال اذهب إلى أشياخ البصرة فاسأل هل فيها لجاب أثر فجاء إلى منزل المحصر*, فاخبر أن جابر كان يراها ويوجبها فأمرهم أن يأخذوا بمقول جابر.

أبو عبيده لا يشك فيه

قال أبو سفيان شهد رجلان على شهادة أبي عبيدة عند قاضي البصرة قال فقال المشهود عليه اصلحك الله إن الذين شهدا إنما شهدا عندك على شهادة فلان, قال ويحك أني به عارف ولو جاز في أن أحكم برجل واحد لحكمت بشهادته.

أبو عبيده يتسم بالتشدد

قال وكان رجل من المسلمين يقال له حيان بن سالم من أهل عمان من طي, وكان فاضلا وكان يقول أبي عبيدة إذا جاوزت نهر البصرة فأنا أفقه منك ولو كنت أنت نبيئا ما أجابك أحد لما ترى من تشديد على الناس فضحك أبو عبيدة من قول وقال يالها موته كموته حيان* وحكى الملاح قال: دخلت أنا وعبد الملك الطويل على أبي عبيدة وقلنا: يا أبا عبيدة ما تقول في رجل دخل على امرأة فادخل يده من تحت ثيابها فنهضت المرأة فأنكرت ذلك إنكار الحرة أله أن يتزوجها؟ قال لا, قال فبينما نحن عنده إذ دخل أبو نوح صالح الدهان فقلنا من يسأله قال الفضل بن جندب أنا أسأله قال فسأله الفضل, ف قال : عبيدة إنها الفروج يا أبا نوح قال : صدقت ثم قال: أبو نوح يا معشر الفتیان, ألم أنهكم أو قال أني أنهاكم أن تسألوني إذا كان أبو عبيدة حاضرا.

حد الغبن في البيع كما يراه أبو عبيده

وقال خرج أبو عبيدة ذات مرة إلى مكة ومعه سابق العطار وكان سابق من خيار من أدركت قال فبينما هم نازلون في بعض المنازل إذ وقفت عليهم إعرابية معها لبن وسمن والجدي. فاشترى منها اللبن والسمن والجدي بقارورة خلوف وقلادة قال ثم جاء باللبن إلى أبي عبيدة قال, فقال: آخر عنا لبنك يا سابق قال لم يا أبا عبيدة؟ قال ويحك يا سابق كم ثمن القلادة؟ قال دانق أو نحوه قال فكم ثمن القارورة؟ قال دانق أو نحوه قال ويحك يا سابق إنما الغبن أن تكون العشرة بائتين أو العشرة بالخمسة أو الدرهم بالدرهم, وأما مثل هذا فلا. فأرسل سابق إلى الإعرابية فجاءت, فقال لها أبو عبيدة: كم ثمن اللبن عندهم؟ فقالت لا ثمن له عندنا قال وبكم ثمن السمن قالت درهمان, قال بكم ثمن الجدي؟ قالت: درهمان قال فاخرج سابق أربعة دراهم فدفعتها إليها, فقال أبو عبيدة هلم لبنك ألينا يا سابق.

وقال كان أصحابنا من أكثر الناس حبا وكان لغير واحد نجائب يحمل عليها إلى مكة, قال وكان جد سلامة يدعى بأبي سالم وكان من خيار المسلمين وفضلائهم وكان قيمن حبسه الحجاج مع أبي عبيدة وضممهم في السجن وقال كان أبو سالم يذكر ذلك, قال فرمنا إلى اللحم, قال وكان رجل يدخل علينا فسألناه أن يشتري لنا دجاجة ويشويها لنا, ويأتينا بأربعة أرغفة قال وكان أبو سالم موسرا كثير المال قال فاق للرجل: صانع فيها حتى توصله ألينا, قال فصانع صاحب الحبس. فأرسلها إليه فال فلما جاءنا بها فسمناها على أربعة أجزاء, قال فإذا نحن بجبة نحو البيت الذي نحن فيه قال ففخنا أن يكون فطن بنا, فرمينا بالدجاجة والأرغفة في الكنيف قال ولم يكن فطن بنا, قال وكن طرحنا إياها في الكنيف بعدما عايناها اشد من قرمنا اللحم ولما آمنوا استدرکوا خطاياهم.

قال وجاء رجل من المسلمين إلى أبي عبيدة فقال يا أبا عبيدة انهم يتعرضون لنا في المجالس قال أبو عبيدة هل سموا أحدا؟ قال لا , قال فمن يعلم ما تقول؟ فأشار إلى شيخ يقال له أبو محفوظ وكان من خيار من أدركته, قال فما تقول له أبو محفوظ؟ قال صدق فهل سموا أحدا؟ قال لا قال أبو عبيدة وإن القرآن يتعرض للناس فمن عرف من نفسه شيئا فابعد الله من بعده.

اجتمع ابن الشيخ البصري وأبو عبيدة بمنى, فقال ابن الشيخ له: يا أبا عبيدة هل جبر الله أحدا على طاعته أو معصيته؟ قال ما أعلم إن الله خير العباد على طاعته أو معصيته؟ ولو كنت قائلًا أن الله جبر أحدا لقلت جبر أهل التقوى على التقوى لتنظم تخويفه لهم وشدة ترغيبهم به إياه, قال يا أبا عبيدة, فالعلم* هو الذي قاد العباد إلى ما عملوا قال لا, ولكن سولت لهم أنفسهم وزين لهم الشيطان أعمالهم وكان منهم ما معلم الله, وقال كان حمزة الكوفي يقول بشيء من القدر فهجرة أبو عبيدة وأمر بهجرانه فقال يوما عجباً بأبي عبيدة يأمر بهجراني وهؤلاء الفتيان يقول: أراد وشاء, واحب ورضى وهو يدينهم ولا يقول بمثل قولهم! قال فبلغ قوله أبا عبيدة فقال قبح الله رأيه أن هؤلاء أرادوا إثبات القدر فقالوا فيه وحمزة يريد أزالتة وليس مثبتة كمزيلة.

وقال قيل لأبي عبيدة لا يستطيع الكافر الإيمان فقال لا أقول أن من يستطيع أن يأتي بحزمة حب من حل إلى حرم لا يستطيع أن يصلي ركعتين ولا أقول أنه يستطيع ذلك إلا أن يوفقه الله تعالى.

وقال دخل سهل بن صالح وعبد الله بن زريق الهداوي وجماعة من الفتيان على أبي عبيدة فقالوا يا أبا عبيدة ما تقول في غربة من الأرض (وفيها رجل) على دين عيسى عليه السلام ولم تأت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال : مسلم ما لم تأت الحجة فيدفعها قال فقالوا له: فما ترى أن هو دعا رجلا من المجوس إلى دينه فأجاب؟ قال هو مسلم, فقالوا له: انظر في هذا , قال فما تقولون أنتم؟ قالوا نقول : الرجل مسلم والمستجيب كافر قال, فقال له الشيخ ألسنتم تزعمون أن الرجل مسلم على دين الله وطاعته؟ قالوا بلى, قال فكيف يكون ويحكم الداعي إلى دين الله وطاعته مسلم ويكون المستجيب لدين الله وطاعته كافر!! قال فرادوه الكلام, قال فغضب عليهم وبرئ منهم فقال: أخرجوا عني فخرجوا عنه منكسرين , فأتوا حاجبا فقالوا له: أغثنا فإنه عجل علينا بالبراءة إنما أردنا أن نستفهمه, قال فركب إليه حاجب فأعلمه أنهم تائبون, قال فقال له أخرجهم فليأتوا الربيع وعبد السلام بن عبد القدوس فليعلموها بتوبتهم قال ففعلوا. قال الربيع فأتوني وأنا لا أعرف قصتهم فتأبوا فأتينا أبا عبيدة فأعلمناه, قال فقيل منهم وأمر بهم فدخلوا المجالس

وقال وائل كنا بمنى في خباء أبي عبيدة , وحاجب حاضر, ومحمد بن سلامة المدني ومحمد بن خليفة المدني, وكان محمد بن حبيب من العبادة الأخيار, قال: ولم ير أبا عبيدة قام يسلم على أحد إلا على محمد بن سلامة, وحمد بن حبيب فإنه إذا رآهما قام إليهما واعتقهما, قال وائل وفي الخباء مشائخ من أهل حضرموت فقهاء علماء قال فسألتهم عن رجل اكترى دابة إلى موضع معلوم, فجاوز الموضع, فعطبت الدابة , قال فأجمعوا كلهم أنه ضامن للدابة , قال فقلت له فما ترون في الكراء؟ قالوا لا نرى عليه كراء إنما ضمنناه الدابة, قال وكان أبو عبيدة غائبا أو نائما فاستيقظ فقال حاجب يا حضرمي اسأل الشيخ عن مسألتك, قال فسألته, قال: يضمن ثمن الدابة والكراء, قال فقال ه محمد بن سلامة من أين يا أبا عبيدة؟ قال من حيث لا تعلم.

وقال أبو سفيان جاء رجل من الازد يقال له النظر أبو محمد إلى أبي عبيدة يسأله فوجده في شكاه فإجابة بجواب ثم يقال اذهب إلى الربيع فائت به قال: فجاء الربيع ودخل الربيع ودخل على أبي عبيدة وهو مستلق وعلى صدره صحيفة فيها فتات خبز يأكل منه, قال, فقال, اسأل الربيع عن مسألتك, فقال له أبو عبيدة أليس المقوم فيها كذا وكذا يعني الجواب الذي أجاب به الرجل أو لا,

فقال حفظت عني قال نعم, قال فقال للرجل فخذ به فانه قد حفظ عني قال أبو سفيان كأن الشيخ أحس من نفسه لأجل تشاكبيه أنه وهم فيها.

وقال أبو سفيان جاء حمزة الكوفي إلى أبي عبيدة في منزله, فقال من جاء بك إلي؟ فقال: وإلى من أذهب يا أبا عبيدة! أني أريد أن أذكرك بعض هذا الأمر, قال فعليك بمنزل حاجب قال: وما أصنع به ولست حاضرًا؟ قال فإني آتيك هناك, قال فخرجا حتى أتيا منزل حاجب قال فدخل البيت فتكلما كلاما كثيرا فكان آخر ما سمع من أبي عبيدة أن قال يا حمزة على هذا القول فارقت غيلان, قال فخرج أبو عبيدة ثم كلمه حاجب قال فكان هيبته من حاجب أعظم من هيبته من أبي عبيدة قال, فقال حمزة إنما أخذت هذا الكلام من عند المسلمين قال, فقال له حاجب لم تدرك أحدا إلا وقد أدركته ولقيته إلا جابرا. فمن من أخذت هذا القول؟ قال منك أخذته قال فقال فإني أرجع عنه, فارجع عنه كما رجعت قال فقال ارفق بي يا أبا مودون وأقبل مني ما أقول لك. قال: هات قال أقول: (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) فالحسنات من الله والسيئات من العباد وأقول (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) قال فقال له الحاجب اما من غيرك فمقبول منه هذه الجملة وأما منك فأنا اعر ف مذهبك فيه أولا , قال فخرج حمزة من عنده , قال فسئل عنه حاجب فقال ارفقوا بحمزة, ولا تقولوا فيه إلا خيرا, قال فمكث بذلك ما شاء اله ثم بلغهم انه مشى إلى النساء فكلمهن في ذلك وإلى الضعفاء قال فلما بلغ ذلك أبو عبيدة وحاجبا أمر أبو عبيدة حاجبا أن يجمع له الناس فمشى إليهم وأعلمهم ووعدهم فاجتمعوا ولا يعلمون ما يريد أبو عبيدة وحاجب قال فتكلم المتكلمون وحاجب ساكت لا يتكلم قال فلما فرغوا تكلم حاجب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أن حمزة وعطية والحارث أحدثوا علينا أحداثا من آواهم أو جالسهم فهو عندنا الخائن المتهم قال فتفرق الناس وطردوهم من المجالس ولم يقربهم أحد.

قال أبو سفيان قال المعتمر بن عمارة قلت لأبي عبيدة انك أحب إلي من أبي قال فذلك ينبغي لك يا معتمر أن تكون لأنك بذلك بذلت لي ما تبذل له يعني الولاية, وقال خبرني بعض بني يسر قال قدم إلينا أبو عبيدة مرة حاجا ومعه امرأة منا المهلبيات, قال وهي جدة (سعيدة) أو عمتها قال فلما فرغوا من حجهم قالت: يا أبا عبيدة أني أريد المقام بمكة, قال لا تقيمي, الخروج أفضل لك قال ابن مسروق , فقلت: وأنا اخرج معكم يا أبا عبيدة قال ف قال : أما أنت فأقم , قال فقلت تأمر هذه بالخروج معك وتأمرني بالقيام؟ قال لأنك أنت قريب من مكة ونحن بعيد منها قال ومسكنهم إذ ذاك بزرة*, قال أبو سفيان يعني بقوله انتم قريب منها يعني الطواف وبعيد من شر أهلها كأنه يكثر المقام بها للتجارة.

وقال لما بعث أبو عبيدة الربيع للناس أيام مرضه قال له الربيع: يا أبا عبيدة قد كنت تحضر أنت وحاجب وحافظ الوائلي فما تكاد ولا تقومون لما يرد عليكم فيف بي؟ فقال له أبو عبيدة يا ربيع انه ليس بيني وبين الناس سوط ولا سيف, من جاءك موافق لك يقول بقولك فيها ونعمت ومن أتاك مخالفا عليك فأبعد الله من أبعده وقل بما تعرف ودع الناس لما هم فيه وقال جاء المختار ابن عوف إلى منزلنا فرج إليه أخ لي صغير كان أكثر من ابنتك قال قد فعلت يا بني وابنته يومئذ صغيرة , فلما خرج أبو حمزة وقع في قلبه مما قال الفتى شئ فمضى حتى دخل على أبي عبيدة فقص عليه القصة فقال يا أبا حمزة هما على نكاحهما حتى يبلغا فيعلمان الخبر فان رضى كان نكاحهما جائزا, وأن كرها فلا شئ قال أبو حمزة يا أبا عبيدة فكيف القول في الصداق, قال ما قال الغلام, قال وكان أبو حمزة قد قال للغلام يا بني فما تعطيها؟ قال من سرير جدي إلى الباب دراهم, قال أبو عبيدة فهو كما قال, أن قال درهم إلى درهم إلى الباب ون قال مرة واحدة أو هكذا لك , فالقول ما قال قلت وهذا كله فيه نظر غير أن أبا عبيدة لا يترك القوم سدى.

وحكى بعض أصحابنا أن واصل بن معطاء المعتزلى صاحب عمرو بن عبيد كان يتمنى لقاء أبي عبيدة , ويقول: لو قطعته قطعت الإباضية قال فبينما هو في المسجد الحرام ومعه أصحابه, إذ أقبل أبو عبيدة ومعه أصحابه, فقبل لواصل هذا أبو عبيدة في الطواف قال فقام إليه واصل فلقبه, وقال أنت أبو عبيدة قال نعم قال: أنت الذي بلغني أنك تقول: إن الله يعذب على القدر, فقال أبو عبيدة: ما هكذا قلت, وأنت واصل بن عطاء قال: نعم قال أنت الذي بلغني عنك أنك تقول أن الله يعصى بالاستكراه قال فنكس واصل رأسه فلم يجب بشيء. ومضى أبو عبيدة وأقبل أصحاب واصل على واصل يلومونه يقولون كنت تتمنى لقاء أبي عبيدة, فسألته فخرج وسألك فلم يجب! فقال واصل: ويحكم بنيت بناء منذ أربعين سنة فهدمه وأن ا قائم, فلم اقعد ولم ابرح مكاني.

ضمام بن السائب

ومنهم ضمام بن السائب رحمة الله كهف اليتامى والأرامل, المفزوع إليه في النوازل, فطال ما أوصى عليه أبو عبيدة في الفتاوى والمعضلات, فانكشفت بأجوبته ظلم المشكلات, وكان ذا رفق وتلطف واجتهاد وتكشف حكى أبو سفيان قال: اشتكى ضمام بن السائب شكاة, فدخل عليه الربيع يعود, فوجد رجلا من المسلمين يسمى " عمران " وهو يقول يا أبا عبدالله أن في نفسي لشيئا أني لأضيق عنه: أن يكون الله أمر العباد بأمر ثم يحول بينهم وبينه! قال, فقال له الربيع يا عمران اخبرني هل توفيق الله وتسديده وإحسانه ومنه وفضله على أبي بكر وعمر كتوفيق الله وتسديده وإحسانه ومنه وفضله على أبي جهل؟ قال: لا, والله قال فقال ضمام اشدد يدك يا ربيع يعني قم بالحجة عليه, قال, ثم قال ضمام: ما هو إلا ما ترى.

تفنن الحجاج في تعذيب المساجين

وقال بغلنا عن ضمام حين سجنه الحجاج هو وأبو عبيدة قال أدخلنا في سجن قال قلم يكن يوصل إلينا, ولا يدخل علينا حديدة ولا جلم قال و إنما كنا نقص شواربنا بأسناننا, وأن كان الرجل منا لينفض لحيته فيتساقط منها القمل, قال وإنما كن يطعمنا خبز الشعير والملح الجرش قال ويعمد على مراكن عظام فيسكب فيها الماء ثم يؤتى بملح فيلقي في تلك المراكن ثم يضرب حتى تخرج رغوته ثم قال: يا أهل السجن خذوا ماءكم, قال فمن أخذ من أوله كان أمثل قليلا وأما من أخذ من أسفله فهو العذاب قال فكان ضمام ربما ضاق فيقول له أبو عبيدة ويلك ما هناك على من تضيق وعلى من تدل؟ قال فلم يخرجوا من سجنه حتى مات الفاسق.

قال وعمد إلى ثلاثة رجال من رؤساء الخوارج فبنى عليهم بيتا من قصب وطللى داخله وخارجه بالعدرة ثم أدخلهم فيه, فقاموا ثلاثة أيام فماتوا, ثم وقع الموت في أهل السجن فبلغ ذلك الحجاج فأرسل إلى طبيب له مجوسي فقال له: ويحك أن أهل السجن وقع فيهم الموت وأناي لأحب تعذيبهم. قال اجعل طعامهم الزيت والكرات قال أبو سفيان قال صمام: لما جاءنا بالزيت والكرات قوينا عليه وسمنا, قال فيقال للمجوسي, يحك ماذا أردت بهذا لو تركتهم فماتوا لكن أروح لهم قال وأي راحة لهم في الموت؟ ولعل هذا أن يموت فيخرجوا, ومن مات فلا مطعم فيه.

وكان رجل من أهل خراسان من المسلمين وكان بمنزلة عظيمة بأبي عبيدة وضمام والمشائخ, وله قدر في أهل بلده, آتاه يوما ضمام فذكر رجلا من المسلمين فتتقصه, فقال ضمام: مه, لا تفعل فعاد فنهره, قال فقال تبرأ الله منه قال بل يتبرأ منك قال, فقال أتبرأ مني يا ضمام؟ قال أنت احلك لي ما ترى, والجائتي إليه, أترى أنك تتبرأ من رجل نتولاه فأتولاك؟ بئس ما ظننت قال, فأني استغفر الله وأتوب إليه, قال غفر الله لك.

حاجب الطائي

ومنهم أبو مودود حاجب الطائي رحمه الله , كان بالاجتهاد موصوفا وبالزهد والورع معروفا , وفي ماله حق للسائل والمحروم , على انه ليس بالأعلى في تحصيل العلوم بيد أنه في الأفاضل معدود , ورسمه في أكثر آثارهم موجود .

حكى أبو سفيان قال , قال المليح: بلغنا ذات ليلة أن في منزل حاجب مجلسا للذكر قال أبو سفيان وكان المشائخ لا يحضرون معهم بالليل الفتيان قال المليح فقلت لرجل من أهل عمان انطلق بنا إلى منزل حاجب فلعلهم يأذنون لنا قال فسرنا حتى جئنا المنزل , فأذن لنا , فوجدنا عنده المختار بن عوف ورجلين أو ثلاثة من المشائخ , قال , فقال لي حاجب: يا مليح اذهب أنت وهذا العماني إلى بلج بن عقبة فأخبراه بمكاننا وقولا له يأتينا . قال , فسرنا إليه فأعلمنا , فجاء قال المليح فصلينا العتمة ثم أخذنا في المذاكرة قال ربما قلم أحدهم قائما فيتكلم ما شاء الله ثم يجلس , فيقوم الآخر كذلك حتى أضاء الصبح قال المليح فما رأيت أحدا بعد تلك الليلة , ولا رأيت قبلها متكلمًا قائما في مجلس , قال وكان شعيب بن عمر من أفاضل الفتيان يومئذ , وكانت أخته تحت حاجب قال فجاء تلك الليلة فأخبر به حاجب , فقال , ردوه . قالوا أه : يا أبا مودود سبحان الله جاء من السماح في هذه الساعة وترده! فقال , ردوه , فردوه . قال وكان بين منزله ومنزل حاجب نحو ثلاثة أميال , قال , وبلغ حاجبا أن في منزل عبد الملك الطويل مجلسا بالليل تكثر فيه الجماعة ويكون لهم كلام يسمعه الجيران , قال فبعث إليهم , وقال: يا عبد الملك , ارفع عن نفسك ما هذا الذي بلغنا أنكم تفعلونه؟ قال إنا لنفعل , فإن أمرتنا بتركه تركناه . قال فانكب طويلا ثم قال والله لان تكونوا تخافون فتعمرون خيرا من , لا تخافوا وتخربون , اعمروا مجالسكم فان الله يحفظكم قال فما بلغنا أنه ظفر بهم في مجلس قط , إلا انهم كانوا ذات مرة في عهد زياد أو ابنه أتاهم الخبر بان الخيل تريدكم , قال فخرجوا مسرعين , وتركوا نعالهم على باب البيت الذي كانوا فيه قال فجاء الشرط فنظروا إلى النعال , فقالوا لعجوز صاحبة البيت : ما هذه النعال؟ قالت مكاتب لنا يسأل الناس فيعطى النعال وغيرها قالوا تالله وذلك كما ذكرته وأن بهذا الموضع ريبة قال فقال بعضهم ويحكم قد ذكرت العجوز ما ذكرت فلا تعرضوها للبلاء , فلعلها أن ت كون صادقة , قال فعافاها الله منهم , قال ولقد بلغني انهم كانوا يأتون المجالس أيام زياد وابنه في هيئة النساء في النقاب , وغير ذلك يتشبهون بالنساء قال وان كان أحدهم ليحمل على ظهره جرة بماء , أو يحمل جملة متاع كأنه يبيع حتى يدخل المجالس لا يدعونها لشيء .

إخوانه يتحملون عند دينه بعد موته

قال أبو سفيان مات حاجب وعليه دين مائتان وخمسون ألفا أو أكثر قال فدخل قرة بن عمر وجماعة من المسلمين ليغسلوه قال فقال لهم قرة: يا قوم , ما تقولون في دين هذا الرجل ؟ قال فابتدر ثلاثة رجال وقرة رابعهم وضمنوا دينه , قال ودخل الفضل بن جندب وكان من خيار المسلمين وكان موسرا , فأخبره , قال فقال لهم الفضل : دينه علي دونكم حتى اعجز عنه ولا يبقى عن حاجب , وأوصى إلى أبي عبيدة عبدالله بن القاسم , والي البناني , وكان الفضل لا يولد له ولد , ولم يدع وارثا وكان مولى للأزد فلم يقبل حبيب بن سabor ولا أبو سنان الوصية , قال ومات أبو عبيدة ورد الوصية إلى أم الصلت , وقال فباعته داره بالبصرة وداره بعمان حتى أوفت ما كان ضمن الفضل من دين حاجب رحمه الله .

وكان للفضل بن جندب على رجل مال فوق ماله عند قاضي البصرة عبيد الله بن الحسن بن أخي أبي الحر , قال فأردنا أن يثبت عنده أن أم الصلت وصي زوجها الفضل ابن جندب فلم يشهد شهودا إلا شهودا يشهدون انه أوصى إليها , وإلى أبي عبيدة , وإلى حبيب بن سabor , وإلى أبي سنان البناني , قال وكان حبيب وأبي سنان لم يقبلا الوصية قال فلما لم يقبلا الوصية خفنا أن

يدخل القاضي من عنده رجلين في الوصية مكان هذين اللذين لم يقبلاها فيفسد علينا الأمر قال فجئنا إلى الربيع بن حبيب فسألناه هل يجوز للشهود أن يسهوا أن الفضل أوصى إلى امرأته أم الصلت ولا يذكرون أبا عبدة ولا صاحبيه؟ قال نعم إنها لوصي زوجها ولا عليهم أن لم يذكروا غيرها إلا أن سئلوا فلا بد لهم حينئذ أن يأتوا بالشهادة كما استشهدوا , وإن لم يسألوا فلا بأس عليهم وإن لم يسموا غيرها قال إما عبدالله بن القاسم فضايق من ذلك وقال لا يجوز أن يشهدوا إلا كما استشهدوا , قال وقال وائل إنما الفقيه الذي يعلم للناس م يتسع الناس فيه مما سئل عنه , وأما من يضيق عليهم فكل من شاء اخذ بالاحتياط.

وحكى أبو سفيان عن وائل, قال: قد قدم حاجب مكة في العام الذي وقع فيه بين أهل حضرموت ما وقع في أمر عبدالله بن سعيد, قال وكانوا قد أنكروا عليه أشياء حتى شدوه في الحديد, وبايعوا رجلا يقال له حسن, قال وخالفهم طائفة يكرهون ما فعل بعبد الله بن سعيد, إلا أن ذلك موافقة من جماعتهم قال فبعث هؤلاء رجلا وبعث هؤلاء رجلا, قال وائل وكنت فيمن خرج يومئذ قال فوافقتنا حاجبا تلك السنة قد قدم , قال, فدخلنا عليه وهو أرمد قال, فقال لقد خرجت من البصرة فما ابصر سهلا ولا جبلا ولا أخرجني بعد ما أرجو من قضاء نسكي إلا أمركم يا أهل حضرموت فأنكم قد غلبتمونا, قال وائل, فقلت رحمك الله يا أبا مودود لا تفعل فأنا لا نخرج عن رأيك, قال فقال لي اسكت فوالله ما أتريدك ولا أصحابك , قال ثم تكلم الفريقان, قال ف قال الذين أنكروا علي عبدالله بن سعيد وبايعوا " حسنا" على الشراء : يا أبا مودود من أحق بالقيام المدفوع أم الشاري؟ قال بل الشاري أحق قال فقام أصحاب ابن سعيد: يا أبو مودود أما إذا شروا فليخرجوا عنا فأنا لا طاقة لنا بالحرب, ولا بما يجرون علينا منها, قال فقال صدقوا أخرجوا عنهم قال فقالوا يوجلوننا شهرا, قال, فقال لهم حاجب لا والله ولا ثلاثة أيام إلا برضاهم, قال أبو سفيان وكان حاجب هو القائم بأمور المسلمين في مثل هذه الأشياء من أمر الدين والفتاوى.

وقال : حسن حاجب ذات سنة فلم يخرج حتى بقى للموسم ثمانية أيام, فأراد الخروج هو وجماعة معه, قال وكانوا على نجائب لهم ووافق خروجهم يوم الجمعة فأتاه أصحابه فقالوا له: أخرج بنا يا أبا مودود, قال في نفسي من الجمعة لشيء قالوا سبحان الله! إنما بقي للموسم ما تعلم قال أخرجوا انتم وأنا ألحقكم, قال فخرج القوم وتخلف حاجب حتى صلى الجمعة ثم ركب فلحقهم على مسيرة ليلتين من البصرة, قال وكان حاجب يقول لعبد الملك الطويل فيما يؤدبه فيه: " يا عبد الملك إذا كان أحد يعيب في أمره وعظوه , وأحضروه مجالسكم, وارفقوا به جهدكم عسى الله أن يتوب عليه, وإذا كان أحد يعيب عليه المسلمون في خلافهم في الدين, وأرادته أن يشعب عليهم ويفتق بينهم فتقا, فأبدوا عورته واهجروه ولا تحضروه مجالسكم واعلموا الناس به ليكونوا منه على حذر أو يتوب"

أبو عبدة عبدالله بن القاسم

ومنهم أبو عبدة عبدالله بن القاسم رحمه الله أحد فضلاء من أقام بالأمصار, وفقهاء تلك الإصصار, والمستعين على أقام الدين من أولئك الأنصار, لا مقصر أن بدا من أحد الاقصار وكان ممن طبع على القصد والاقتصار, قال أبو سفيان: أقام عبدالله بن القاسم بمكة زمنا وليست له امرأة قال فقال له أصحابه يا أبا عبدة لو تزوجت؟ قال ما أريد ذلك, قال فلم يزالوا به حتى فعل قال وكانت امرأة منا لمسلمين موسرة كثيرة المال, فقالوا له تزوجها فإنها تكفيك لا تكفك مؤونة, قال أما إذا بيتم إلا ذلك فابلغوا مهرها مهر جيلها* ولا تتقصوها شيئا قال ففعلوا قال فتزوجها فلما دخلت عليه طابت له نفسها على الداق كله وتركته له, قال وكان يأتي منزل بن جندب ومعه قرصان من خبز وملح, قال وكان الفضل يطيب الطعام ويكثره, قال فيقول سبحان الله يا أبا عبدة تفعل بي مثل هذا قال دعني منك وإلا لم ادخل عليك منزلا, قال فتركه ولم يلح عليه بعد.

قال أبو سفيان وكان أبو عبيدة عبدالله بن القاسم تاجرا خرج إلى الصين ثم رجع فكأن في بعض ما يتجر به اشترى قوم عودا قال فسألهم أن يشتركوه , ففعلوا , قال فاقبلوا يعييون العود عند صاحبه حتى استقصوه عما كانوا قد اشتروا به فظن أبو عبيدة أنهم صادقون فيما قالوا, قال فلما خرجوا من عنده وكان نقدوا الثمن ونقد أبو عبيدة معهم عشرين دينارا, فأقبلوا يمدحون العود, ويقولون ما رأينا مثله, قال فقال لهم أبو عبيدة سبحان الله ! تعييون عود الرجل بلا عيب فيه, ردوا على رأس مالي ولا حاجة لي في مشاركتكم, قال, فاغتموا منه فردوا عليه ماله.

يدعو عليه بكثرة المال لأنه يراه شرا

وقال غضب عبدالله بن القاسم بن سابور في أمر وصية الفضل بن جندب وكان سلفا للفضل, قال فقال أبو عبيدة لأدعون الله عليك, ثم قال اللهم أدخل بيته قناطر الذهب والفضة, قال, فقال يا أبا عبيدة انك إنما دعوت له! قال لا والله, ولكني دعوت عليه وأي شر أشد عليه من أن يدخل بيته قناطر الذهب والفضة

وقال سمعت وائل يقول: لما مات أبو جعفر أخذ الناص في العبيه وأخذ عليهم أبواب المسجد الحرام, قال وكان عبد الله بن القاسم والفضل بن جندب وعلي الحضرمي ووائل في المسجد فلفظ الله بهم فنجوا وخرجوا من المسجد , قال وائل فقلت يا أبا عبيدة لو أخذت ما تراك صانعا؟ قال تذهب والله نفسي دون أن أعطيهم هذه البيعة.

أبو نوح صالح الدهان

ومنهم أبو نوح صالح الدهان رحمه الله شيخ التحقيق وأستاذ أهل الطريق, وناهج طرق الصالحين وناقض دعاوى الزائعين الجانحين, أخذ عنه الحديث والفروع وكان ذا خشية الله وخضوع. أبو سفيان قال دخل أبو نوح على عاتكة بينت أبي صفة وكانت من المسلمات فوجدها في البيت, فقال كاني أري مجلس رجال قالت نعم الآن خرج من عندي "الأحول" تعني جابرا قال وكان جابر يغمز بإحدى عينيه من غير علة, قال فهل ظفرت مه بشيء؟ قال نعم سألته عن ثلاثة أشياء كن في نفسي سألته عن لباس الخفين قال أن كنت تلبسينا من حر الأرض وبردها وخشونتها فلا بأس وأن تلبسينا لا تباليين أن تتكشفي فلا, وسألته عن حلي عندي لليتيمة يقول بمال فيستعار مني قال أن أعرته فانك ضامنة, وعن عبد كان من أنفس مال عندي و أوثقت في نفسي أن أعتقته لوجه الله ثم استخلفته عن ضيعتي قال أخرجيه ولا تدخله في شيء من منافعك, قلت: هذه وان كانت لمناقب جابر صولا فإنما أثبتتها هاهنا لتعلم رص أب ينوح على تحصيل الفوائد منكل من يثق به , لا يأنف عن التقاطها حيث وجدها والبحث عليه ا في مغانيها.

أبو روح ومازن

ومنهم أبو روح ومازن أبني كنانة رحمهما الله كانا مطبوعين على الصلاح, وحب سلوك مسالك النجاح, وخدمة الأشياخ, وملازمتهم في الغدو والرواح, وانهما وأن سبقتهما السوابق فكلاهما من غير فتور, مدرك لاحق.

اجتهادهما في التقوى والعبادة

روى أبو سفيان عن يسار صاحب البكر, قال أبو سفيان وكان من خيار من أدركته انه اخبره عن والدته, قال وهي يومئذ ابنة ثمانين سنة, أنها قالت: " أدركت أخوين من بني راسب يقال لاحدهما بيرح* والآخر مازن ابنا كنانة, وكانا من خيار من مضى من أهل الدعوة وكانا من نظيري أبي بلال وعروة, في زمانهما قال وإما بيرح فكان رجلا عابدا مصليا لا يفتر عن العبادة حتى دبرت ركبته ويداه ورجلاه وجبهته كركبة البعير قال وكان قد اتخذ سربا في الأرض يعبد الله فيه قال

أبو سفيان قال يسار أدركت سربه ذلك, وكنا نلعب فيه قال فحضرت الوفاة ببرح فقعد مازن عند رأسه, قال فرآه يجرد بنفسه ثم أفاق, قال : أي أخي أين تراها تعمد؟ يعني النفس- قال الذي كانت تعبد قال وأما مازن فانه لما حضرته الوفاة أقبل يجرد بنفسه فصاحت بناته, قال فأفاق أفاقاً, وقال يا بناتي لا تبكين فان أباكم من ساعة هو الباكي, أو الضاحك. قال يسار أخبرتني أمي قالت كنت في بعض المجالس وهو يذكرون الله إذ ذلك دخل رجل مقنع بثوبه فهوى, وجلس ناحية من المجلس وهم لا يعرفونه, قال فلما تفرغ المتكلم قام فنزع ثوبه عن رأسه فإذا هو مازن بن كناية, قالت فقام قائماً فقال: أني لا أخبركم إلا بما رأيت عيني, أو سمعت أذني, أو عن خير من رأى وسمع, قالت, ثم اقتص الفتى المتقدمة واحدة بعد أخرى, ونبه على من أنجاه الله منها قالت فما رأيت متكلماً مثله, قلت ويبرح هو المكنى أبو روح فيما زعم لي بعض أصحابنا.

أبو محمد النهدي

ومنهم أبو محمد النهدي رحمه الله, المظاهر المعالين المجاهد غير المداهن الحافظ للتقى, المفرق للانداس المباين بصر الله بصيرته الباصرة فلم تكن عن هذه قاصرة ففاز بالفقة الرابحة, ووقي الصفقة الخاسرة.

حكى أبو سفيان قال كان رجل من المسلمين يقال له أبو محمد قال كان قد ابصر الإسلام من قبل نفسه قال وكان بدأ ذلك انه كان يخرج إلى المغزى فنظر إلى ما يعمل الناس من الغول والجور فقال ما هذا بفعل أولياء الله وأهل الإيمان ثم نظر إلى صلواتهم وقيامهم بالتوحيد والإقرار بالنبوة قال وما هذا بفعل المشركين فانصرف إلى البصرة وكان له مسجد يجلس فيه ويحدث ويقص ويذكر قال وكان يصف الإسلام ويقول: أن أهل الأحداث من القبلة كفار ليسوا بمشركين ولا مؤمنين, قال فبلغ أمره جماعة من المسلمين فقال بعضهم لبعض: " هذا الرجل قد ترونه وما يصف, فهلما بنا إليه لنواصفه هذا الأمر فلعله يقبل", أتته منهم جماعة فواصفوه الأمر, ووصفوا له ما هو عليه, قال, فقال هذا هو الحق ومازلت على هذا منذ دهر ولم أجد أحداً يوافقني عليه وما ظننت إذا أن أحداً يقول بهذا القول, قالوا بلى, والله أن لك أعواناً على هذا وأخواناً. قال فكان أبو محمد من أفاضل المسلمين قال وكان يظهر هذا الشأن ويبرح به, وكان يدعو في مسجد على خالد بن عبدالله, وعلى هاشم بن عبد الملك قال وكان على البصرة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى, قال وكان طريق بلال على مسجد أبي محمد قال فأرسل إليه يأمره بالكف عن ذكرهما فلم يفعل قال فقال له يا أبا محمد إذا رأيتني مقبلاً فكف حتى أمضي عنك فلم يكن يلتفت إلى قوله ولا يدع ما هو عليه.

قال أبو سفيان قال أبو محمد النهدي: لا تذكروا الحسن في شيء من القدر فإنني عاتبته فيه, فقال معاذ الله أن أقول ذلك إنما أفسد علي قلبي واصل بن عطاء أيام كنت عنده مستخفياً فإما أن أقول بالقدر فمعاذ الله, قال وكان أبو محمد يقو هو أبعد الناس من القدر

أبو يزيد الخوارزمي

ومنهم أبو يزيد الخوارزمي رحمه الله أحد النبهاء الحاذقين والموصوفين بالفضل جملة على الإطلاق, والمشا إليه في مشيخة العراق والواقع على أماته الاصفاق, وعلى الرضى براية ودينه الاتفاق, ذكر عن أبي يزيد : انه قيل له ما تقول لو أن رجلاً لقي عالماً يقول له أنا لأمر الذي أنت عليه وأنت فيه حرام, فقال له الرجل فأنا أترك هذا الحرام, ولكن لا آخذ ذلك عنك حتى أسأل من هو أعلم منك, فلم يسأل الرجل حتى مات؟ قال أبو يزيد مات هذا مسلماً, إذا كان في طلب السؤال تائباً فمات على ذلك.

عبدالله طالب الحق وأبو حمزة الشاري

ومنهم طالب الحق عبد الله بن يحيى وأصحابه الشراة كأبي حمزة ومن معه من أولئك الشراة رحمهم الله: أما ابن يحيى فنعم الإمام، الداعي إلى نصرة دعوة الإسلام غير ما كان حدث من الجور حتى عاد به العدل على الكور بعد الحور، فانمحت به ظلم الظلم، فلم يبق حوله إلا داع إلى الإسلام أو السلم كان أسدا في نجدة، وشجاعة في دين الله وخشية لله وطاعة، والبحر جودا وعلما والطود سموا وصيانته وحلما، وأما أبو حمزة فأشد في الحرب، المستعد للطعن والضرب، ليث في الهيجاء أن ركب وغيث في الآراء إذا وهب، وبحر عجاج إذا وعظ واختطب، الحصر يعدوه قصر أو أسهب ذو رفق ولين لأولياء الله المتقين، وذو غلظة على المشاقيين، وجميع إخوانهما على هذه الطرائق متخلفون بمحمود الخلائق ليس من الكل إلا جاهد أو مجاهد مخالف الأرق ساهد قاطع ليله في الهجود، بالركوع والسجود وتلاوة القرآن والضراعة إلى الرحمان والحراسة في سبيل الله وكف أعداء الله منفذ أيام العمر في إحياء العلوم، وانجاد المظلوم ومحو ما ارتسم للباطل من الرسوم، هاجروا في سبيل الله وآثروا أولياء الله، وقاتلوا أولياء الشيطان وشرفوا أنفسهم ابتغاء الرضوان فلم يلتفتوا إلى زهره الحياة الدنيا حتى فارقوا ثوب المحيى فودع كل منهم حميدا وأقل بعيدا*، وسأثبت ما بلغني من أخبارهم على أنها نبذ من بعض آثارهم.

نحن أحوج إلى العمل لا إلى الوصف والقول

روى أبو سفيان أن أبا عبيدة كان في مجلس يذكر فيه فذكر النار وما أعد لأهلها، وخوف بها، ثم ذكر الجنة وما أعد فيها لأهلها ورغب فيها قال وكان ذلك أيام عبد الله بن علي، والمختار بن عوف قال وكان رجل من المسلمين يقال له أبو الوزير قاعدا في المجلس فلما سكنت أبو عبيدة وفرغ من كلامه وثب إليه أبو الوزير فقال: يا أبا عبيدة لو أردنا الجلوس إلى ما كنت فيه لجلسنا إلى من هو أوصف لما كنت فيه منك من قومنا، ألا ترى أمر أصحابك وتحض على نصرتهم والعون لهم؟ فنحن إلى ذلك أحوج من إلى ما كنت فيه يعني عبدالله بن يحيى، وأبا حمزة المختار قال فقال أبو عبيدة يا أبا الوزير إنما يتكلم الرجل بقدر ويسكت إلى أجل.

أخبار ثورة طالب الحق وأصحابه على بني أمانة

وروى عن وائل قال لما قدم عطية بن عبد الملك حضرموت وكان مروان بن محمد قد بعثه إلى أبي حمزة المختار بن عوف حين ظهر على مكة والمدينة قال فلقى بلجاء بوادي القرى فقتله، وكان الفاسق في عسكر فيه ستة آلاف فيما ذكر فتتحي أبو حمزة إلى مكة، فلحقه بها فقاتله حتى استشهد أبو حمزة ومن استشهد معه من المسلمين رحمهم الله.

قال ثم خرج القاسم يريد اليمن فليقيه الإمام عبدالله بن يحيى بموضع يقال له " حرش " وقاتله حتى استشهد رحمه الله ومن استشهد معه.

يتعظ به ميتا فيتوب

قال أبو سفيان وكان بها رجل من بني كلاب يقال له نافع فجاء إلى عطية بن عبد الملك فسأله أن يعطيه جثة عبدالله بن يحيى ليصلبه على بابه، قال، ففعل وكان عطية جسيما قال فخرج نافع من بيته فنظر إلى الجثة فإذا عليها نور ساطع فلما عاين ذلك أنزله وكفنه ودفنه، ثم ذهب من " حرش " حتى وقع على الحجاز بقرية يقال لها " القوع " فسكنها ووافق بها قوما من الصفرية فأجابهم إلى الصفرية قال وكان الشقي يرى أنهم على مثل ما مات عليه ابن يحيى، قال وكان لنافع ابن يقال له محمد وهو الذي يحدثنا بهذا الحديث عن أبيه وكان محمد قد ابصر - ذلك -.

قال أبو سفيان قال وائل فقدم الفاسق عطية بن عبد الملك إلى حضرموت قال وائل فقاتلناه فتحصن في قرية حصينة فاقمنا عليه أربعين ليلة نحاصر، فلما طالبه الحصار وخاف على نفسه سأل الصلح فصالحناه على أن يرد كل ما كان في عسكرة مما أصابه أصحابه من

أموال المسلمين , قال فدخل المسلمون عسكرة فاخذوا كل ما كان لهم, ويأتيه كتاب مروان بن محمد أن دع ما أنت عليه والحق الموسم فصل بالناس, وأمره بالعجل قال وتم الصلح بيننا وبينه قال فخرج منفردا في ستة نفر فبادر الموسم وعسكرة على أثرة فنزل قرية من قرى اليمن, فوافق فيها رجلين أخوين من المسلمين يقال لهما " ابنا جمانة" فشعرا بمكانه وقالوا والله ما جاء هذا الفاسق إلا منهزما, فمشيا إليه ف ينفر معهما, فلم يشعر بهم حتى دخلوا عليه وقتلوه وقتلوا من معه وحزوا رؤوسهم وانطلقوا يريدون عسكر المسلمين , ولا يشكون أن عسكره قد مزق, وقتل أهله فبينما هم سائرون إذ لقوا عسكر عطية والرؤوس معهم, قال فسألهم أهل العسكر عن عطية فقالوا قد تقدم, فسلمهم الله منهم, ولقد كان أحدهم قاعدا في الجو أليق الذي كان فيه رأس عطية ورؤوس أصحابه.

أبو مدود حاجب يتجند لجمع الأموال مددا للثورة
وقال أبو سفيان لما خرج الإمام عبد الله بن يحيى ووجه أبا حمزة المختار بن عوف أقام حاجب فجمع له أموالا كثيرة ليعينه بها قال فكتب على كل موسر من المسلمين قدر ما يرى قال فما امتنع عليه أحد قال ودعا أبا طاهر وكان شيخا فاضلا قال عليك بالنساء. وأوسط فأنا نكره أن نكتب عليهم ما لا يحملون قال فانطلق أبو طاهر فيمن انطلق معه من المسلمين قال فلم يأتوا يومئذ امرأة ولا رجلا إلا وجدوه مسرعا فيما سألوهم, قال وكان رجل من المسلمين لم يكن أحد يرى أنه صاحب مال فدفع إليهم ثلاثة آلاف درهم, قال فقال له أبو طاهر أي أخي العيال فقال الله لهم والله ما رأيت منذ كنت وجهها مثل هذا انفق فيه فإذا وجدته أفأدعه؟ ولا يرجع إلي منها شيء ولكن يا عبد الله لا تخبروا بأسمى ما بقيت, قالوا ففعلوا فلم تمس الليلة إلا وجمع أبو طاهر عشرة آلاف درهم قال فأتوا حاجبا فاخبروه فسر بذلك وقال أن في الناص لبقية بعد قال فاشتري بتلك الأموال سلاحا ووجهه ووجه ما بقي إلى أبي حمزة رحمه الله.

لا تكون للرجل منهم مكانة أن لم يرغب في الشراء
وقال سمعت عبد الملك الطويل يحدث عن أبي حمزة المختار بن عوق الكندي قال أدركت المسلمين أن كان الرجل منهم ما يستزاء في صلاة ولا في صيام ولا في حج ولا في عمرة ولا في وجه من الوجوه, أن عرف منه أنه ليس بشديد الحرص في الشراء سقط من أعينهم ونقصت منزلته عندهم.

وقوع أبي الحر في الأسر

وقال أبو سفيان أدركت عيسى بن عمر وهو شيخ كبير يحدثنا أن مروان بن محمد بعث إلى أبي الحر إذ كان بمكة فأخذ فشد في الحديد , واخذ رجل من الرافضية يقال له اصفر فشده في الحديد ثم ساروا بهما نحو موان قال عيسى فخرجنا في أربعة عشر رجلا من المسلمين نتبعه قال فلما مشينا أيما أرسلنا إليه أنا نأتيكم الليلة قال فقال لا تفعلوا, مكة منكم قريبة والطلب سريع فسرنا على طريق الساحل وغلماه يأتينا بخبره ويأتيه بخبرنا, فمازلنا نطلب إليه ونسأله يدعنا حتى نخلصه من أيديهم, قال فكان يأبى ذلك علينا حتى جاوزنا المدينة بمراحل, فأرسلنا إليه أنا قد قربنا من الشام وقراها فدعنا نأتيهم الليلة قال فأبى قال فأرسلنا إليه أنا نأتيكم على كل حال, فتباطأ في وضوئك حتى لا تعجل الرحيل لنقعد مقاعدنا, قال ففعل فتقدمنا فنزلنا عن رواحنا وعقلناها بعيدا من الطريق, ثم جئنا إمامه إلى الطريق والسيوف في أيدينا مصلتة , فألقوا بأيديهم وقالوا الأمان, الأمان, قال فبادر رجل منا فأعطاهم الأمان فشق ذلك على أبي الحر, قال أما إذا فعلتم فلا تختالجوا ولا تهيبوا منهم أحدا, قال فأسرناهم فأخرجنا بهم الطريق حتى أبعدناهم, خلينا

سبيلهم واحتملنا صاحبنا وفككنا عنه جامعته, وفككنا عن الرافضى ثم اقبلنا حتى دخلنا مكة ونحن مستخفون قال وكان ذلك في أيام الحج , قال فخرجنا مع أبي الحر إلى منى, ولم نحرم ثم صرنا إلى عرفة ونحن غير محرمين, قال وكنا إذ ذاك ننتظر أبا حمزة يقدم علينا, قال ولما كان في وقت الرواح إلى الموقف إذا نحن بنواصي خيل أبي حمزة وقد اطلعت, قال فلما رآه أبو الحر أمرنا أن نغتسل ونحرم, قال ففعلنا , ثم خرجنا حتى دخلنا عليهم في عسكرهم, قال وكان على الموسم إذ ذاك رجل من بني مخزوم يقال له عبد الواحد, قال فأرسل الخطاب إلى أبي حمزة من قريش وغيرهم ومنهم عبدالله بن الحسن, قال فأتونا في جماعة قال فخرج إليهم أبو حمزة وعمامته خضراء وازار متأزر به منتكب قوسه ومتقلد سيفه قال فتكلم أولئك الخطباء فعظموا من أبي حمزة الحج ويوم عرفة ما قدروا عليه أطنبوا في الكلام قال فلما فرغوا من كلامهم, تكلم أبو حمزة , فحمد الله و أتى عليه وصلى على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم, ثم قال: أما ما ذكرت من تعظيم هذا اليوم فأنكم لم تبلغوا كنه ذلك ثم ذكر جو بني مروان وما هم عليه من الظلم والفسق والاعتداء قال فافحم القوم, وسمعوا كلاما لا يعرفونه, قال فرجعوا إلى عبد الواحد فاعلموه بقوله وقالوا خصمنا الرجل, وما قدرنا على إجابته وليس عندنا ما نجيبه به, قال فارجعوا إليه واسألوا المواعدة في هذه الأيام على أن لا نعرض له ولا يعرض لنا, قال فرجعوا ألينا فأعطيناهم ذلك, قال ووقفنا مع الناص حتى أمضينا إلى جمع ثم إلى منى فنزلنا مؤخر منى في عسكرنا, قال وكانت حليلة المهلبية إذ ذاك قد حضرت الموسم, وكانت من خيار المسلمات وفضلاهن وهي أم سعيدة, فعالجت لهم طعاما فبعثت به مع أبي وافد وابنه وكانا فاضلين, قال وأخذهم الحرس, ف قالوا معكم السلاح, ففتشوهما فلم يجدوا معهما سلاحا, قال أبو حمزة أرسل إلى الوالي فقال له, قد كان نقض من قبلك فان شئت ناقضناك وأن شئت نوف بعهدك, قال فأرسلهما وتم العهد حتى فرغ الناس من مناسكهم, وساروا إلى مكة قال فخرج عبد الواحد ودخل مكة, قال أبو سفيان وكان بلج بن عقبة يأتي لرمي الجمار في الخيل والسلاح, قال وكان أبو حمزة يقول رحمك الله وما يدعوك إلى هذا لو جئت متكررا حتى ترمي, قال فكان يقول لا , لا افعل ولا آمن غدرهم بنا ونقضهم علينا, فإن فعلوا كنا قد استعدنا لهم.

يتجه أبو حمزة ومن معه إلى الشام فيعترضهم إلى المدينة

قال فأقام أبو حمزة بذي طوى قال وكان يدخل فيجمع ثم يرجع إلى ذي طوى, قال فاجتمع إليه من نواحي مكة رجال من خزاعة مسلحون في نحو أربعمئة رجل, قال وخرجوا معهم إلى المدينة وكان الذين قدموا من اليمن نحو ستمئة رجل, قال ثم خرج نحو المدينة يريد الشام ولم يكن يريد أن بعض لأهل المدينة قال فخرجوا إليه فقاتلوه بقديد, قال فمما يراجعهم فيه من الكلام أ، يقول أنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابة فالي من تدعوننا انتم, قال فيقولون ندعوكم إلى طاعة مزوان فيقول يا سبحان الله؟ ندعوكم إلى طاعة الله وتدعوننا إلى طاعة الفاسق مروان, قال فاقتتلوا فقتل منهم أربعة آلاف قال وأصيب مع أبي حمزة يوم مكة أبو عمر وابنه وكانا من أفاضل المسلمين, قلت وقد وقفت في سيرة عبدالله بن يحيى على الخطبتين اللتين خطبهما بمكة والمدينة متناولتين بابل ما يأتي به خطيب ثم وقف عليهما أوجز من ذلك قليلا فيما صححته عن بعض خطب من أهل الخلاف, فأثرت أن أثبتها هنا على نحو ما صححته عنهم لأن شهادة خصمك لك أصح من شهادة أخيك لك.

خطبة أبي حمزة بمكة

روى رواتهم قال خطب أبو حمزة الشاري بمكة حرسها الله فصعد المنبر متكبيا قوما عربية, فخطب خطبة طويلة. فقال:

يا أهل مكة تعيرونني بأصحابي وتزعمون انهم شباب, وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شباب؟ نعم, شباب مكتهلون عمية عن الشر أعينهم ناكبة عن الباطل أرجلهم انضاء* عبادة, واطلاح سهر من نظر الله إليهم في جوف الليل مثنية أصلابهم بمثاني القرآن, إذا مر أحدهم بأية فيها ذكر الجنة بكى تشوقا إليها, وإذا مر بأية فيه ذكر النار شهق شهقة, كان زفير جهنم في أذنه وصلوا كلال ليلهم بكمال نهارهم, انضاء عبادة, قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم مصفرة ألوانهم, ناحلة أجسامهم من طول القيام, وكثرة صيامهم, يستقلون ذلك في جنب الله, موفون بعهده, منجزون لوعده, إذا رأوا سهام العدو قد فوقت,* ورماحهم قد أسرعت ويوفهم قد اصلت وأبرقت الكتبية وأرعدت بصواعق الموات, استهانوا بوعيد الكتبية لوعده الله, فمضى الشاب منهم قدما حتى تخلف رجلاه عن عنق فرسه, وقد رمت* محاسن وجهه الدماء وعفر جبينه التراب, أسرعت إليه سباع الأرض و انخطف إليه سباع الطير, فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها من خشية الله! وكم من كف بانة من معصمها, طالما اعتمد عليها صاحبها في ركوعه وسجوده! وكم من خد عتيق رقيق قد فلق بعمد الحديد! رحمه الله على تلك الأبدان وأدخلهم بفضلهم في الجنان – ثم قال – الناس منا ونحن منهم, إلا عابد وثن وكفرة الكتاب, وإما جائر. قلت وقد حذف راويها منها كثيرا مما خاطب به أهل مكة من أنواع التقرير بما أقام عليهم الحجة وقطع العذر فأثبتت ما أثبتته بحسبه.

خطبة أبي حمزة بالمدينة

روي عن مالك بن انس قال خطبنا أبو حمزة بالمدينة خطبة شككت المبصر وردت المرتاب, وهذه الفاظ فيها جفاء, وكان ينبغي أن اسقطها, لكنني حكيتها على ما هي عليه, للسبب الذي قدمته قال فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم, ثم قال : أوصيكم بتقوى الله وطاعته والعمل بكتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم, وصلة الرحم وتعظيم ما صغرت الجبابرة من حق الله عز وجل, وتصغير ما عظمت من الباطل وإماتة ما أحيوا من الجور, وإحياء ما أماتوا من الحقوق, وأن يطاع الله, ويعصى العباد في طاعته, والطاعة لله عز وجل ولأهل طاعة, ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق, ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والقسم بالسوية, والعدل في الرعية, ووضع الأخماس مواضعها التي أمر الله بها.

إنما خرجنا بغية إقامة الحق

إنا والله ما خرجنا أشرا ولا بطرا, ولا لهوا ولا لعبا, ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيها, ولا لثأر قد نيل ولكن لما رأينا الأرض قد أظلمت, ومعالم الجور قد ظهرت, وكثر الادعاء في الدين, وعمل بالهوى, وعطلت الاحكام وقتل القائم بالقسط, وعنف القائم بالحق, سمعنا مناديا ينادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم, فأجبنا الداعي إلى الله "ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ولي له من دونه أوليا أولئك في ضلال مبين" فأقبلنا من قبائل شتى قليلين مستضعفين, فأوانا الله وأيدنا بالنصرة فأصبحنا بنعمة الله إخوانا وعلى الدين أعوانا.

يا أهل المدينة أولكم خير أول وأخركم شر آخر, إنكم أطعتم فقهاءكم فأحالوكم على كتاب الله عز وجل غير ذي عوج بتأويل الجاهلين, وانتحال المبطلين فأصبحتم عن الحق ناكثين, أموات غير أحياء وما يشعرون.

يا أهل المدينة, يا أبناء المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان, ما أصلح أصلكم وأفسد فرعكم! كان آبائكم أهل اليقين, وأهل المعرفة بالدين, والبصائر بالدين, والبصائر النافذة, والقلوب الواعية, وانتم أهل الضلالة والجهالة, استعبدتكم الدنيا فأذلّتكم, وغرتكم الأمانى فأضلتكم فتح الله لكم بابا في الدين فسددتموه وأغلق عليكم باب الدنيا ففتحتتموه, سراعا إلى الفتنة, بطاء عن

السنة عمي عن البرهان, صم عن القرآن , عبيد الطمع, حلفاء الجزع, نعم ما أورثتكم آبؤكم لو حفظتموه وبئس ما تورثون أبناءكم أن تمسكوا به, وأخذوه نصر الله آباءكم على الحق, وخذلكم على الباطل, كان عدد فأرداكم, واللهو فالهاكم, ومواعظ القرآن تزجركم فلا تزجروا, وتعبركم فلا تعتبرون.

انحراف الولاية وسوء أعمالهم دعانا إلى الخروج
سألناكم عن ولايتكم هؤلاء فقلتم فهم الذين تعلمونه ونعلمه, اخذوا المال من حله فوضعوه في غير حقه, فجاروا في الحكم فحكموا بغير ما انزل الله عز وجلوا ستأصروا بالفئ فجعلوه دولة بين الاغنياء منهم وجعلوا مقاسمنا حقوقنا في مهور النساء , وفروج الإماء, وقلنا لكم تعالوا إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم , وجاروا في الحكم وحكموا بغير ما انزل الله فقلتم لا نقوى عل ذلك وددنا أنا أصبنا من يكتفينا , فقلنا: والله نحن نكفيكم ثم والله لئن ظفرنا لنعطين كل ذي حق حقه فجئنا, واتقينا الرماح بصدورنا , ولسيوف بوجوهنا, فعرضتم لنا دونهم فقاتلتمونا فأبعدكم الله عز وجل, فوالله لو قلتم لا نعرف الذي تقولون, ولا نعلمه لكن أعذر لكم, عل أنه لا عذر في الجهل, ولكن إبي الله أن ينطق بالحق على ألسنتكم , ويأخذكم به في الآخرة, ثم قال: الناس منا ونحن منهم إلا ثلاثة حاكم بغير ما انزل الله , ومتبع له وراض بعمله. ثم نزل.
فالله بتولي السرائر من عباده, ويجازي عليها فهذا كلام لا مطعن فيه لطاعن, والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. إلى هاهنا انتهى ما رواه".

أبو الحر وطريقته الحكيمة في استصلاح الأحداث
وحكى عن عيسى بن علقمة المصري قال كان أبو الحر بمكة وكان له قلة تأتيه من البصرة وكان موسرا, قال فكان يأمرهم أن يجعلوا تلك الغلة نقرة واحدة ذهباً, قال فأوتى بها فقسمها نصين ففرق نصفها في فقراء المسلمين وربعها في نفسه وربعا يحبسه لنوائبه, ولمن يمر به من إخوانه المسلمين, وفي معونتهم, قال فكان شاب قد لازم أبا الحر حتى كان هو صاحب أمره والذي يلي حوائجه, قال فأوتى بغلة تلك السنة, كما يؤتى بها فقسمها نفين فأعطى الفقراء نصف وبقي النصف عند أياما, ثم انه احتاج إلى ثمنه فدعا الشاب فقال يا فلان اذهب بهذه القطعة فبعها قال فخرج الفتى بها فلما خلا به الشيطان, قال لو قلت لأبي الحر أنها ضاعت ما سألني عنها, قال فأبطأ عنه ثم آتاه فقال: ما حسبك؟ قال إلا أن القطعة نشت وذهبت قال أبو الحر: ففي الله الخلف, قال, ولم يسأله عن شئ ولم يعاتبه, قال فخرج أبو الحر يوما إلى السوق فمر بالصائغ فإذا القطعة بين يديه موضوعة فاستأذن الصائغ في النظر إليها, قال فنظر فعرفها, ثم وضعها ثم قال من أين هذه القطعة؟ قال ناس من بني مخزوم دفعوها إلي لأصوغ منها مرة أخرى فقال له الصائغ: يا أبا الحر أني سألت القوم عن القطعة فاخبروني أن فلانا- يعني الشاب الذي يخدم أبا الحر- هو الذي باعها لهم, قال فبعث أبو الحر للمخزبيين فسألهم, فأخبروه أن الفتى باعها لهم, قال فانصرف أبو الحر وكان له مجلس يجلس فيه للذكر يوم الاثنين ويوم الخميس, قال: فدعا الشيخ الشاب فقال له: يا فلان اذهب إلى فلان وفلان عدة من مشائخ المسلمين فأمرهم أن يحضروا في مجلسنا قال: ففعل, فلما توافي القوم, قال لهم أبو الحر لا يكون أكثر كلامكم, إلا في تعظيم الأمانة لما عظيمها الله فان صاحبا انتهى الكلام إلى أبي الحر, فعظم من ذلك ما شاء الله قال والفتى جالس قد غمره العرق, ودخل من ذلك ما شاء الله, قال ثم خرج القوم ولم يبق في البيت إلا أبو الحر والفتى فوثب إليه الفتى, فقال يا أبا الحر أني بالله ثم بك, قد والله هلكت أنا أخذت القطعة قال ف قال أبو الحر الله أكبر, هذا الذي أردت هي لله ولك ولا حاجة لي فيها, قال فاستغفر الله الفتى, وأقام مع أبي الحر على احسن ما كان وحسنت حاله حتى مات.

قال وأخبرني علي بن علقمة إن شاباً كان يأتي أبا الحر ويلزم مجلسه , ثم فقده فأتى إلى والدته , فسألها عنه فقالت يا أبا الحر قد والله أخذ في السفه والبطالة وما يأتينا إلا ن الليل إلى الليل, ونصف النهار وقد والله ذهب ما في يده ولم يستتر بشيء قال فقال لها أبو الحر إذا أنا جئت وهو هنا فأذني لي ولا تحبسنني على الباب قال فلما كان نصف النهار أتى أبو الحر ومعه ستة أثواب وثلاثمائة درهم حتى وقف على الباب فاستأذن فأذنت فه العجوز فدخل فإذا بالفتى في ناحية من البيت في خلق له, قال وأقبل عليه أبو الحر, ثم قال فه: ما أرى منعك عن أن تأتينا إلا العري ونحن أسأنا في أمرك, فاعلم منعك أنا لا نعود إلى مثله, فخذ هذه الأثواب فاكتس منها بثوبين ولو الدتاك ثوبين, وهذا الدراهم فأنفقها على نفسك ثم خرج أو الحر قال فرجع الفتى إلى أحسن ما كان وحسنت حاله, فلم يزل مع أبي الحر حتى قتل معه يوم مكة.

وعن أبي سفيان أن أبا الحر أهدى له من البصرة بساطاً قال فوجد فيه تصاوير قال فباعه قال فقال له وائل هذا مما يوطأ أو يتمهد فلا بأس به, فلم يعتبر كلامه حتى باعه, ومن أحسن الأجوبة ما أجاب به أبو الحر فيما ذكر أبو سفيان قال كان لأبي الحر بمكة مجلس, قال فقال له بعض أصحاب يا أبا الحر إنا لنخاف أن يظهر علينا, قال: ويحك إما سمعت الله يقول: " إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون " والله يحفظكم.

وذكر أبو سفيان إن أبا الحر كان في المسجد جالساً في حلقة فقدم أخوه الحسن من العراق قال فاقبل, يريده حتى جاء إلى الحلقة ظن أنه يقوم إليه, فلم يبق إليه وأخذ أخاه بيده, وهو جالس, قال ولم يكن يراه منذ زمان قال فبينما هم كذلك إذ طلع إليه رجل من أهل عمان فلما نظر إليه أبو الحر قام قائماً وخرج من الحلقة فتلقيه, فاعتقه وقبل صفحتي عنقه, ورجب به قال فسقط في يد أخيه فقال له مودة هذا على غير مودتك لأن مودة هذا على الدين وأنت على النسب.

الطبقة الرابعة 150 – 200

الربيع بن حبيب

منهم الربيع بن حبيب رحمه الله طود المذهب الأشم, وعلم العلوم الذي إليه الملجأ في معظمات الخطب الأصم, ومن تشد إليه حبال الرواحل وتزم صحب أبا عبيدة فاغترف من بحره الزاخر, ولزم مجلسه فكان الأول والآخر روى عنه " المسند " المشهور المتعارف البركة على مر الدهور وله في الفروع كل قول ومذهب أجوبته من المتعمدة في , باين من خالف من محاضريه أهل العدل والصواب ووقف في الإمامة والولاية والبراءة عند موافقة السنة والكتاب والصواب عندنا في كل ذلك جوابه, فان سمعت بأصحابه فنحن – والحمد لله – أصحابه.

يتخرج من معونة تقدم إليه بشرط

قال أبو سفيان أجمع وائل بن أيوب, والمعتز بن عمار, وجماعة إلى الربيع فسألوه أن يخرج إلى الموسم قال فقال لا أقدر وما عندي ما تحمل به فمشوا إلى رجل من المسلمين يقال له النظر بن ميمون, وكان رجلاً موسراً من تجار الصين, اعملوه بقوله, قال فأتاه بأربعين ديناراً فقال حج بها فلم يقبلها منه, وكان به خاصاً قال فجاءه وائل والمعتز فقالا له: سبحان الله يا أبا عمر تعلم حاجة الناس إليك, وكنت اعتلت بأنك لا تجد ما تحمل عليه فلما جاءك الله بما تتمتع به أبييت أن تقبل قال: انه قال فأتوا إلى النظر فاعلموه بما كره من قوله فاعتذر, فقال والله ما عملت انه يكره ذلك, والآن فخذوها انتم فادفعوها إليه, قال فأبى أن يقبلها بعد ذلك.

قال أبو سفيان كان أبو عبيدة عبدالله بن القاسم ربما سئل عن مسألة فيقول: عليكم بوائل فانه اقرب عهداً بالربيع.

قال أبو سفيان أخذ أبو جعفر رجلا من المسلمين من أهل الموصل فاستحلفه بالطلاق أن ماله علم برجل أنهم أنه عنده ولا له عنده مال، قال فحلف الرجل ماله عنده قليل ولا كثير فخلى سبيله قال فرجع الرجل إلى منزله، فوجد نعلًا للرجل فكتب مسألة إلى الربيع فقال لا أجيبه فيها حتى يأتي الرجل بنفسه، قال فقدم عليه فأمر الربيع أن يجمع أصحابه قال فجمعهم فحضر شعيب بن المعروف، وأبن عبد العزيز وجماعة ممن من حضره يومئذ، قال فقص الرجل يمينه، قال فقالوا له الملوك لا يستحلفون على النعال ولا على ما يشبهها، إنما حاجاتهم الأموال العين، قال فأجمعوا على أنه لا شيء عليه، قال والربيع ساكت لا يتكلم، قال، فقال يا أبا عمرو إنما الملوك لا يستحلفون على النعال، قال صدقت ولكن صاحبنا حلف ماله عنده قليل ولا كثير، وهل تخلوا النعال من أن تكون من القليل أو تكون من الكثير؟ وفي هذه القضية وجوه منها أنه استحضر محاضريه المذكورين وشاورهم في الفتى وذلك لوجهين أحدهما لعله أن يكون ذلك قبل أن يبرا منهما، فأراد الأشمات بهما، أو أنه استحضرهما مبعد أن وقعا فيما وقعا فيه فأراد استعجازهما وعندي أن الربيع رحمة الله شدد في جوابه، لأن في الجواب الذي أصاب صاحبه مخرجا من ذلك الضيق فإن يمينه انعقدت على علمه، ولا علم له بالنعل، وأيضا فإن لفظه عندي ما يلزمه منها إلا ما لزمه من ذلك فإن فيها تخصيصا لا يقتضيه قصر الحلف لكن لعل أخذه بالاحوط أسلم.

وقال أبو سفيان اجتمعت يوما أنا وحيان بن حاجب عند الربيع بن حبيب فقلت يا حيان أخبرني ما الذي فرض الله على محمد والمسلمين يوم الخميس أن يصلي للظفر؟ قال أربعا، قال، فقلت له وما فرض الله عليه يوم الجمعة أن يصلي؟ قال فر الله عليه أن يقيم العدل ويصلي في وقته ركعتين، قال قلت له ولم؟ أو لم يفرض عليه في يوم الخميس أن يقيم العدل ويصلي أربعا؟ قال قلم يجبني بشيء قال ف قال لي الربيع أشدد يدك يا محبوب.

مات ولم يوص فآخرج عنه وصية لأنه يدين بها

قال أبو سفيان ما جدي من الرضاة وكان يسمى المليح، وكان من المسلمين فأتانا الربيع وكان المليح لم يوص فأرسلني إلى بنات له، فقال أقرأهن السلام وعزهن عني في أربيعهن وقل لهن: أن المليح كان عندنا ممن يدين بالوصية، ويراهن حقا عليه واجبا، وأنه قد مات وعليه الأمر ولم يوص، وأنا أرى لكن أن تخرجن عنه ألف دينار في قراباته ووكرا من بر في كفارات أيمانته، قال أبو سفيان وكنا نرى تركته تبلغ ثلاثين ألف،

قال أبو سفيان قال أبو الربيع جاءتني امرأة في مسألة لم اسمعها من أحد فقالت، ما تقول في مسجد عليه سلم هل للحائض أن ترقى على السلم الذي على المسجد؟ قال فقال الربيع لا يسمح بذلك، ذلك، قال وكان الربيع يقول ليس لها أن تصل المسجد بيدها، ولا شيء من جسدها وأن أرادت أن تأخذ منه ثوبا فلتأخذه منه ثوبا فلتأخذه بعود، وبما شأنت غير جسدها.

أبو عبيدة يقول: في الربيع كفاية عن سواه

وقال لما أصاب أبا عبيدة الفالج وحضر خروج الناس إلى الموسم ومضى حاجب إلى أبي عبيدة وعبد الله بن عبد العزيز لبيعته مع الربيع إلى الموسم، قال فأبى أبو عبيدة وقال لا أفعل فقل له: فالمثني بن المعرق، قال نعم فبعث إلى المثني في ذلك قال ما كنت لأفعل، أخرج مع الربيع، والربيع حاله في فضله وسنه ومعرفته على ما تعلمون، فما أشير عليكم أن تبعثوا غلاما حدثا مثلي مع الربيع، فيقال: لم نجد من نبعث إلى الموسم إلا هذا الغلام وفي الربيع كفاية عن سواه قال فبلغ قوله أبا عبيدة فازداد في نفسه له محبة، وازداد عندهم بذلك رضى قال أبو عبيدة صدق المثني، قال، فتوجه الربيع للناس لم يكن صاحب فقه، قال أبو سفيان وسمعت أبا طاهر ذكر الربيع عند أبي عبيدة فقال فقيها وإمامنا وتقينا قال وكان الربيع إذا سئل عن مسألة فقل، يا أبا عمرو ممن سمعت هذه المسألة؟ فيقول: إنما حفظت الفقه عن ثلاثة، عن أبي عبيدة، وأبي نوح

وضمام، هذا قول أحدهم. لم يكن يكاد يخفى عليه قول واحد منهم إلا أنه ربما اشتبه عليه قول من المسألة، قال وقل ذلك.

إنما أريد أن أسلك عما يحتاج إليه الناس

وقال قدم أبرهة بن عطية من الجزيرة إلى البصرة، فنزل في جدار الربيع ((بالحرسه)) فدخل عليه وسلم، فقال يا أبا عمرو رجل من إخوانك. فقال من أي بلاد أنت؟ قال من أهل الشام، فلم يفتش الربيع، قال وكان يختلف إليه ويسأله عن الفقه ولا يحرك شيئاً من أمر القدر، فلبث بذلك أياماً حتى دخل على الربيع بعض المسافرين، وقال له الربيع: سلم على أخينا هذا فسلم عليه، ثم قال ممن أنت يا فتى؟ قال من أهل الشام قال ما بالشام أحدٌ من أهل هذه الدعوة، فمن أي الشام أنت؟ قال من أهل الجزيرة، قال لعلك ابن عطية، قال نعم، قال يا أبا عمرو هذا ابن عطية الذي أهلك أهل نجران هو وأبوه من قبله * فلا يدخلن عليك ولا تتعمه علينا قال فقال له الربيع أسرع علي الرجل فال فقال ابن عطية يا أبا عمرو ما سألتك قط عن أمر تتكره إنما أريد أن أسألك عما يحتاج إليه الناس من الفقه من الحلال والحرام، قال فخرج الرجل واتى " وائل " والمعتزم، وعبد الملك وجماعة من أصحابنا فأعلمهم بحال الرجل، قال فمشوا إلى الربيع مغتضبين فدخلوا عليه فقالوا أنزلت ابن عطية وقربته، قال فقال لهم لا يجمل بمثلي أن أرد من يأتيني مع أن الرجل لم يسألني عن شيء أكرهه ولم أكن علمت به قالوا فلا يدخل عليك ولا تفتحه في مسألة واحدة، قال فلما غلبوا عليه حمل نفسه على نفسه على رده، قال أبو سفيان فاتاه أبرهة كما كان يأتيه فلم يأذن له، قال، فبكى وقال، كنت أظن أن الربيع في فضله وورعه وحاله يرد مثلي، وإنما أسأله عما ينتفع به الناس من أمر دينهم، قال فارتحل من " الحرسه " إلى داخل البصرة.

وائل بن أيوب الحضرمي

ومنهم وائل بن أيوب الحضرمي رحمه الله. صنو الربيع وتلوه، ومن له في حلبة الفضائل مثواه، فانهما رضيعا لبن التفقه في العلوم وفيما - هو - خير ميراث، فما منهما إلا مله فيه مقام معلوم وأن كان لأبى عمرو فضل وزيادة وشهره في الافاده والاستفادة، فان لوائل أنواعا من حميد الصفات، أحى الله بها على يده أعظم الدين الرفات من طيب شيم، وخلق كريم، واهتبال بالتعلم والتعليم، فكم من ضال هداه الله له إلى صراط مستقيم وسافل أعاده إلى أحسن تقويم، فبركته شاملة في حياته، وبعد الموت، وآثاره المتفقات بالعراق، والمغرب، وعمان، وحضر موت فله الحظ الأوفر في طريقة المتفقهين، وله في مسالك الصلحاء رتبة وقوانين قد تقدم ما رويناه عن وائل من قوله: إنما الفقيه الذي يعلم الناس ما يسمع الناس فيه مما سأله عنه، وأما من يضيق عليهم فكل من شاء أخذ الاحتياط قال أبو سفيان كان عبد الله بن القاسم ربما سئل عن مسألة فيقول عليكم بوائل فانه أقرب عهدا بالربيع رحمه الله.

محبوب بن الرحيل

ومنهم محبوب بن الرحيل العبدى رحمه الله، أحد الأخيار الأنجال، وممن سبق إلى تخليد سير السلف الأخيار *، واللف مما يحصل عنده عنهم من الآثار وجمع ذلك في سلك واحد بين غرائب الفقه، وعجائب الأخيار، وذكر مناقب المجتهدين من مجاهدين في سبيل الله وأنصاره، ونبه على مثالب من مثالب من بدا منه اقصار عذره واستحق قبول الاعتذار هذا وهو ممن صحت عليه الفتاوى وانتفع به مصاحبه من مرحل وثاوى، وجملته الأمر، مناقب غبي سفيان مغنية شهرتها عن المشاهرة فقد فأمت مقام العيان، وانه لو لم يؤثر عنه إلا عهده الذي جمع فيه المواعظ

والحكم والآداب وجعل فيه تنبيهها وذكرى لأولى العقول والألباب, ولكن بذلك ما تؤدى النفس من لمراقى والمناط وكان كافيا في معناه, عما عداه* فكتب به إلى عبد الله بن يحيى وعالج به القلوب الميته فأحى ونصه:

عهد محبوب بن الرحيل إلى طالب الحق

ليست الطاعة في مستوى واحد من الأجر والمكانة

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما, أما بعد: فان الله تبارك وتعالى جعل من طاعته طاعة, من عمل بها كانت له درجة ونافلة وزيادة خير, ومن لم يعمل بها لم يزل عن إسلامه ولا يضره شئ ولم يكفر بها, وعليه حقوق يسئل بلاغها وجعل مما نهى عنه زواج من انتهك حرمتها لم يقبل الله له صنيعا حتى ينتقل عنها. ومن زواجها من أصاب منها شيئا لم يحبط علمه ولم يكن كافرا ولم يحق عليه ما حق على راكب الكبائر الموبقات, المهلكات ما لم يتخذها ديناً, فيذكرها فيصر عليها ولا يتوب منها وجعل وظيفة طاعته إيماناً بالله واليوم الآخر والملائكة إلى آخر الآية* وصيام رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً, والوفاء بالعهود فهذه عرى الإسلام, ووظائف الدين واصل الإيمان فمن رغب عنه نفسه ويتبع غيره يكن من الخاسرين, فهذه العزائم من الطاعة, وجعل من طاعته الحج بعد الفريضة, والعمرة والصدقة والصيام بعد رمضان وقيام الليل والإنصات عند قراءة القرآن فمن بلغه الله هذه كانت له الفضيلة ومن لم يستطعها كان مسلماً, ما استمسك بوظائف ما كان يعرف قبل ذلك من الحق وهذا التطوع من طاعته وجعل مما نهى عنه أن لا تشركوا به شيئاً, ولا تعبدوا إلا إياه, ولا تقتلوا تقتلوا أبائكم من النساء, والزنا, وقذف المحصنات, وأكل مال اليتيم, فهذا كله موجب موبق بمن انتهك منه شيئاً حتى يتوب إلا الله متاباً, وكل معصية أصابها, مما نهى الله عنه وأوجب الله فيها عذاباً في الآخرة ونكالا في الدنيا فإنه يصير بها كافراً, لا يقبل الله منه عملاً حتى يتوب إلى الله متاباً. ومما نهى عنه أن الله تبارك تعالى قال ((يأبها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي)) الآية, وقال: ((ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها)), ((ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض)). ((ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله)), فهذا عيب ودنس من أصاب منه شيئاً لم يبلغ الكفر ولم يزل عن إسلامه, ولم تخلع ولايته, ما اجتنب الكبار من المعاصي. وقال ((إن تتجنبوا كبائر ما تنهون عنه تكفروا عنكم سيئاتكم)), وقال: ((أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم)). وقال ((يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله)), فهذا اللوم من الذنوب من أصابه وهو مسلم يغفره الله, وقال ((إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)). ما لم يتخذها ديناً يدعو الناس إليها, ويستتاب حين يصيبها فان أبي أخذته العزة بالآثم وحمية الجاهلية واصر على هذا فعهد ذلك تخلع ولايته.

بينوا للمذهب ذنبه قبل التبرئ منه وابعاده

فانقوا لله ولا تجعلوا كل من نزل به بلاء من الله كافراً فليت ب من أنزله تلك المنزلة فإنه يصير على ما ترك من طاعة الله فاسقاً كافراً, فان العامل للمعصية كالتارك للطاعة, فأذركم الله العظيم لأنفسكم لما اعتقدتم ذلك, فان لكل منزلة سيرة ولكل شهادة حكماً, ولكل حد عقوبة وقد بلغنا أن الرجل يكون فيكم زماناً لا ترون منه مالا ما يعجبكم من الرأي, والاجتهاد, والنسك ثم أنه يصيب ذنباً فتخلعونه وتحقرونه من غير أن يعلم أنكم قد برئتم منه, ويرى إنكم عنه راضون ثم ينكر منكم أشياء لم يكن يراها قبل منك فيأتكم فينشدكم الله ويسألكم النصيحة وأن تبينوا له ما يريكم

ولا يعجبكم، وأن ترضوا عنه، فتكتمون عنه، ولا تتصحون له ولا ترضون عنه وأذكركم الله لم تفعلوا ذلك؟ فإنه نقص لكم شديد وعيب في دين الله، ولم يكن ذلك في دين المسلمين قط، وأن كان مآبكم من أجل الذي أصاب فإن الله يغفر عهد التوبة فاذكروا ما تصيبون من الذنوب فإن لكم في ذلك عبرة أن تعتبروا، وتقولون إنا أن استتبناه متى يتب فإنه يعود وما يديركم ما يحدث الله بين الليل والنهار وما يحدث في القلوب؟ فيأتيكم تائباً فتردونه كما أتاكم ولا تتولون عند توبته فأذكركم الله العظيم ألا تشرعوا شيئاً لم يأذن الله به، وأن لا تتبدعوا شيئاً لم يكن في دين الله، ولا سنة رسوله عليه السلام ولا من بعده، وقد أكمل الله الدين ورفع التنزيل وكمل الكتاب ولم تجدوا لذلك يرهانا، لا آية محكمة ولا سنة ماضية أن تردوا على تائب توبته. فاتقوا الله فإن ذلك ليس بأيديكم منه شيء، ولا تملكونه وقال الله عز وجل: "قل لو أنتم تملكونه خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنم خشية الأنفاق" فإن كان ما بكم تقولون يعني إذا أنتم مهتدون بولايتهم حين يتوبون واطهروا لكم المعروف تضلونهم حين عادوا إلى ما نهوا عنه وتابوا منه؟ قال الله تبارك وتعالى: "من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، وما أنت عليهم بوكيل" فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين" وقال: "فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين" وقال: "فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين" وقال: "فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين". وأن كان ما بكم أنكم تردون توبتهم فإن تقولوا إنهم يخدعوننا فاتقوا الله فإن من يخدع بالله يخدع، ومن يخادع الله فهو المخدوع وتخرج ضغنته لوليه، ولا تأخذوا بالظن في ذلك. وتتركوا اليقين الذي ظهر لكم، ولا يكذبين ظنكم يقينكم.

البشر لا يخلون من عيب ونقص

وأن كان بكم أن لا تتولوا إلا كل مجتهد حريص لا يفتر عن صيام وقيام ولا ترون فيه عيباً فإن المرسلين والنبیین لم يزل بعضهم افضل من بعض، ولم يكن الناس فط فيما مضى ولا فيما غير اجتهداهم سواء والا أعمالهم سواء، وقد قال الله تعالى: "الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بأذن الله" وقال "ويؤت لك فضل فضله" وقال: تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات" وقال "ولكل درجات مما عملوا" فاعتبروا من الناس على عهد نبيكم عليه السلام والخلفاء من بعده كل الناس كانوا مسلمين وولايتهم وأحداه منهم الضعيف والقصير النظر، وهم الذين تكرهون ولايتهم، هم أعلم بالسنة وادرس للقرآن واشد اجتهداً من هؤلاء إلا ما شاء الله، ولا تجعلوا هؤلاء الذين كانوا منكم زماناً من أجل ذنب يعصبونه فمن لم يكن منكم* غير أن كبر ذنبا واعم جرماً من الذين كانوا منكم ثم تركتموهم، فلا يعرف دينكم أحد ولا تجالسونه أبداً وأن جاءكم مستجبياً فمتى تفعلوا هذا الذي آخر بدينكم الذي انتحلتموه لا يستجيب له أحد، فكل دين لا يستجاب له فهو دين الضلالة، أن لم تصح مؤاخاتكم في الله ولا فراقكم، فأذكركم الله العظيم لا تضيقوا ما وسع الله تبارك وتعالى فإنه" يقبل التوبة عن عبادة ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله، والكافرون لهم عذاب شديد" فدين الله واسع يجب أن يدخل فيه ويدعو الله*، فأحبوا ما أحب الله، وارضوا بما رضي الله واهتدوا بهدي من هدي قبلكم ولا تشدوا من الأمور عليكم فتكون لكم فيه هلكة وقد عاب الله تبارك وتعالى أقواماً جعل صدورهم ضيقة حرجة كأنما يصعد في السماء إلى آخر الآية؟*.

أما بعد فإن خير الإخوان الناصحون حين يتناصحون، وافضل الإخلاء من عطف عن التقوى وافضل الإخوان الراشدون في المضلات، المذكرون في الغفلات، وهذا يوم تناصح الأحياء، أن الأموات في سكراتهم يعمهون حين عاد الدين غريباً مفقوداً وعاد أهله غرباء منفيين وقد استحوذ

أبيس على العباد فهم له جند محضرون, وقد نبذوا الكتاب جملة من شدة البلاء وقد توارثوا نبذه عن الآباء حين مالت بهم الأهواء وجعلوا مكانه تحرفا لكاتبه كذبا وتكذيبا باعوه بالخس, وكانوا فيه من الزاهدين, فقد أصح البلاء في زماننا على الأتقياء في الخاصة والعامة, فسموا بصدقهم كاذبين وبأيمانهم كافرين وبهداهم ضالين فقد بقوا وبقي الكتاب اليوم وأهله غريبين طريدين منفيين نافيين مستغنيين مع ذلك عمن استغنى عنهما, فيا حبذا ذلك الغريبان الطريدان النافيان المنفيان والناس اليوم قد اجتمعوا على الفرقة, وتفرقوا عن الجماعة فصار أمر سلطانهم بينهم بعد أن كان شورى بينهم وفيئهم بعد قسم الرب دولة وغنيمة, ليس يلون أمر دينهم الرضى ولا عن رضى أهل الرضى إليهم في فعلهم أمام الكتاب ولي الكتاب له بإمام, يدخل الداخل بينهم لما سمع منحكم القرآن فما يطمئن جالسا حتى يخرج من الدين لأنه يوضع في يده خلاف القرآن إذا عمل به خرج من الدين فينتقل من ولاية ملك إلى ولاية ملك, ومن سلطان ملك إلى سلطان ملك, فليس له امام يسوسه ولا على أمر الله يطيعه فيبقى متحيرا واشتبهت عليه الأمور كما قال: لا بصر أهتدي به ولا بصير يقودني فان احتاج إلى العلماء والقراء وجدهم يدينون بطاعة الجبابة وآخر استحکم حکم القرآن مثل ما عليه الصديقون فاطهر أمر الله, فصار عند علماء أهل زمانه ضالا إذ لم يوافقهم على خلافهم لله, وهو كاليتيم المفرد يستذله من لا يتق الله.

فالناس اليوم على ثلاثة: فرقة تميت الحق وهم علماء السوء طلبا للدنيا وعلوا فيها, فأفتوا بغير الحق ودعوا إلى أنفسهم فنسبوا أهل سنة وجماعة, هم أهل بدعة وضلالة, وقد قال رسول الله عز وجل: " أن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله, ولعنهم اللاعنون" وأما الفرقة الثانية فهو كما قال فيهم الحكيم الصادق: أن الله عبادا رسخ عظم جلال الله في قلوبهم وركدت شفقة هيئته في صدورهم, وتمكن الحياء منه في ضمائرهم, ووطنت الفكرة أفئدتهم, وتمثلت العبرة بين أعينهم وجرت ينابيع الحكمة من دقائق سرائر إخلاص صدقهم على أطراف ترجمة ألسنتهم, فأثار بهم الدين وانحسرت بهم ظلم البدعة وبادت بهم سواد الضلال وارتعد بهم هدى نصرة الهدى, أولئك الذين كفوا عن الدين تاويل الزائغين وتحريف الملحدين, وشكوك المرتابين واغلاء المعتدين, وحيرة المتحيرين بالدين, الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا, أحيانا بمصرع الدنيا, والشراب بكأس أبنائهما, ودخولا وابغلا في شعاب هلكتها, واتيان في سياسة غدراتها وتسليم الدين خشية أفاتها.

هؤلاء أولى بالافتداء بهم

فاتبع الذين صدقت أقاويلهم أفعالهم — أو قال أعمالهم — وانقطعت من الدنيا آمالهم وكأنما سمعوا بأذانهم إلى صراخ أهل النار فيها أو تشنيش غليان جماجم أهلها, فهم محزونون وأن ابتسموا إلى أخراهم وهم المنعمون* بسرور الدنيا وأن خالطوا أهلها فيها فأولئك الذين لا تعترهم سامة, ولا تجتريهم رغبة, ولا ينظرون إلى الدنيا بعين نقية, ولا يعقدون لها على مودة ولا يفرحون فيها على زينة, بل ضربوا في السهم الأوفر, ولزموا الطريق الاقصد, وسلکوا السبيل الأرشد, وهم أئمة التقى ونجوم الهدى وإمام الدين, ومنار الإسلام كلامهم حكمة, وسكوتهم حجة ومباينتهم حسرة, ومخالطتهم غنيمة والاستئتان بهم حياة, والافتداء بهم نجاة فعليك أيها الزائغ عن طريقهم, والراغب عن سبيلهم بالاتباع, فانه ليس الاتباع كالابتداع, وعليك بطريق من كان بالله أعلم وبحلاله وحرامه منك ابصر, ومن طائفك الشاذة وعصابتك المناكثة التي ليست بهادية ولا مهتدية بل ضالة مضلة, زائغة عن سبيل الرحمن سالكة لسبيل الشيطان.

الشيء يعرف بضده

أعلم يا قارئ القرآن انك لن تتلو القرآن حق تلاوته حتى تعرف الذي حرفه, ولم تعرف الكتاب حتى تعرف الذي نقضه, ولم تعرف الهدى حتى تعرف الضلال ولم تعرف التقى حتى تعرف البدعة فإذا عرفت البدعة في الدين والتكليف, عرفت الفرقة والتحريف وان من هوى كيف هوى وأن لعم القرآن ليس يعلمه إلا من يخافه, فابصر به من عمى وسمع به من صمم, واحيي به بعد غذ مات ونجا به من السيئات.

الحكام الجورة لا قفون عند حدود الله

وأعلم يا قارئ القرآن أن العهد بالرسول قد طال ولم يبق من القرآن الا رسمه ولا من الاسلام الا اسمه وأن الله لم يجعل ما قسم بيننا نهبا, ولا ليغلب قوينا ضعيفنا ولا كثيرنا قليلا, بل قسم علينا برحمته بالاقسم وبالعطايا بالعدل والإحسان فمن اجتراً على الله ممن زعم أن له أقساما بين العباد سوى ما حكم به الكتاب, فبيننا وبينه الحكم, والعدل والشاهد الذي لا تكذب شهادته ولا تبطل عدالته, فلو كانت الأحكام كما حكم به أهل الجور والآثام لما كان بيننا خصام ولا تداعينا إلى حاكم كما لا يستأذن بعضنا بعضا في اللحا والألوان, وتماخى الخلق والنقصان وقديما اتخذت الجبابرة عباد الله خولا, ودينه دغلا, وماله دولا واستحلوا الخمر بالنبذ والمكس بالزكاة والسحب بالهدية يأخذونها من غضب الله وينفقونها في معصية الله.

واتخذوا على ذلك خونه العلم أعوانا ومن الوراع أعوانا, ومن الصناع أخوانا, ووجدوا على ذلك من المستأكلين أعوانا, فهؤلاء الأعوان خطبة أهل الجور على المنابر وبهؤلاء الأعوان قامت راية الفسق في العساكر وبهؤلاء الأعوان أخيف العالم فلا ينطق ولا يفتن بذلك الجاهل فيسئل, وبهؤلاء الأعوان مشى المؤمن في أطراف الأرض بالتقية والكتمان فهو كاليتيم المفرد يستذله من لا يتق الله واعلم بأنك في زمان وجد فيه من لا يوجب الميعاد قد رفعت لهم الجبابرة أعلام التكاثف فتناقشوا فيها وتشاحنوا عليها حتى محلتهم الفتن بعبارات القرآن فتلك معالم الطغيان وأذنت - هم - تلك المحلة بالعداوة والهجران.*

وأعلم إن في معاينتهم مشبه اشتعال النار, وأحكامهم الحرص والتحضيض على الشهوات وفي معاشرتهم ذم للقناعة وتصغير للنعم, وهم كما جاء فيها الحديث مساجدهم في ذلك الزمان عامرة وأنه قد بدل على ما كان فيها من الهدى سكانها وعمارها أجابت إلى الخطيئة في مساجدهم فهي اظهر منها في الريبة لان أهل الريبة إذا رأوا من لا يريد ما عندهم اختفوا بالخطيئة فهؤلاء قد بارزوا بالمحاربة, وكذبوا على الله في العلانية فواحدنا يقول سمعت وما اكذب, ونطقت ما اكذب وقلك أني لم أدرك من الإسلام إلا رسما عافيا, وعلمنا منقطعا باليا, فصرت ميتا بين الأموات وحيرانا بين المتحيرين فلوا أمرت بمعروف أو نهيت عن منكر لم اكن للظالمين ظهيرا, ولا لمن يدين بطاعتهم مواليا, ولا كنت كالمستعطي بكفه حتى يظهر حكم ربي.

جملة ما يدين به أهل الدعوة ويدعون إليه

الحمد لله الذي جعل في كل زمان وأوان أقواما يذبون عن دينه, عارفين بحكمة تابعين لسنة نبيه أحمد صلى الله عليه وسلم, اخذ من الدنيا قوته كفافا ولم ينزع أهله فيها عفافا, وقال يدعو إلى الله وإلى كتابه وإلى سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ونجيب من دعانا إليها: الله ربنا ومحمد عليه السلام نبينا, والقرآن إمامنا والكعبة قبلتنا رضيانا بحلاله حلال, وبحرامه حراما, لا نبتغي

به بدلا, ولا عنه حولا وندعو إلى فرائض مثبتات وآيات محكمات وانا في آثارها مقتدون بها, ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم أن الذي ندين لله به الدعاء إلى سبيل المقتدين قبلنا, والأخذ منه بسبيلهم والاعتراف فيه لهم بفضلهم الذي فضلهم الله به من سابقهم, وفراق الناس جميعا على المعصية وإنزالهم حيث أنزلوا أنفسهم, والسيرة فيهم على قدر منازلهم, والأمر بالمعروف والمعروف طاعة, والنهي عن المنكر, والمنكر معصية الله, وفراق أهله كله مع شهادة أن لا إله إلا الله فردا واحدا ليس كمثل شئ ومعرفة الموت والبعث والحساب والجنة والنار والإيمان بما أنزل الله من كتاب وبما أرسل من رسول, ونتولى الله ورسوله والذين آمنوا ونخلع ما سواهم ونقر له بجميع ما أمر به وجميع ما نهى عنه بحق السمع والطاعة"

وعنه أه قال: كان رجل من " ضنو " هو أبن عم المسيب أبن زهير, وكان صفريا وكان من أصحاب شبيب, وكان الحجاج بن يوسف طلبه فهرب إلى البصرة فنزل عندنا في دربنا في الازد واكتتم عندنا, قال فدعاه المسلمون إلى الإسلام فأجابهم وكان يسمى مصقلة ويسمى بعد ذلك بسطاما, أبا النظر فغلب عليه بسطاما, قال, فكان يقول لهم إلى من تدعونني؟ فقالوا له: إنا ندعوك إلى ولاية من علمته أنه يقول الحق ويعمل به, وندعوك إلى البراءة ممن علمت أنه يقول بخلاق الحق ويعمل به, وندعوك إلى الوقوف عمن لا تعلم حتى تعلم. قال أبو النظر؟ فلما سمعت هذا من كلامهم علمت أنه دين الله الذي ارتضاه. قال, فقبل الإسلام وكان خيرا فاضلا وله فضل في المسلمين وشرف, قال ويحضر المجالس فأول من يتكلم هو, وقد قال الإمام افلح رضى الله عنه: عليكم بدراسة كتب أهل الدعوة لا سيما كتب أبي سفيان.

أبو غسان مخذ

ومنهم أبو غسان مخذ بن المعرد رحمه الله أحد علماء علم الفروع والكلام, والمناضلين عن كلمة أهل دعوة الإسلام وممن نجب من أصحاب أبي عبيدة وضح يده في العلوم وأيده, أن أفتى فالشمس مشرقة الشعاع, وأن ناظر فالقمر مقتد في البقاع وهو أحد من أفاد واستفيد منه, ورويت الأحاديث والفتاوى عنه.

قال أبو سفيان جاء رجل إلى مخذ بن المعرد فقال له: يا أبا غسان, أن عبد الله بن عبد العزيز وجماعة معه يقولون من أفتى الناس بما لا يعلمونه حقا, فان لهم أن يقفوا عنه, فقال عنه, فقال أبو سفيان: أنت سمعته؟ قال: نعم قال فارجع إليه وقل له: يا أبن عبد العزيز ما تقول فيما أفتيتنا به من أمر حجتنا, فأنا لا نعلم ما تقول حقا ألسنا يجب لنا أن نقف؟ قال, ففعل الرجل فقال له أبن عبيد العزيز: أنت رجل شغب, ولم يجب بشيء فانصرف الرجل إلى أبي غسان فاعلمه بذلك, فقال أبو غسان: أن الذي قال لا يجوز في الدين ولا يسمع نقض ولاية أهل الدين إلا بما يسمع مفارقتهم.

ومن هذه الطبقة حملة العلم الخمسة وقد تقدم من ذكر مناقبهم وسيرهم وأحوالهم, في أثناء ما بسط من الأنباء للدولة الرستمية, ما فيه كفاية, رحمة الله عليهم أجمعين.

الطبقة الخامسة 200-250هـ

منهم الإمام افلح بن عبد الوهاب رحمه الله هو ومن ولي من ذريته قد تقدم أيضا من أخبارهم في مواضعها ما أغنى عن اعادته.

أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني

ومنهم أبو عبدة عبد الحميد الجناوني رحمة الله قد ذكرنا من نفوذه في الأمور وامضائه وقيامه بالمدافعة عن نفوسه وضيائه، وادائه الأمانة ووفائه أحوالاً مستحسنة المواقع، مستحلات في المسامع، إلى ما طبع عليه من الورع واطراح الحرص في الدنيا وترك الطمع وهو أحد علماء نفوسة، الموصوفين بالأخلاق النفسية.

أبو زكرياء الكتوتى

ومنهم أبو زكرياء التكوني، وأبو مرداس مهاصر رحمهما الله بلغنا في العلوم النهائية، وجريا في أرم الصلاح إلى أقصى غاية إلا أن أبا مرداس ممن هرب، وقنع بالخمول واعتمد على أن ما عدا أمر المعد فصول. وإما أبو زكرياء، ف كان علما لكل الفضائل، ومعلما لكل ناهل وذكر إن أبا مرداس كان يصلى في المسجد إذ سمع قائل يقول: من يعطينى شيئا الليلة ينجيني وكان ذلك في مجاعة عظيمة فلما قضى أبو مرداس صلاته، قال: ما يقول هذا؟ فاخبروه فقال لهم بادروه فقد أقام عليكم الحجة فابتدورا إليه فوجدوه خلف جدار المسجد ميتا ففرضوا ديتة، فأدى أبو مرداس ما ينوبه منها، وذكر أبو الربيع عن شيوخه أن أبا مرداس كان إذا أراد زيارة إخوانه بتا هرت بجمع ما بالجبل من أوال الوصايا مما كان فيها من فضل عما عينت له فيحمله معه إلى تاهرت ليقوى به بيت مال المسلمين ويتوخى في ذلك انتفاع أصحاب الوصايا.

أبو مرداس مهاصر يتخرج من إراقة دماء الموحدين

وذكر أن الإمام عبد الوهاب رضى الله عنه قال: ذاكرت أبا مرداس في الوجوده التي يحل بها أو بأحدها إراقة دماء الموحدين، فذكرت أحدها فتنكر وكره، فأمسكت عن باقيها ثم ذكر الإمام أربعين وجها وقيل سبعين وجها يحل بها دم فعل شيئا فكيف ولو سمعها أبو مرداس لكها على تحرجه.

وعن أبي مرداس أنه رأى خطأ من غير قصد امرأة مكشوفة الرأس فصام سنة كفارة على ذلك لكثرة اجتهاده وكان ذلك في أيام الربيع وقد خرج الناس ولم يبق في البلد إلا أبو مرداس فنظرت المرأة في البلد فقالت ما بقي في البلد غير أبي مرداس ومثله لا أتخفظ عنه فرقت الدرج فرآها وذكر أن أبا مرداس فرغ ماء وضوئه فخرج يطلب الماء فطلبه من سبعة أبيات من جيرانه فلما لم يجد رأي ن قام عذره فعدل إلى التيمم، وعنه أنه قال قد كفرت جارتنا اليوم مراراً، وذلك أنه سمع صوتها من خيمة إلى خيمة، وبينهما سبع قامات، ولعل الذي نسب إليها من الكفر إنما هو الفاظ لم يقصد بها الكفر، وربما كانت ممن لا ينبغي مخاطبتها بالتعليم والإرشاد، فقال هذا القول منه ليسمع منه من كان ينهاها ويعلمها، الذكر عند أنه كان إذا قدم تاهرت فحصد الناس زروعهم، ولقط اللقاطون السنابل التي تبقى بعد اللقاطون ورعي المواشي تعقبهم أبو مرداس فيلقط ما يقوم بقوت عام، فيعتقد أن الذي بقي بعد اللقاطين ورعي المواشي إنما هو متروك.

ستشملنا اللعنة إذا سكتنا عن المنكر

وذكر عنه أنه كان بتاهرت ذات مرة فسمع رجل يدعو رجلاً آخر إلى الحق، فلم يجب دعوته وأعرض عنه فجاء أبو مرداس إلى دار الإمام فجعل يضرب فيها بالحجارة ويقول: بهلة (1) الله اليوم على من سكن هذه البلدة فقال رجل للإمام كيف نحن وهذه التي يذكر أبو مرداس، فقال نحن

في وسطها إذا لم نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر، والإمام حينئذٍ مشغول بغسل يوم الجمعة، وكان أبو مرداس إذا نزلت عنده نازلة من مسائل الدماء كتب بها إلى عبد الخالق الفزاني يستفتيه، فيكون العمل بما يجاوبه به، وذلك لكونه يرى عبد الخالق أعلم أهل زمانه بالدماء وأحكامها.

وبلغنا أن رجلاً من أصحابنا من أهل المشرق أقبل من بلاده يريد زيارة أهل الدعوة بالمشرق، فاجتاز بجبل نفوسه فتصفح أحوال أهل الجبل واختبر كل من يأويه إليه منهم، ثم توجه إلى الإمام بتاهرت، ولما وصلها تصفح أحوالها وأحوال ن بها فسأله أهل تاهرت عن جبل نفوسة فقال لهم الجبل هو أبو زكرياء وأبو زكرياء هو الجبل. وأما أبو زكرياء هو الجبل وأما أبو مرداس فكان الغزال نفسي وإما أبو العباس ففتى مفرعي - يصفه بالشدة والنجدة - فلما رجع المشرقي إلى الجبل سأله نفوسة عن أهل تاهرت فقال ليس بها أحد غير الإمام ووزيره مزور بن عمران.

وبلغنا أن أبا مرداس كلف بأمر آخرته فأضاع أمر دنياه وكان مقترأ عليه، يذكر أنه شاور بعض أخواته في التزوج وسأله أن يخطب عله امرأة تصلح به فطاف بالجبل فلم يجد أيما إلا وأحده مجنونة فاخبرها أن أبا مرداس أرسله ليخطب عليه امرأة فقالت له فأنا أجبت خطبته قال فأتى الرجل إلى أبي مرداس فاعلمه بما كان من جواب المرأة وعرفة بحالها فقال أبو مرداس أما إذا اختارتني فأنا أنتزوجها فتزوجها أبو مرداس ومكث معها دهرًا وكنت من أفض نساء نفوسة بحسنهن وارفعن ذكرا وذلك ببركة الشيخ، وموافقته فلت ل عل الذي ذكر في وصفها بالجنون إنما هو الوسوسة وشراسة الأخلاق، أو ممن يجن ويفيق، وإلا فكيف ينقذ النكاح على مجنونة لا تفيق؟ وأما ما أذهب الله عنها فلا ينكر، وهي أيضا من الكر أمات نحو ما تقدم من أمثال ذلك في هذا الكتاب.

أبو ميمون الجطالي

ومنهم أبو ميمون من أهل ايجطال من نفوسة الجبل رحمة الله ممن له في الآخرة رغبة وترغيب ولم يكن له في دنياه أكثر نصيب، وكان ذا جد في العلم، والاجتهاد وسعي في العبادة ومنافع العباد وكان ممن يعد في الشيوخ وممن قدمه في العلم ذا رسوخ وكان ذا تفقد لمواضع المعروف وذا أثار على ما ك إن عليه من لإقلال والإقتار.

أبو ميمون تصدق فيه فإراسة أمه

ذكر جماعة من الشيوخ أنه كان بجبل نفوسة يايجطال امرأتان ولكل وأحده منهما ابن صغير فسألت كل وأحده منهما الأخرى ما ظنك بابنك وما ترين فيه؟ فقال إحداهما أراه أن يكون عالما وقالت الأخرى أراه أن يكون عابدا، فسألت كل وأحده منهما صاحبتهما بماذا استدلك على ما قلت؟ فقالت أم العابد أرى ذلك لاني إذا كنت في الصلاة سكن وترك البكاء والتغريض، فإذا خرجت من الصلاة واشتغلت بغيرها أكثر البكاء والتغريض، فقالت الأخرى أرى ذلك لاني إذا شهدت مجالس الذكر والعلم سكن واطمأن قلبه لذلك ولم يتحرك وإذا كنت في غيره أكثر البكاء والقلق، فصدقت فإراسة كل وأحده منهما فكان العالم منهما أبو ميمون المذكور قيل وكانت حلقة تجتمع على أبي ميمون يدرسون العلم ويأخذون السير إذ خطر ببال أبي ميمون أن ينظر في التزويج من بلد غير بلده، فمضى ومضى معه تلامذته وهم متمادون على دراستهم واجتهادهم ولم يغتروا في مقام، ولا في رحيل فتزوج أبو ميمون وابنتي بامرأته فكان التلامذة مواظبين على درسهم عاكفين على عزهم.

وذكر أن زوج الشيخ قالت: لما رأيتهم اقبلوا أبصرته أقصرهم قامة, فلما حلقوا عليه وأقبل كل واحد منهم يسأل والشيخ يجيب, رأيت حينئذ الشيخ أطولهم أعظمهم.

وذكر أبو الربيع عن أبي محمد عبدالله بن محمد وسمعت من غير واحد, أنه قال: استودع رجل عند أبي ميمون وديعة دنانير, وسافر عن جبل نفوسة وطالت غيبته وفوقعت في جبل نفوسة مجاعة عظيمة واشتدت عليهم الشدة, حتى اضطروا إلى أكل الميتة, ثم أن صاحب الوديعة قدم فقصد دار الشيخ أبي ميمون, فسلم عليه ورحب به, فوجد قدرا يفور باللحم, فسأله الرجل عن الوديعة فقال له: هي حيث دفنتها فاحفر عنها وارفع وديعتك فحفر في الموضع الذي دفنها فاحفر عنها وارفع وديعتك. فحفر في الموضع الذي دفنها فيه قال المخبر وفي أثناء ذلك وقع في قلب صاحب الوديعة شئ مما يقع في القلوب من الغيبر وساء ظن نفسه بالشيخ, لما لم يعرض لعيه المقام لتناول الطعام, وهو قادم بعد طول المغيب وبعد عهد بالمزار, مع ما تعهده في الشيخ من الإيثار, فلم يتمالك أن تكون بما في قلبه ولم يكف عن غربه* في عتبه حتى إذا استوفى ما عنده قال له الشيخ, احمل وديعتك وعد عما سواها, فان الذي في البرمة مباح لنا وليس لك بمباح, قال وما هو؟ قال: الميتة, وضطرنا إليها الجوع والقرم ولست أنت بمعدم قال معاذ الله أن أكون واجدا وتكونوا معدمين حتى تستوجبوا أكل الميتة فدفع له عشرين ديناراً, فقبلها منه وأمر بانكفاء القدر وعالج من العشرين دينار ما أكلوا وأطعموا ضيفهم.

أبو المنيب محمد بن يانس

ومنهم أبو المنيب محمد بن يانيس رحمه الله المجالد لنفسه المتصف بالمآثر في أهل جنسه ذو الدعوات المجابات, والخشوع والإنابة, وكرامات تضاهي المعجزات يخل بالدنيا, ويفرغ لأعمال الطاعات قد تقدم من وصف أحواله وما كان عليه من المجاهدة والقيام والصيام وخدمة أصحابه الذين وفدتهم نفوسة مددا للامام, ما يدل ذلك أنه أهل لاجابة الدعاة لاتسد دونه أبواب السماء وهو لدعائه المستجاب وكراماته التي هي العجب العجاب, وسنذكر من ذلك ما أمكن وأن أسره فقد أبى الله إلا أن يعلن ذكر عن أبي زكرياء التكويتي أن محمدا بن يانس كانت له غنيمة لا راعى لها فكان إذا أصبح وأراد أن يرسلها إلى المراعى يقول لها: أنهاك أن تضرى أحدا وأنهى أن يضررك أحد, أمضى في حفظ الله, قال فتسرح فتمر في أوساط الزرع فلا تضر شيئا, ولا تأكل غير الحشيش والمباح الذي لا حق فيه للناس, حتى تروح على ربها سالمة, لا يطمع فيها سارق ولا يضرها ذئب, ولا ضبع ولا سبع.

قيل وكان دأبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان يتفقد المزارع والجنات والطرقات محتسبا ثواب الله, فمتى وجد أحدا أهم بإفساد شئ من ذلك أو بإدخال ضرر على أحد من المسلمين صرفه عن ذلك, وحال بينه وبينه, وكان لا تمسه غفلة عن هذا الشأن, ومع كثرة عبادته فقد جعل هذا من أوكدها قيل فلما كان ذات يوم وجد ثلاثة أخوة وقد عزموا على ضرر قد قصدوا به غيرهم, وقد اخذوا في عمله, فنهاهم عن ذلك فقاموا إليه ونالوا منه وعاملوه اقبح معاملة, فسمعت قبيلته وأهل منزله بالذي ناله من القوم, وأرادوهم بضر, فنهاهم محمد عن ذلك وقال ما نالوا منى شيئا إلا وقد نلت منهم أكثر واعظم, فسار أحد الاخوة الثلاثة فطلع إلى كبار رآها متعلقة بالجبل فوق فلم يصل إلى الأرض وقد تمزقته جروف الجبل فلم يجمع لحمه الا بالإبرة فيما ذكر, ومضى الثاني إلى بئر يسقى منها, فسقط في البصر فوجدوا رأسه موشوقا كرأس بصلة بين الصخور ودخل الثالث دارة فبلاه الله بالانتفاخ فانتفخ حتى انشق بطنه, وكان ذلك في يومهم الذي كان فيه ما كان منهم إلى الشيخ نعوذ بالله من المعقوق.

كرامة يظهرنا الشيخ لرفيقة

وذكر عنه أيضا أنه كانله سبعة مساجد بعضها في الجبل وبعضها في السهل فكان لا تقوته الصلاة في كل مسجد منها كل ليلة وهو شيخ كبير .

وذكر عنه رافق رجلين لا ادري إلى الحج أم إلى تاهرت , فلما كانوا ببعض الطريق قال أحدهما أتتني الآن ماء عين كذا- يعني عينا ببلده - وقال الآخر: أتمنى هاهنا لبنا, فقال لهما محمد أن كتمتما ما تريانه يحضر ما تمنيتما, فحل فم سقاء فصب منه لبنا على الصفة التي تمنى صاحبها ثم صب للآخر ماء لا يشكون أنه ماء العين المذكورة التي تمنى ماء من ماءها, وكلاهما من سقاء وأحد لم يتقدم فيه غير ماء من مياه المكان الذي كانوا فيه وذلك بقدرة الله عز وجل وإكرامه وعرفه وخدمته,

قليل ودخلوا في توجههم هذه مدينة من المدن فمرت بهم امرأة في أيدي الشرط يغلونها, وهي تصيح: أغيثوني معاشر المسلمين فأغاثها محمد بن يانس, وسل سكينه ودافعهم حتى خلصها منهم, فحلموه إلى السلطان وقد هرب أصحابه فقال ما حملك على انتزاع المرأة من أيدي خدامي؟ قال سمعتها تصيح بالله وبالمسلمين فلم أتمالك ولم أر في ديني أن أسلمها فأمعن النظر فيه طويلا, ثم قال: تركناها لله وإجلالا لحقك يا حاج , فاجع إلى أصحابه فوجدهم مستخفين فقال لهم ما حملكم على هذا؟ قالوا خفنا من سوء عاقبة ما اجتزأت عليه فاق لانما كان فيامي في الله وهو أعلم فليس بمضيعة ولا خاذلني ولم اغضب لله قط الا ونصرني ونجاني ثم تلا: " وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء وإلا هم يحزنون" وف هذه الحكاية ما يدل على انهم إنما كانوا في طريق الحج والله أعلم.

يقتصر على القليل من الزاد إثناء تفرغه للعبادة

وذكر عنه أنه كان إذا مضى إلى غار يتعبد فيه يعد زادا قليلا فليبيت في الغار المذكور المدة الطويلة التي يفنى في بعضها أضعاف ذلك الزاد, فكانت هذه حالته حتى ساء ظن امرأته وحسبت أنه قد تزوج غيرها, وأن التي تزوج هي التي تقوم بطعامه المدة التي يفنى فيها زاده فتوجهت امرأته إلى الغار , فدخلته في خفية على حين غفلة, وكمنت بحيث لا يشعر بها بعلمها وراقبت إلى وقت افطاره, فلما صلى ما شاء الله كما كان يصلي قبل تلك الليلة تحول إلى شجرة رتم أم تمام فأخذ منها فافطر عليه, وأكل منه ما اقتات به, حتى اكتفى فلما وجدت الأمر على خلاف ما حسبت, وعانيت ما عانيت. قال له أو دأبك على هذا؟ فقال لها كلي يا أمة الله فأكلت طعاما نهاية في الحلاوة, ثم حلمت ما قدرت عليه من ذلك الطعام وابت به إلى البلد , و أخبرت أهل البلد بما شاهدت وناولتهم وقال لهم كلوا فلما ذاقوه وجدوه مرا مضرا.

أبو خليل الديركلي

ومنهم أبو خليل من أهل ايدر كل رحمه الله شيخ الجماعة النفوسية الأخيار وأول من أخذ عن الخمسة الحلمة العلم الأخيار, ومن أثبتت أخباره في مشهور الأخيار ورويت عنه السير والآثار, ذكر أبو الربيع أن أبا خليل رحمة الله يقول: والله ما انتم إلا معلى الجادة ولا تركتكم إلا على

الواضحة المنيرة، وما بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، غير ثلاثة لم أرهم وذلك لأنه أخذ عن ابن عباس وعن غيره من الصحابة رضي الله عنهم وروايتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

شهادة المشائخ له عند احتضاره

وذكر شيوخ من أصحابنا أن أبا خليل لما حضرته الوفاة اجتمعت عليه الشيوخ فقال لهم: كيف حالي عندكم؟ فقالوا له: خير حال عبدت ربك العمر الطويل وتعلمت العلم وعمته وعملت السير والأخلاق فقال لهم: أبهذا تشهدون لي عند الله؟ قالوا نعم، قال: اكتبوها هاهنا فكتبوها في رقعة، فقال لهم: إذا مت فاجعوا الرقعة فيما يلي جسدي تحت الكفن فتوفي رحمه الله على مائة وعشرين سنة وعقله محفوظ، فلما جهزوه جعلوا الرقعة بين جسده وكفنه فلما أصلحوا القبر وألحدوه ورمسوه، وقفوا وخطوا عليه الحريم، فإذا كتابهم الذي فيه شهادتهم ملقى فوق تراب القبر، فرفعوه فإذا فيه غير خطهم الذي كتبوه فقرأوه فوجدوا فيه: هو عندنا كما هو عندكم.

وذكر أبو الربيع أن ولدا لأبي خليل قتل وترك يتامى فأخذ الشيوخ قاتله، فقادوه لأبي خليل، ثم سألوه أن يعفو عنه فقال لهم دعوني الليلة أدبر رأيي فمضوا وتركوه عنده، فأمر بالجاني فأضجع وذبح فلما أصبح غدوا إليه فوجدوا القتل مذبوحا، فاستعظوا ذلك وأنبوه عليه. فكان مما خاطبوه به أن قالوا اجتمعت في قصتك هذه ثلاثة أشياء: انتمناك عليه، وسألناك العفو واستعنت عليه بغيرك! فقال لهم: أما قولكم أمانة فمحال وإلا فما تقولون في رجل أتى إلى رجل بمال، فقال: هذا ملك أمانة عندك هل يأكله أم لا؟ وإما سؤالكم العفو وهو خير فصحيح، ولكني خفت على أولادي أن يكونوا جناة بأن يقتلوا مغير القاتل أو يقتلوه، وليس ذلك لهم، وأما قولكم استعنت لعيه بغيري فما تقولون في شأن الضحية هل على من استعان عليها بغيره من جناح.

قلت لعل اليتامى الذي خلف ابنه إناثا لا ذكر معهم ولو كان معهم ذكر لكان أولى بالدم منأب المقتول، ولا يصح غير هذا، إذ لا ينسب إلى أبي خليل هذه السقطة على جلالته وصلاح حالته، ومكانه في العلم والدين أن يعتمد قتل من لا سبيل له عليه.

يحث أولاده على ملازمه مجلس العلم والبحث عنه

وروى أن أبا خليل كان يقول للتلاميذ سيروا إلى الحلقة واقصدوها حيثما كانت يا كسالى، فإن رجلا قد سار من الجبل إلى فزان والي غدامس، وإلى الساحل، رغبة في الحلقة وفيما يستقيده، فلقيه في الطريق قطاع، فدافع عن نفسه حتى جرح سبعة عشر جرحا فظنوا أنه قد مات فتركوه فوجد في نفسه النهوض فنهض، ودخل موضعا يقال له وعمان، ومكث فيه أربعين ليلة بلا طعام ولا شراب غير أنه يرى في نومه من يطعمه ويسقيه، وخرج من الموضع وهو أصح شئ، وكأنه لم يصبه ألم وذلك بفضل الله وحسن نية الرجل وجميل قصده.

أبان بن وسيم

ومنهم أبو ذر أبان بن وسيم النفوسي رحمه الله، طود العلم الشامخ وحصن الورع الباذخ ودع أنل الدنيا بد حين، ورجع إلى الله فهو في حلبة المفجلين وأحيا السنة من البلى وذلك ببركة الصالحين

وكان ذا سعة في المال والعلم وممن وسع أهل زمانه ما لديه من المعروف والحلم، فكان أمضى من الحسام متى أفتى جامعاً من المحامد لمعان شتى، وقد أوتي من كرامات الأولياء ما أوتي أمثاله، لم تزل ملازمة الصلاح أحواله، مصدقة أقوال أفعاله.

كان الشيخ يجلس ويحترم من يتعلم العلم لله

كان إبان ممن قرأ على أبي خليل وكان معه طالب آخر يعرف بابن مؤنسة، يقرآن جميعاً على أبي خليل فكان إبان متى دخل على الشيخ فوجده مضطجعا أو متكئاً أو مسغشياً ثيابه انحفض واستوفز* وجلس ومستويا فخرج رأسه من ثيابه احتقالا به، واهتبالاً لشأنه، وإذا دخل عليه ابن مؤنسة فوجده على أي حال كان، بقي عليه لم يتحرك، ولم يتحول استخفافاً به، فكانوا على هذه الحلة الموصوفة مع كل واحد منهما، حتى قال حفيد الشيخ أو ابن أخت له هل علمت يا شيخ أن قد تكلم فيما تقابل به كل واحد من تلاميذك؟ قال له الشيخ بالبربرية "يا مبتلى" أظننت لهذا يا بني أن إباناً يتعلم العلم الله، وابن مؤنسة إنما يتعلم العلم ليؤذي به، ويؤذي فكانا كما تقرر فيهما الشيخ رحمه الله، وذكر أن إباناً تزوج امرأة فلما انعقد عليها نكاحها زارها في بيتها، استأذن عليها، ففتحت الباب فقال، من هذا فقال أنا ابن قد زوجنيك وليك، فأغلقت الباب في وجهه، وقالت أنك وإن كنت أميناً لمحتاج إلى أمناء، قلت ولعمرك أن هذه لمن زلات العلماء، وأن المرأة لأولى بالصواب منه لوجوه كثيرة ولم نذكر هذه الحكاية لتطلع منها (على) عورة الشيخ بل لتعلم إنها نظرت بمرآته واستضاءت بنوره، وشملتها بركته وكان الأولى أن يعلمها بذلك وليها، وشهود عقد النكاح، وحينئذ يحالو في أله ما شاء، ولئن فعل فانه لم يأت أثماً ولا حاب جواباً.

إبان سهل للناس في ثلاث مسائل شددوا فيها

ومما شكره عليه الشيوخ بجبل نفوسة أنه رخص للناس في ثلاث مسائل: أفتى فيه أن يشهد له كلهم بالصواب، الأولى أن النساء قد كن في رمضان متى كن في انتظار أيام الحيض إذا قبل الليل ويوقدن النار الليل كله خشية أن يفاجئن الأمر وإلا علم عندهن، فكان ذلك أشد شيء عليهن تعباً ونصباً فقال لهن إبان أيما امرأة منكن أحست شيئاً من ذلك فلتجعل علماً فكل ما رأت على علمها بعد الصبح فاستدلت به، حكمت بذلك ويجزيها. الثانية أن نساءهن المرضعات كن يرين أن وضوءهن منتقض بأفواه أولادهن فمتى ارضعن أعدن الوضوء في كل وقت صلاة لاجل أفواه الوضع، فقال لهن أيما امرأة حفظت فم ولدها ومسحته فأرضعت وهي متوضئة فلا ينتقض وضوؤها. الثالثة أنهن إذا علمن غزلاً قد صبغها اليهودي، فمسته رأين أن وضوءهن قد انتقض لمسه، لأن اليهودي نجس، فقال لهن أيما امرأة مست صباغ اليهودي فليس عليها إلا غسل يديها، وليس عليها إعادة وضوء،

مكانة أخيه تحفزه على التعلم والاجتهاد رغم الكبر

ذكر غير واحد أن بدأ أمر إبان بن وسيم، ورجوعه إلى الله وتركه ما كان فيه من الخوض في غرماً الدينار، أنه كان هو وأخ له اسمه سعيد يكنى أبا محمد مريضين، وكان أخوه أسن منه، وكان متقدماً للتوبة فاضطجعا في غار واحد، وكان مضطجع داخل الغار، وإبان مما يلي باب الغار، وكان الشيوخ والعواد يدخلون ليعادة أبي محمد فيدخلون، ويتجاوزون إبان، وينتهون إلى سعيد فيجلسون إليه، ويؤنسونه، ويحفون به ويختلفون إليه ويسألونه عن حله، وعما يشتهي، فإذا كان عهد انصرافهم دعوا الله أن شفيعه، ثم يتجاوزون على ابن لا يخطفون وغايتهم أن يقولوا كيف

حالك يا أبان؟ يا ضعيف؟ وربما دعوا له بالشفاء فكان ذلك لما أراد الله به من الخير والصلاح زجرا له عما كان عليه, وردعا, فإذا سأوله هذا السؤال قال: فان فرج الله على أبان سيريكما يصنع وتقفون على خبره, إن شاء الله, وفرج الله عليه فوفي بما اعتقد, وتاب ورجع إلى الله تعالى, فكان في حلقة أبي خليل مواظبا للدراسة, عاكفا على القراءة, والمطالعة, حتى بلغ الغاية بالعلم والورع والاجتهاد في العبادة.

اكن زمان نذير وأنت نذير زمانك

فبلغنا أن شيخه أبا خليل قال له يوما وقد أعجبه ما هو عليه واستسر بما انتهى إليه, اعلم أن لكل زمان نذيرا, وأنت نذير زمانك, يا أبان وافت الناس بخا لا بأس به من الرخص يكون ذلك لهم عذرا, عند مولاهم, فسأله رجل عن أكل يوما يحسب أنه أكل ليلا وهو صائم فإذا هو أكل بعد الصبح فتجهم له واغلظ عليه, وشدد حتى بدا في لسانه تلجلج والتواء, وقال يحمل أحدكم الشره والنهم حتى يأكل صباحا, ثم يطلب المخلص ثم أفتى له بأن صومه لا ينهدم, وأمره أن يقضى يوما مكانه,

تحفظ من المطر لطاعتها لزوجها

وذكر أن ابنة لأبنا جاءت زائرة فصب مطر غزير يمنع من التصرف, فقال لها بيتي الليلة عندنا, فقالت لم يأذن لي في المبيت, إنما في الزيارة فقط تعنى بعلمها, قال فتماذى المطر يهطل وأقبل الليل, ف علم الشيخ أنا لذي قالته هو الواجب, وأن امتناعها من أجابته هو الصواب, فقال لها إذا فسيرى في حفظ الله وستره, فمضت إلى زوجها ومنزله بعيد فأدركته والمطر يضرب لم تقطر فطرة مطر, ولا وقعت على ثيابها, فمرت بناس في سباط المنزل قد حبسهم المطر, وجمعهم هناك, فلما رأوها وكيف حفظها الله عز وجل بدعوة والدها, جعلوا يتعجبون ويذكرون الله عز وجل ولطفه بعبادة الصالحين.

كيف كان الناس ويكل أصبحوا

ومما حفظ من كلامه في ذم الزمان وأهله, أنه قال: " قد أدركنا الناس الذين هم الناس محادثتهم ذكر الله تعالى, وزيارتهم في الله تعالى, ومعانقتهم في الله تعالى, ومحبتهم في الله تعالى, وبقينا حتى أدركنا ناسا محادثتهم ذكر الدنيا, وزيارتهم لقاضى الحوائج ومعانقتهم نطاح" * ومن كراماته أن ذنبا أذاه في بستانه فدعا عليه, فوجده من الغد منتفخا, وذكر أن أبانا قال يوما لأبى عبيدة عبد الحميد علينا ولاية الأشخاص فأبى له أبو عبيدة, فلما رآه أبان كذلك دخل بيته وأخذ سلاحه وخرج, وقال له لتعتقدن هذا وتدين به, قال فلما رأى أبو عبيدة صر يمته وعزيمته, قال من أين أخذتها يا أخي؟ قال: أخذتها من الذي أوجب علينا طاعتك يعنى الإمام عبد الوهاب, فقبل أبو عبيدة الحق وتبين له.

أبو مهاصر موسى بن جعفر

ومنهم أبو مهاصر موسى بن جعفر رحمه الله، شيخ النسك والتبتل، والمكرم بالدعاء المستجاب، المتقبل، رفض شهوات النفس وباعدها، فبان بأسنى المنازل واستوجب الوقي في درجات الرقي في درجات الأفاضل، ازدري أهل الدنيا وهم يرون أن قد أزدروه، وباع حظه منها حين بذلوا فيها نفائسهم واشتروه، وتحقق أن من اشترى الدنيا غبن، وما هو في تحصيل العلوم بذى تقصير، ولا باعه فيها بقصر، إلا أن النسك أغلب عليه، والمجاهدة أقوى يقينه.

يذم البادية لانه لا يتمن فيها من الطهارة

حدث جماعة من المشائخ أن أبا معاصر خرج سنة من السنين على البادية في أوان الربيع هو وعمروس بن فتح رحمهما الله، فلبثا أياما على غير ماء في برية من الأرض، لا يجدون ما يتوضأون به، إنما كانوا إذا حضرت الصلاة تيمموا وصلوا، وتكدر خاطر أبي مهاصر لذلك حتى قال ذاما لهذه الحال: قلوب تربو عليها الشحوم مما سممت، ووجود تعلوها الغبرة قلت سلامة الدين مع أهل الوير، إنما الدين في المدر، والله لا يجمل بنا أن نترك الدين لا تباع سهواتنا، وأناي لا خاف أن أكون ممن عاب الله عز وجل، فقال فيهم: "أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلغون غيا" فرد عليه عمرو بن بان قال له: ليس في ذلك ما تخافه فقد أباح الله التيمم عند الضرورة، فأبان ذلك في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، وذلك في ابتغاء الفضل، وقطع الفياقي المجاهل من الأرض، وقال: "ابتغوا من فضل الله" وقال: عابري سبيل" وقال: " فلم تجدوا ماء" فلن يقنع ذلك جميعا أبا مهاصر بل ارتحل راجعا إلى منزله، قيل وأنه استصحب معه مهاصر بل ارتحل راجعا إلى منزله قيل وأنه استصحب معه من الزبد وغيره ما يتخف به أهل منزله، فلما وصل جعل يهدى إلى كل دار من ديار قريته ما أمكن، حتى لم يبق بقريته أحد إلا وقد قات من ذلك قدر له، حتى يهودي ضعيف كان معهم ساكنا، فأناله من ذلك، وقال اليهودي: وأنا أيضا لم ينسني اللهم لا تنسه من رجمتك برحمتك، فقال عند ذلك، وهذا ما أردته منك يا يهودي يعني الدعاء قالت ولعله أراد ما يعطفه ويلين، فیدخل الإسلام، وإلا مثل أبي مهاصر لا يجهل قوله تعالى: لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله" قيل وجمع أبو مهاصر من الصبيان فأعطاهم حتى هرة كانت معهم، وقد قيل جروة فدعا له الصبيان ربهم، ولقد شوهدت الهرة عهد اختلافهم وهم في الدعاء شائلة يدها ما شاهد: أن الله خلق الرأفة والرحمة واسكنها قلوب المومنين، وخلق القسوة والجفوة وأسكنها قلوب الكافرين، وجواب أبي مهاصر قد حكى مثله عن أبي مسعود رضى الله عنه.

لم تضحكون من أتاني وقد أقامت عليكم الحجة؟

وحدث الشيخ أبو نوح عن غير واحد أن أبا مهاصر كانت له أتان حج عليها سبع مرات، وعادته إذا خرج متوجها إلى الحج، سار حتى إذا وصل له كان يتعود الوكوع فيه، فيقف هناك يدعو الله، فتتهق الأتان هناك نهقة، فنهيقها يعرفه أهل قريته بانفصاله، ثم لا تتهق حتى يعود، فإذا عاد ووقف بذلك المصلى يصلى، فيدعو فتتهق أيضا، فيعرف أهل قريته أنه قد رجع فيضحك عوامهم وجهالهم، ويقولون أسمعون اتانه نهقت؟ فيقول: لهم أبو مهاصر: لم تضحكون بها وقد أقامت عليكم الحجة، وانقطع عذركم في استطاعة السبيل؟ وذكر أن أبا مهاصر خرج ذات مرة في بعض شؤونه فمر بغزاله ترضع طلالها فلما رأيته ذعرت، وفرت، وعزلت طلالها، فقال لها أنا أبو مهاصر، ارجعي إلى ولدك، فرجعت، وذكر أنه سمع نفقة ضفدعة فنزل إليها فوجد علقة متعلقة بعينها فنزعها وقال أدتك يا ضعيفة؟ فأومت برأسها: أي نعم.

أبو عثمان المزاتي

ومنهم أبو عثمان المزاتي الدكمي، رحمه الله. ذو الإيثار والسخاء وكرامات الأولياء، المفزع إليه لاستجابة الدعاء، المقصود في الشدة والرخاء، سلك في النسك والزهد أنهج المسالك وتحري جهده فيما يبعده عن المالك، وأما العلم فليس هو هنالك، وأبو عثمان هذا ممن سكن بجبل نفوسة، وليس الجبل قديماً له بدار لكنه نزل فاستقر خير استقرار، ووسعه ما وسعه في الإسار والإعسار، ولمصيره كأحدهم غلب على اسمه ما غلب على ذلك اللسان، فكان اسمه مشهوراً باللغة النفوسية فإذا ذكروه قالوا (بائمان).

بائمان يتعظ بالحيوان الذي يسعى ولا يدخر

فمن كرامته ما ذكر أن مجاعة وقعت بجبل نفوسة فكان عند بائمان غرفة موسوقة شعيراً، فخرج يوماً يستقي فلم يجد على البر أحداً يستعين به، فنظر فإذا ذئب ف قال له بائمان بلسان البربرية كلاماً ترجمته بالعربية، لم نجد اليوم على الماء سواك فهل فامسك لي فم السقا يا آفة الغنم، فانطق الله الذئب فأجابه باللسان أيضاً بما ترجمته أنا سارع في تحصيل معيشتي، إذا لست مثلك يا بائمان، تدخر الشعير الحولي، فذكر أن الذئب أقبل حتى أدخل رأسه بين علاقة السقاء، وأمسك بفمه فم السقاء، فملأ بائمان سقاه، وسار الذئب وانقلب بائمان إلى البلد، فآلهم أن ذلك تنبيه من الله عز وجل، وعناية به، فعمد إلى الغرفة فتصدق بجميع ما فيها.

بائمان يدعو الله فيستجيب له

وذكر أن الجبل أقحط سنة من السنين، ولبائمان بستان فجفت أغصانه وتساقطت أوراقه، فقال امرأة بائمان لابن له، وسر إلى أبيك فقل له يدعو الله أن يسقي بستاننا فقد هلك، وسار الصبي حتى قدم على أبيه فلما رآه قال أبعتك أمك لاستقي لكم البستان؟ من غير أن يعلمه الصبي بشيء، فقال له نعم، فدعا بائمان ربه فأرسل الله سبحانه فحامت على بستان الشيخ فسقته، حتى فاضت جسوره وسكوره، فاصبح مهتراً، مخضراً، لم تجاوز السحابة بسان الشيخ، فاجتاز به شخص كثير الإصابة بالعين، فنظر إلى اخضراره، فقال عجباً لهذا البستان كأنه في النيل ولم يلبث أن جف وذبلت أشجاره، فبلغ الشيخ ذلك فدعا على العائن بأن يميته الله فريداً بلا وصية، فيل فخرج من منزله فغدا إلى الحصادين فوجد في طريقة ميتاً، فريداً، وقد كتب وصيته فنسفتها الريح، وقيل بل دخل في سرب يحفر طفلاً، فانهدم عليه، ومات. وعلى كلا الخبرين قد علم ذلك من نفسه متقدماً فلم يغض طرفه، ولم يكف لسانه، وإلا فأي ذنب على من نظر مستحسناً خلق الله، أو تكلم متعجباً من صنع الله.

نساء يتمنين التقاني في خدمه الغير رجاء ما عند الله

وذكر الشيوخ أن ثلاث نسوة صالحات مجتهدات اجتمعن يوماً بجبل نفوسة، وتحدثن فأمضى بهن التحدث إلى الأماني حتى قالت أحداهن: أتمنى لو أن الله ساقني إلى قوم جهال فأعلمهم ما يحتاجون إليه، من أمور دينهم فيرحمني الله بما أعلمهم من فضل العلم والتعليم، وقالت الثانية أتمنى أن لو آوى إلي نفر من المسلمين في ليلة ذات مطر وبرد وقد بللهم المطر، وتمكن منهم البرد والجوع، فانهض فأعالج لهم ما يذهب عنهم المبرد والجوع، فيرحمني الله بهم، لفضل الصدقة وحرمة الصالحين. وقالت الثالثة أتمنى لو تزوجني رجل ذو غلظة وفضاضة فيحملني ما يعجز عنه مثلي، ويكلفني من خدمة فوق طاقتي، ويؤذني بأنواع من سوء العشرة، فاصبر على

ذلك واطيعه, فأنال بذلك خيرا فيرحمني الله لفضل حسن التبعل, والصبر على الأذى قيل, فقضى الله عز وجل أمنية كل واحدة منهم.

منزو بنت باثمان وأمنيتهما المتعبة

وكانت المتمنية البعل السوء العشرة, منزو بنت باثمان فأنكح باثمان بنته رجل من قومه مزاتيا, فلما تزوجها رجب على جمل له ومضى, حتى مر بنساء على ماء فقال أن كانت منزو فيكن فأنى لا آذن لها في المقام بعدى, وكانت فيهن فقامت فأخذت ردائها فارتدت وسارت في اثر بعلها حافيه, راجلة, فمشيت حتى وجيت*, فصارت إذا رفعت قدمت إذ الدم في موضع القدم, إلى أن ينزلا فإذا نزلا قامت وابتدرته بردائها فوسدته, فكان ذلك حاله, وحالها ويسئ وصلا وطنه, فنبى لها بيتا بنبذة عن الناس, فكن يسئ إليها, وتحسن ثم تزوج عليها امرأة فكان ما تلقاه ابنة الشيخ من سوء العشرة في زيادة, وكان الذي يبدو منها من الإحسان والصبر في زيادة, فلما كان ذات يوم إذا قافلة لأهل جادوا قد مرت بها, فتكلمت بكلام له وزن في غناء البربر, وترجمته (ألا أحد يزورني في الله فيذهب غم النفوس, ويزيل الوحشة؟) فوقع كلامها في مسامع بعض أهل القافلة فحدوا بها جمالهم, حتى وصلوا جادوا, وتذكروا كلامها, ففطن بذلك أبو زكرياء يحيى ابن يونس السدراتي, فعلم أنه كلام بينت الشيخ فمشوا في جماعة من المشائخ يندبهم إلى زيارتها, حتى تيسر له مراده من ذلك, فخرج إليها المشائخ, ومعهم باثمان, حتى وصلوا إليها فوجدوها منفصلة في قميص تصح خميتها, خارجا من الخيمة فقال لها أبو زكرياء أني لأختار أن أجد جنازتك خارجا ولا أراك على هذا الحال واستتابها, فتأبى مما كان منها, ومكثوا عندها ثلاثا فأرادوا الانصراف, فرغبت إليهم في إقامة ثلاثة أيام أخرى, ففعلوا فلما مضت ست ليال, وأرادوا الانفصال واجتمعوا لوداعها قالت لأبى زكرياء: انصب في هاهنا قدمك لا ذكر كم بها, وتذهب عني الوحشة, ففعل, فاكفأت عليها فدحا, فقالت له أزلت عني الوحشة وعلمتني العلم يا سدراتي, لا عطشت يوم المرورات, فقال لها, لا تقولي يوم المرورات بل قولي يوم الشدائد, لان المرورات المفاوز في الدنيا, - والشدائد - ما يكون في الآخرة, ثم قال باثمان يا بنتي سبق القضاء بان أنكحتك من لا احبه ولا تجيبينه, فعاملك بما أرى فلا تجزعي, ولكن اصبري فأنى أرجو الله أن لا تتصرم عشرة أيام إلا ويموت من يموت, ويفرج الله عليك, وينقطع عنك النصب, وهذا القول بكلام بربري موزون أيضا, قال فودعوها ومضوا, قيل: فلما كان العاشر من يوم وداعها أورد بعلها ابله على بئر لهم, فجعوا يمتحون ويسقون حتى انقطع الرشاء وسقط الدلو في البئر, فهم أحد عبيده بالنزول إلى الدلو, فابي إلا أن يكون هو الذي ينزل, وذلك سبق في علم الله, فنزل وشدها, ثم قال لهم: ارفعوني فرفعوني فرفعوه إلى أن حادي بحفير في البئر, فإذا حنش عظيم قد رصد له, فقال أيضا: أنزلوني فأنزلوه فيم يزال حاله: أنزلوني, ارفعوني حتى أيقن بالهلاك وقال لهم: (ارفعوني فلما قابل مكان الحنش أخذه وجذبه إلى غاره, فما سمعوا إلا تضعضع عظامه, وكفى الله المؤمنين القتال.

وقد ذكر الشيخ أبو نوح: أنه حين جلبها يسيران نهارهما, فإذا نزلا قامت من حينها فعالجت العشاء بنفسها وأصلحت جميع شؤونها, ثم قامت إلى التهجد فلا تزال راکعة ساجدة إلى طلوع الفجر فتصلى الصبح فكان هذا دأبها إلى أن وصلت منزل بعلها.

سوء تصرف العجائز

وذكر المشائخ أن باثمان صحب أبا مهاصر موسى بن جعفر, يريدان التوجه إلى الحج وأبو مهاصر يتوهم نه خرج معه مودعا له, حتى وصلا مصلى أبي مهاصر فوقفت به اتانه, فدعا الله, فقال له: أبق في حفظ الله يا باثمان فقال له باثمان: أو تقول ذلك يا موسى بن جعفر؟ أو ترى أنني أقيم بعدك؟ لعننا نرعى الإبل والغنم فقال أبو مهاصر فإذا عزمتم فتوكل على الله, فاصطحبا ومؤونه باثمان على أبي مهاصر, حتى قال له رجل ممن سار معها إلى الحج, أترك باثمان إلي لأقوم به, ففعلوا, ومضوا وباتمان يومنه الرجل المتكلف بمؤو نته. حتى وصلوا أرض الحجاز, فقالت عجوز للمكتلف بباتمان: دع هذا, فإلى متى تحمله؟ فأخذ بقولها, وخلي باثمان, فعاد إلى أبي مهاصر, كما كان أولا فبقيت في نفس باثمان مضاة من كلام العجوز, فتلكم بما معناه: وصلنا أرض الحجاز وموضع كرب النفوس, فذهبت المرأة وثبت الدين لمن كان عليها فياسيل إياك, أياك الرجال, ودونك العجائز – لا تدع منهن من يعبر. أو كما مقال, قيل فأرسل الله سيلا فهلك فيه ثلاثمائة عجوز, ولم يضر أحدا من الرجال, قيل, وقد حفظ من كلام عمر رضى الله عنه في العجائز ما ينبغي معه الحذر منهن, روي عنه أنه قال: لأن اجد في بيتي سبعين سارقا, أحب غلي من أن أجد فيها عجوزا واحدة, وإن كان هذا من غير هذا المعنى.

روى أن باثمان زارته ابنته " تكفا" فلما أرادت الرجوع صحبتها أبوها ليبلغها إلى منزل بعلها, وقد قيل أن ذلك إنما كان في وقت اهدائها لبعلها, فاصابها مطر وكانت على اتان, فقالت يا والدي أي أخاف على ثيابي البلل, وأنت تعلم حال العروس, واحتياجها إلى الثياب الجديدة, وما ينبغي لمثلها من النظافة والنقاء, فما الحيلة؟ قيل فدعا الله أن يحوطها ويسترها, ولم يبتل شئ من ثيابها, وابتل باثمان وأتانه وما ركبت عليه, قلت وما ذلك على الله بعزيز.

مهدى النفوسي

ومنهم مهدى النفوسي رحمة الله. قوم الجدل. ومدره النضال. المقدم في علم البرهان والاستدلال, المحتج على إمكان الممكن, واستحالة المحال, وعلى الفرق بين الحلال والحرام, ولنعم الدرع إذا دعيت نزال, الرادع لقيام أهل البدع والضلال قد مضى من ذكر ابنائه في وفوده على الامام, وما كان من ادحاضه حجج الملحجين, في ذلك المقام, ما هو مشهور في الأفاق, ومغن عن زيادة اعلام.

وذكر مشائخ أن مهديا هو أحد من صدر مكائد نفاث, وقمع أن يشيع في نواحيه تلك الأحداث حتى مضرب بعضهم الأمثال, فيما شوهده من تلك الأحوال, واستحسن أحوالهم وسارت مسير الشمس وإن كان في وضعها واضعها باللسان البربري ليتناقلها البربر, فكالمهم بصاعهم لم يطغف ولم يبخس ولم يعد من الألفاظ ما يفهمونه, ولا أعرب ولا أقرب بحيث يتوهمونه, ذكروا عن أبي مهاصر بن جعفر رحمه الله وكان شديد الغضب في اللهو أن كان في العلم ليس بمنتهاه, أنه ضرب مثلا في نفسه في نفاث, وقال تتبح جروه أبي مهاصر لنأكل الذئب الغنم, وقد كاد يأكلها حتى أتت سلائق " ويغو" فهرب الذئب وأمنت الغنم يعني الجروة نفسه لضعفه في العلم, ويعنى بالذئب نفاث بن نصر, ويعنى بالغنم نفوسة, ويعنى السلائق مهديا وعمروسا, وهما من منزل يقال له: ويغو, يأكل الذئب الغنم, واستحوذا نفاث على أهل الجبل, واستفزازه إياهم بان يدعوهم إلى ما أحدث من التبديل, واعتقد من الأضاليل وأرسل الله من بيانهما طيرا ترميه بحجارة من سجيل

أبو مسور يصنيتين

ومنهم أبو مسور يصنيتن النفوسى رحمة الله , أحد الشيوخ المجتهدين في أفعال البر, المخلصين في العلانية والسر, وأكل الدهر عليه وشرب, وعمرت معاني قلبه وأن كان بنيان جسمه قد خرب, أفنى العمائم الثلاث, وليس بغير محاسبة نفسه اكتراث, ولئن كان دون غيره في درجة العلم, فقد فاق في الورع, والحلم.

الشيخ عمر حتى صار غريبا في غير جيله

كان مما حفظ من أقواله: إذا وقعت الفتن امسكنا أيدينا, وأموالنا, فبسنتنا, وعيوننا, أترجلنا, ووكنا ارم قلوبنا إلى عز وجل وفوضنا امرنا إليه, قيل وكان هذا الشيخ قد عمر حتى بلغ الغاية في السن والهرم, وكان يقول عضت حتى لم أجد في الأيام ما أريده, ولا في نفسي, ولا في الإخوان, ولا في الأولاد, ولا في القبيلة, فأدعو الله أن يريحني مما انا فيه, وقال: الشيخ أبو نوح لم يقل هكذا, وإنما كان في زمان الإمام عبد الوهاب رحمه الله وعاض بعهد زمانا فلعله لما ضعف جسمه وقل ما بيده وقصر عما كان يبدي من الصلات وفقد ما أدرك في ريعان الشباب, من مرضي الحالات, لأمه أولئك الأقارب ووخزوه بسبات أسنه كأذئاب العقارب, وأنكروا ما عرفوا من معرفته وعرفانه لما عدموا مع أتعدم ما كانوا وجدوه حين الجدة من إحسانه وتغير الزمان بتقلب الأحداث, وكنتم ما أصابه احتسابا, واعتقد أن يدخر بكتامه ثوبا, فغايتة أن قال: لم أجد من نفسي ما أحب, ولما مسمع المشائخ هذا الاعتذار استحسنوه, وحفظوه عنه, وأنقوه, تحققوا صوابه, وابقوه, لأن الشيخ في غير جيله غريب, مخطئ ولو أنه مصيب, وكذلك أنا لما استحسنتها واستصوبتها أعطيتها حقها من الترتيب, وهذبتها.

ابنة الشيخ وأروها المصيبة

وذكر أن ابنتا له سألته عن مسألة من مسائل الحيض ووصفت له ارمات من ذلك, ثم قالت له أتراني أن اصلى بهذا أو لا؟ فقال لها: إلا تستحي منى يا ابنتي؟ فقالت أخشى أن استحييت في أمور ديني أن يمقتنى الله تعالى يوم القيامة, فاستيقظ الشيخ فقال لا يمقتك الله يوم القيامة يا ابنتي, قيل وكانت ابنته هذه عظيمة القدر في أهل زمانها, وممن يروى عنها الفوائد الكثيرة, فمما روي عنها مع ابنيها أيضا أنها جلست معه ذات يوم, حتى قال المسلمون افضل من أقوالهم, ينتقع به بعدهم, إلا أن كنت تريد فضل الأجسام على الأعراض, وإلا أفعالهم والدين افضل المخلوقات, قيل وجلسا يوما يتحدثان وقد غسلا ثيابهما ونشراها للشمس, فنظر الشيخ إلى صفاء الثياب فقال تمنيت أن الله عز وجل طهر قلبي كطهارة كهذه الثياب, فقالت: تمنيت أن يكون بيدي تطهير قلبي فاطهرة كهذه الثياب, وأرسله إلى مولاه, فقال لها: انك لأبلغ منى حتى في الأمانى.

أبو محمد عبدالله بن الخير

ومنهم أبو محمد عبدالله بن الخير رحمه الله, شيخ التقى والإخلاص, والمحترى مسالك الخلاص, المعمر في الطاعة, الذي لم يخل من العبادة يوما ولا ساعة, وكان عالما كبيرا, فاضلا أثيرا, كانت الأمثال تضرب به فمنها انهم كانوا يقولون: من ضيع كتابا كمن ضيع خمسة عشر عالما مثل عبدالله بن الخير.

الطهارة تغلب النجاسة مهما وجدت لها وجهها

ذكر أنه ذات مرة أصابه سعال فأمر أن يتداوى باصطباحه حليب ناقة، وكانت عند افلح بن العباس ناقة فكان يجيئه كال صباح بطلبها، فجاء يوما فرأى زيتا يسيل على ساق زيتونه، فقال ما هذا؟ فقال حضر غدائي فقدم ملثوثا بزيت في اناء مشغوب مرئب بالحديد، فأصابت يدي حديدة فرفعت يدي فإذا جم فاكفأت الإناء بما فيه على الزيتون، فقال له: أخطأت ولعل دمك لم يسيل إلا بعد أن رفعت يدك، لان العلماء يقولون إذا النجس يتوجه من تسعة وتسعين جهة، والطهارة من وجه واحد، غلبت الطهارة، فما جعل الله علينا في الدين من حرج، وكان إماما المسجد موضعه وكان ثقیل السمع فجعل يجهز في صلاة السر، حتى يسمع من خلفه قراءته وقال له يحيى بن يونس ما يسعنا في الصلاة خلفك وأنت لم تكلف إلا ما تسمع؟ فقال لم أكلف سماعك يا ابن يونس، وتمادى على ذلك فلما أسن وضعف صار يجلس جلوس قومنا، فقال له ما حال صلاتنا خلفك وأنت لم تكلف الاطاعتك؟ قلما سمع ذلك منه تأخر قلم يوم بعده رحمه الله.

أبو زكرياء يحيى بن يونس

ومنهم أبو زكرياء يحيى بن يونس رحمه الله، كان من أهل الورع والزهد، وممن اخذ نفسه بالمعهود والجهد ساعيا في الصلاح، داعيا إلى طرق الفلاح، هاديا إلى الرشاد، مغيرا للفساد، متحيزا للقطريات أين تصوب ليس لمناهل بره غورولا نضوب.

صلاة الشيخ وتبته ليلا

ذكر أن أبا زكرياء كان من عادته إذا صلى صلاة المغرب وصل بينهما وبين صلاة العشاء بالركوع والسجود حتى يصلى العشاء ثم ينفل ما اعتاد التتفل به، ثم يوتر ثم يحتاط لجميع الصلوات، فكان هذا دأبه رحمه الله. وقد ذكر مثل هذا عن أبي زكرياء بن أبي مسور اليراسني رحمه الله.

الشحيح محروم من خير الدنيا والآخرة

وذكر أن يحيى بن يونس زار عجوزا تدعى أم زكار، وكانت سالحة مجتهدة، فوجدها هالكة جوعا ليس فيها الارمقا، وذلك في سنة مجاعة وبؤس، فسمع من قولها: أشتهي لبنًا، قيل، فمضى أبو زكرياء إلى شيخ يقال له باكبث، فاستدعى منه لبنًا واعلمه بمحتاج أم زكار إليه وشهوتها فيه، وكان باكبث المذكور رجلا مكثرا، ممسكا، بخثلا، فقال: والله لا نبيض لها به مصرانا، وعنده إذ ذاك وضابان عظيمان مملوءان لبنًا. لا يمخضها إلا امتان تمسك كل أحده منهما بعروة من عرى الوضب لعظمهما، فلما ايس أبو زكرياء من خير باكبث رجع وعالج للعجوز حيسا وجهاءها به وقد وجدها قد اختلفت أسنانها من الجوع، وجعل يحتال في تحصيل الحساء في فيها بعود شيئا فشيئا حتى عادت نفسها وقوي رمقها، فقالت من هذا الذي أنقذ عظامي من الجوع؟ أنقذ الله عظامه من النار فاستوت جالسة ثم ابتدرت الانتقال لصلاتها وطاعة الله ربها، فأنت ترى ما نسب إلى أبي زكرياء في هذه الحكاية من الفضائل فإنها اشتملت على فصول من الصفات المحمودة. ذلك لتعلم أن الرجل ونظراءه إنما كان همهم أمر آخرتهم، لا يعوقهم عنه عائق ولا يبطئهم من الاغترار بزهرة الحياة الدنيا طارق.

وهم الذين تجوعوا افاق الغصص وغما, وتبدلوا بعد راحة الأنفس غما, وصاروا بعد صفو العيش إلى كدره, وكل ذلك بقضاء الله وقدره, فانهم أدركوا عصر الظهور وهو أحسن الأعصار, وبدلوا به وسلبوه ذلا في آخر الأعصار, وفيهم من قبض وشمس الإمامة عند الطفل, وبعضهم لم يل إلا وبدرها قد أفل, كانوا في ظل عدل الإمامة, فصاروا يغتبطون لساعة يجدون فيها السلامة, وع ذلك فلم يضرهم ما هم فيه, على الاجتهاد في سخط ما أسخط الرب, وبذل الاجتهاد فيما يرضيه, فمنهم الإمامان محمد ويوسف رضي الله عنهما وقد نبهت على أن مناقبهما جمة خطيرة, وقد تقدم ذلك, مع ذكر أسلافهما عند التاريخ والسير, وهاهنا ندبت تعيين إيراد ما في فضائل افلح ومحمد وعبد الوهاب, فإنها على انفرادهما في اصل الكتاب.

الإمامان محمد بن افلح وابنه

الأئمة الثلاثة يجمعون بين العلم والصلاح

ذكر أن محمدا رضي الله عنه لم يأل الإمامة إلا بعد أن ألف تأليفا مشتملا على أربعين جزءا في الاستطاعة, وأن أباه رضي الله عنه لم يلها حسب ما تقدم الا وقد جلس لثلاث حلق في ثلاثة أنواع من العلم, وقام في الإمامة تسعة وأربعين سنة, وما أعاد خطبة قط. وانه قد كان أراد السفر إلى " جوجو " فسأله أبوه رضي الله عنه عن مسائل الربا, فتوقف في مسألة واحدة لم يجب عنها ولم يعرفها, فأمره أبوه بالرجوع من السفر, فقال له أقم لئلا تدخل علينا الربا, فرجع, بعد أن تجهز وأبرز رحله, وهذا على ما هو عليه من التناهي في لعلم خشي أبوه أن يرتطم في الشبهات وفي ذلك كله ما يشعرك بفضيلة كل واحد منهم رضي الله عنهم.

عمروس بن فتح

ومنهم عمروس بن فتح رضي الله عنه, بحر لعلوم الزاخر, المبرز أول السباق وهو الآخر, الضابط الحافظ المحتاط المحافظ, ولم تشغله المجاهدة في الله عن دراسة العلوم, ول يلهه التبحر في العم عما تعين عليه من مصادفة تلك الهموم, فكابد وكابر, وصادر وصابر, لازم الدرس والاجتهاد, ثم رابط على الجهاد, يتلقى السيوف بالصدر والمنحر, يقيم هامته مقام المغفر حتى انتظم في سلك من (تحسبهم أمواتا وهم أحياء عند ربهم يرزقون) " لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون " فلحق بالنعيم المقيم, بعد أن خلف شيعه وأتباعه منتهجين الصراط المستقيم, وهو الذي لولاه لدثر معلم المذهب وانطمس, وعفر أثره واندرس, لتسمكه ببقية الحوائج العظام وتصحيحه ما قيد عن الخراساني أبي غانم*, وله مصنفات في الفروع والعقائد, تولت فوائدها الصدور والقلائد, ولم تزل الأمثال مضروبة به بعلومه وآدابه, وحبال نوى الآمال متعلقة بأهدابه, إذ كان علم الدين يقتدي به, وذكر أو الربيع سليمان بن عبد السلام عن أشياخه أن عمروسا كان أعلم أهل زمانه.

عزم على تأليف كتاب في الفقه يرد كل مسألة إلى أحد الأصول الثلاثة

بلغنا أنه هم أن يعلق تأليفا في الفقه لم يسبق في طريقته عزم أن يفرق العلم على ثلاثة أوجه: التنزيل. والسنة والرأي, وما يتعلق بكل واحد منها من المسائل ف يرتب كل باب من أبوابه ويبينه على القواعد الثلاثة, وصرف إلى ذلك وجه العناية والاكتراث, حتى يكون تأليفه طراز لما

صنف في علوم شرائع الإسلام, فلم يقدم الله بذلك بل قضى له باعجال الحمام, ونرجو به أن يكون له ثواب ما نواه, فجزاه على الكمال والإتمام.

وذكر عنه انه كان ذات يوم جالسا في مجلس الحكم أيام أن ولاه القضاء أو منصور الياش, إذ حضر مجلسه خصمان لطلب أحدهما الآخر في حق تعلق به عليه, فلما أدلى بحجته سكت المطلوب, فقال: للمطلوب اجبه فلم يجب, فكرر عليه ثلاثا, فلما رآه لا يجيب وتبين له لدده قام إليه فركضه برجله, فقال له جلساؤه عجلت يا عمروس فجمع عمروس أصابع يده ثم أطلقها, وقال لهم كم هذه؟ فقالوا خمس, قال: هذه منكم عجلة إذ أجبتكم قبل أن تعدوها ثم قال لالياش أن لم تأذن لي بقتل ثلاثة فخذ خاتمك قال مانع الحق, والطاعن في دين الله, والبدال على عورات المسلمين.

وذكروا أن جماعة قطاع أغاروا على رفقة فاستباحوها جميعا وخلوا سبيل أصحابها, ثم صحبوهم إلى جبل نفوسة فلما انتهوا جميعا على الجبل, وأبو منصور إذ ذلك وال. قال وعمروس قاض, فتشاجر أصحاب الرفقة, وينسبها إلى نفسه, فحار في أمرهم ورفعهم إلى عمروس فقال احكم بينهم, فعزل عمروس أهل الرفقة ناحية وجعل يسألهم واحدا واحدا, عن رحله, وجملته وعدده, وصفته وعلامة متاعه وقيد مقاله كل واحد منهم بشهادة, ثم استحضر القطاع, فسألهم كما سأل الأولين وقيد مقالة كل واحد منهم أيضا بشهادة, ثم أمر بجل وقيد مقاله كل واحد منهم أيضا بشهادة, ثم أمر بجل الحمولة واستخراج ما فيها, فوجدوا وفق ما قال أصحاب الرفقة, ووجدوا قول القطاع مختلفا مخالفا, متناقضا فقال عمروس لالياش هؤلاء أصحاب الرفقة, وأولئك اضيفك, فأنزلهم. يعنى بذلك عن حبسهم وتكليفهم فحكم بحموله الرفقة لأربابها, فردها عليهم.

وجلس معه ذات مرة داود بن ياجرين, وماطوس بن هارون رحمهم الله, فتحدثوا حتى جرى بينهم ذكر أهل الصدق, وأهل الكذب, وذكروا أهل شروس, فقال الشيخان أن أهل شروس لا يكذبون فظاهر عمروس إجازة شهادة كل شروسي فعاتباه على ذلك فقال لهما إنما حكمت بشهادتكما, إذ زكيتما جميع أهل شروس, فقالا: ما أردنا ذلك, فوقف علن الحكم بشهادة غير المعدلين, قلت وعمروس أجل من أن يتجاوز إلى هذا القدر أو ينسب إليه هذا التهاور, ولعل الشيخن لما قالوا في آله شروس ما قالاه ظهر له أن في ذلك القبول مجازفة, إذ برءا من الكذب جميع أهل شروس جملة من غير تعديل, وتأدب أن يواجهها بالمناقضة فسلك بهما طريقا يرجعان به إلى الصواب من غير تخطئه ولا توبيخ, وهذه إحدى فضائله, لا ينسب إليه غير هذا.

وذكروا أن أبا غانم بشر بن غانم الخراساني خرج من المشرق متوجها إلى المغرب ليقدر على الإمام عبد الوهاب رضي الله عنه, ومعه مدونته المشهورة التي رواها عن تلاميذه أبي عبيدة رحمة الله, وقيد سماعها عنهم, فاجتاز على جبل نفوسة فاستودع عمروس الكتاب المذكور, وتمادى لي تاهرت بعد أن استأذنه عمروس في انتساخ الكتاب المذكور فلم يأذن له, وعمروس حينئذ حدث فحسن عمروس الظن وحمله الحرص في العلم على انتساخه, فواضبه وعكف على النسخ وأتمه تملى عليه, وكان إذا جلس للنسخ في موضع لازمه حتى تدركه الشمس فينتقل على الظل والأصل في يدي أخته وعينه في الكتاب لا يتحول حرصا في إحياء العلم, فما رجع أبو غنم من تاهرت إلا وقد أكل عمروس انتساخ الكتاب, رأى في أحد أجزاءه نقطة حبر فقال استرقت هذه؟ قال نعم, سماني سارق علم, أخبارا كان ما كان من تلف ديوان تاهرت غصبا وحرقا,

ولولا تمسك عمروس بهذا الكتاب لم يبق لأهل المذهب بجهات المغرب ديوان يعتمد عليه وذلك بحسن نية عمروس وبركته ويمته.

اجتمع عمروس بالشيخ ابن محبوب في مكة

وذكروا أن عمروسا كتب وصيته في كتاب, ودفعها لأولاده وورثته, فقال لهم: هذا كتاب وصيتي فاعملوا بمضمونه, وأنا خصمكم بين يدي الله. وذلك - والله اعلم - عندما كان مرهقا إلى الخروج للقاء العدو يوم وقعة قصر " مانو " وفيها ستشهد حسب ما تقدم ذكره, فلم يعقب من ورثته الاخيراء, وانتقم الله من اعدائه الاغلبة ومزقوا كل ممزق قتلا, وغرقا, وكان مصرع البغي مرتع وخيرم.*

وذكروا أن عمروسا وأصحابه توجهوا إلى بلاد المشرق حجاجا فلما نزلوا مكة ودجدوا بها محمد بن محبوب رحمه الله , فدخلوا عليه في مجلس فوجدوه مع أصحابه فسلموا عليه, فهش بهم وقربهم اجلالا للجنس, دون معرفة الأشخاص. فلما تبوأوا مقاعد المذاكرة, سأل عمروس أبا عبدالله عن مسألة فقال: ابن محبوب أن كان أبو حفص في شيء من هذه البلاد فلا يصدر هذا السؤال إلا عنه ولا يرد إلا منه , فقالوا له: أنه هو السائل, فرفع ابن محبوب مجلس عمروس لما عرفه, وزاد دنوه من مجلسه, ثم جعل عمروس يسأل في مسائل الدماء عن مسألة بعد مسألة, حتى قال له ابن محبوب: هذا من مكنون العلم لا يلعن به في قوم جهال. فعند ذلك قال عمروس لأصحابه احفظوا السؤال واحفظ لكم الجواب, حتى نقدم على قال لهم عمروس: هل ما تكلفتم به, فقالوا له: لم نحفظ شيئا سوى قولك احفظوا المسائل لنرد بها على إخواننا. ثم أن عمروسا أعادها مسألة, فمسألة, عن آخرها.

أم عمروس توكله على وصيتها وهو صغير

وذكر أن أم عمروس حضرتها الوفاة وعمروس رضيع فأوصت بوصايا وأشهدت بها شهود الوصية, فقالوا لها إلى من تفوضين تنفيذ هذه الوصية؟ قالت إلى ذلك الذي في مهدي, فأشارت إلى عمروس, فكان خليفتها على الوصية قيل فلما كبر عمروس وبلغ الرجال شرع في وضع الوصايا مواضعها, وتنفيذها في وجهها حتى لم يبق منها شيء, قيل وأنه لما وجد في الوصية الحج توقف عنه, واشكل عليه الأمر وجعل يسأل في جهات نفوسة عن أحوال والدته فلم يجد من يعف حالها وتولاها غير امرأة واحدة, فتولاها لذلك وحج عنها, اخذ في ذل بقول من قال أن الحجة تقوم في ولاية الدين بشهادة النساء والعبيد إذا كانوا ممن يقبل قوله, وتقوم به الحجة ولم يستجز أن يحج عنها أخذا بقول من يقول بان من يحج عن غير متولي فانه غير مضي الفعل, ولا مشكور الحال, فهذا الذي أوجب توقفه لا أنه استصعب الحج, ولا استعظمه, وإلا فالأمر يسير.

ذكر الأشياخ أن أهل جبل نفوسة كانوا في ذلك الزمان أكثر الناس حجا فكانوا يحجون بنسائهم وذرائعهم حتى أنهم ولد له في ركب وأحد ثلاثمائة مولود ذكر, فما ظنك بعدد من لم يولد له أصلا ومن ليس معهم

الشيخ أبو معروف ويدران بن جواد

ومنهم أبو معروف ويدران* بن جواد رحمه الله. ناهلين بابي معروف ذي الآثار والمعروف, الموصوف بدراسة العلوم والمطروف, الراقي ذراها البواذخ, المتقن لما اخذ عن أبي خليل وغيره من المشائخ, المنتفع بما تعلم وعلم, المصيب متى رقم أو تكلم, وله في النوازل والاسئلة المعضلات أجوبة بديهة, كاشفة أشكال المشكلات, وكان متى قصده أمل فاز بالأمل لانه جمع ما بين العلم والعمل.

الغز في مسألة ارث

ذكر أبو الربيع إن أبا معروف دخل عليه رجل يسأله عن مسألة معضلة, فوجده مريضاً مرضه المتصل بوفاته رحمه الله, فسأله الرجل عن المسألة وهي: ثلاثة رجال ونسأؤهم ثلاث دخلوا بستتهم على مريض فقالوا له: أرص في مالك, فقال بما ذا أوصى؟ ومالي يصير بينكم بالميراث أسداسا لكل واحد منهم سدسه, فقال أبو معروف ذلك رجل ترك إماً وأختين لام وثلاثة بني عم له, وقد تزوج أحدهم ألام وتزوج الآخران الأخنتين.

يصون مال اليتيم بحيلة

وعنه رحمه الله أن صبياً يتيماً جاءه كالمستغيث فقال له: يا عمي رأيت سيف أبي في يدي دلال في السوق لبيعه, وإنما ناوله إياه بعل أختي وحقي في السيف باق فاستحضر أبو معروف الدلال فقال له: أشهر نصيب الابنة دون نصيب أخيها ففعل, فلم يجد من يسومه بقليل ولا كثير, فكان ذلك سبباً لصونه عل اليتيم.

وروى أن المعز أمير القيروان أهدى سيفاً المشائخ الجبل يريد تشتيت أمرهم, واختلافهم, لا التحافهم والطافهم فلما وردت عليهم هدية عدو الله, واختلفوا, فقال بعضهم ردوه, فهو أولى به لأن صاحب الرية أحق بالوقوع فيها وقال بعضهم: لا تفعلوا, فإن ذلك عون له على ما هو عليه من الباطل والجور, وقال: آخرون اكسروه وادفنوه. فهؤلاء كلهم رأيهم مقصور على التخرج والورع والخمود على الوقوف دون الشبهات لأن ذلك شأنهم وما رابوا عليه لا يزيغون عنه. قيل: وقال آخرون امسكوه, فإن عطايا الملوك جائزة لمن يأخذها ما لم يلامس أمورهم الفاسدة, فهو المشهور عند جمهور الأمة, قيل, وأصيب من أدلى بهذا الرأي في بصره لما جاءهم من الفتيا بما لم يعهدوا العمل به, فقال ابن ماطوس الحمد الله الذي جازاه في أن جعل له عقوبة ذلك في بدنه, وما يختص بدنياه, ولم يجعل له عقوبة في آخرته, قيل والمصاب ببصره هو أبو معروف.

أبو مصروف يفقد بصره

قيل ولما أصيب أبو معروف ببصره وجه كتاباً إلى الشيخ عبد الحميد الفزاني, وكان عالماً كبيراً من أهل الدعوة, وكان قاطناً ببلد السودان – يستمد منه دواء العين, فلما ورد عليه كتابه قال عجباً لهذا الشيخ أعطاه الله دواء لداء الذنوب هو يسأل ما يزيله عنه. فبلغ قوله أبا معروف فقال: أترى الفزاني يهزأ بي ويعدني صبياً يرضع إبهامه؟

فعبد الحميد إنما يعنى اجر المصيبة والسلامة مما يكتسب بالعين من الآثام, وأبو معروف يرى أنه حرم بفقد البصر أنواعاً من الخير الاعتبار, والتعجب بصنع الله عز وجل, ومطالعة كتب

العلم, والمشي إلى بيوت مجالس الذكر, وكلاهما ذهب مذهبا حسنا ورأى رأيا مصيبا. قلت إما كونهم اعتقدوا أن الذي أصابه عقوبة على فتياءه مع علمهم أنه لم يخرج عن أقول العلماء غير أنه مال إلى الأسهل وترك الاحوط فانهم عدلوا إلى ما قاله قبل المشائخ في أمثالهم, وحفظ من أقوالهم, حسنات الأبرار سيئات المقربين, فكونه تكم بالعلم حسنة بالنسبة إلى من لا يلتفت للعلم, وكونه ترك الاحوط سيئة بالنسبة إلى أحوال من اعتاد محاسبة نفسه. وإلا فحاشهم أن يعدوا كلام العلماء سيئة على الإطلاق.

وذكر غير واحد من أصحابنا أن أبا معروف كان تاجرا حينما من الدهر جالسا في دكان دأبه إيما وزن لاحد من الناس زاده من نفسه خروبة, وإذا أراد أن يأخذ لنفسه من أحد نقص خروبة, فلما حضرته الوفاة أوصى بعشرين دينارا احتياطا من تباعة الميزان. وذكر أن أم أبي معروف مرضت فدخل عليها لتوصي فاستفتت شهود الوصية في وصيتها, أي الوجوه أولى أن يصرف فيه أكثرها؟ فقالوا: كفارات الأيمان, قيل: فاضت بثلاثمائة كفارة, فانفذ أبو معروف جميعها.

يحسم النزاع والتهود بحسن تصرفه

وذكر أن رجلا رمى طائرا بحجر على غصن زيتونة, فتطاير بعض الحجر فأصاب رجلا فقتله, وذكر في زمان أبي معروف فترافع إليه أولياء القاتل والمقتول فأخذ أبو معروف القاتل إليه, فقال أوليائه يا شيخ أن صاحبنا لم يتعمد, إنما رمى الطائر, فقال لهم أبو معروف: امسكوا, واصبروا لئلا ادفعه بمرئ منكم ولا قدرة لكم على دره, قيل وكان أولياء المقتول يقولون ادفع ألينا

يا شيخ قاتل ولينا فانه قتل مظلوما, فيقول لهم: امسكوا واصبروا, وإلا دفعته إلى إخوانه ولا تقدرين على رده, ثم حكم بالدية, فكان الذي خاطب به كل فريق من الخصماء قطعا للشاجر والاختلاف, وكان توقفة لما علم في المسألة من الخلاف حتى حكم بينهم بما رآه أسد الأقوال, وتفرقوا على إيسر الأحوال.

يلوم شيخه لانه رآه على صورة غير لائقة

ومما يذكر من تواضعه وبرائه من الكبير, ومحافظته على السير, وأنصافه من نفسه ما حكى إن أبا مسور اليراسني في مدة فرائته على شيخة أبي معروف, تيممه يوما فوجده في بستان له يعمل فيه بيده, وهو محتزم سراويل ليس على بدنه غيره, فانه لما أخذ في لعمل خلع عنه ثيابه فحين عاين التلميذ شيخه على هذه الحالة لم يرضها له, فأخرجه الخطة* فجعل الشيخ يتوب ويستغفر معترفا بالخطأ اعترافا استوجب به الرجوع, ثم أن أبا مسور أراد لومه, فقال له: قد كان اللوم متوجها قبلي قبل التوبة وأما بعدها فقد ارتفع اللوم.

أبو منصور الياس

ومنهم أبو منصور الياس رحمه الله, الملايين المتخاشن الجامع أطراف المحاسن, جمع الأنفة والسيادة والتواضع والزهادة فهو لأولياء الله أطوع من النعل وأخضع وأحلى من العسل وانفع, وعلى أعدائه أشد من الجبل وامنع, وأمر من الموت وافضع, وفي منازل الشرف اسنى من النجم وأرفع, وفي بحر العلم والجود أفيض من اليم وأوسع, أن قام في الله فالرئبال حول الأشبال, وأن دافع فالحمام للحمام*, ولى فعذل, وقال ففصل, يرعى حقوق الله حفظا, ولا يرى في ذات الله لذى حظ حظا.

ثلاث مكارم لم يخل منها آل أبي منصور

وكانت له كرامة في أهل مذهبه فقد جعلها باقية في عقبه, ذكر المشائخ أنه لم ينقطع من بيت أبي منصور وذريته ثلاثة أشياء, ولم تتبدل منذ فارقوا النصرانية, ورجعوا في دين الإسلام إلى الوقت الذي وقع فيه ذكرهم بذلك, وهي: الصلاحية, وزريعة القمح, وتنازل الغنم الأولى بدعوة سابقة, والثانية والثالثة بالورع والتخرج وذلك كله بمساعدة وتوفيق من الله عز وجل.

وذكر أن رجل تاجرا مات بغتة في أيام ولاية الياس فلم تمكنه الوصية, وكان معروفا بوادئع الناس, قيل, فطلب الناس ودائعهم ورفعوا أمرهم إلى أبي منصور الياس, فسأل طريقا يتوصل به إلى معرفة ما يدعيه كل مودع منهم, فاشتدت عليهم طريق الشهادة, واستقبح إن يحكم بغير بينه,

واستقبح أن يمنع المدعين, فطلب بتلطف رحله وأرزمته فأحضروها, فكل من وجدته اسما على القضية بهذا الحكم لأنه أما تعذر عليه أقامه البينة, رجع إلى الحكم بالموجهين وفي أحدهما ضعف في المذهب, لكنه رجع إليه عند الضرورة وهما العادة والشهادة على الخط.

الأم أولى بالحضانة وأحق

ومما يذكر من اطراحه حقوق الأدميين, واسقاطه حظوظ ذوى الحظوظ رعا لحقوق الله تعالى, ما يذكر أن امرأة عم لأبي معروف رفعت أبا معروف إلى مجلس يتيمة فتخاصما, فقال: أبو معروف لأبي منصور: وإنما أضمت إلي ابنة عمي, إنها بعد كبيرة. فقال ه أبو منصور: لنن فعلت لا نكلن بك حتى تكون هزوة لفتيان أهل ويغوى, قلت وهذا على ظاهره ليس بالمرضي في جانب أبي معروف فانه أجل واورع من أن يسب إلى أن يعامله وإلى الإمام بمثل هذه المعاملة, وهذا عندي إذا صح فانه محتمل أما أن يكون وصيا على ابنة عمه, أو اتهم الكافلة بأنها لا تحسن تربية اليتيمة, ولا تحفظ عليها نفقتها, ولا هي أهل لحظانتها. فهو أولى بكفالتها بالقرابة والايلاء وأنه قد ثبت ذلك بالبينة فكان أبو منصور أراد تنزيه أبي معروف عن هذه القبيحة ورأى الستر على الحرائر اجمل. وأما أن يكون أبو معروف أراد بذلك أن ينكحها نفسه ورأها أبو منصور صغيرة مع يتمها, وفي نكاحها خلاف, ف أراد أبو معروف ارتكاب اضعف ما قيل وتحري أبو منصور الأخذ بالاحوط. فكلاهما قد مقصدا جميلا وقد تقدم من وصف أحواله السنية عند ذكر الدولة الرستمية, ما يدل على علو شأنه ومكانته في الفضائل ومكانه.

الشيخ يعقوب بن سهلون

ومنهم أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن سهلون السدارتي المعروف بالطرفي رحمة الله . العالم الفقيه, الفطن النبيه, اليقظان الذكي, الورع الذكي, ذو الجهادين الأكبر والأصغر, والاجتهاديين المصلى والدفتري, كان يلقب شيخ الرأي الناصح, وكانت قراءته على اللائمة بتا هرت قبل انطفاء تلك المصاب. هو الذي استشاره الشيخ عيسى بن يرزكشن في نزوله بتالا, وهي إذ ذاك عامرة, فقال تصلح للناس والعبادة, ولا يخلو من ذي حافر إلى اريغ, وإلى وارجلان, فنزلها وبلغ فيها مبلغا عظيما وذريته بعده.

وصية الشيخ لابنه

ولما حضرت الوفاة أبا يوسف قال له ابنه أوصني قال له: لا أراك تقبل الوصية يا ابن الرديئة فتردد في ذلك ثلاثة أيام فلما رأى جده قال له: لا يكن نديك الناس إلى الخير أو كد من نديك نفسك إليه, ولا يكن غيرك اسبق إلى الحرث منك, وكن للناس كالميزاب وكالسيل للادران وكالسماء للماء.

وقصد رجل من دمر في مجاعة يسأله ما يتبلغ به فقال له عرفني بارخص ما في السوق, فاعلمه برخص الجمال, وكانت بيده أربعة وعشرون ديناراً وديعة, فقال له: اشتر بها جمالا, فاشترى بها ثلاثة جمال وأمره أن يعزبها في أرض مزرعة مربية بين وارجلان واندرا موضع يقال له: "ايفدانن طوم" وزوده, ففي أيام قليلة صلحت أحوال الجمال, فوافق ذلك قدوم رب الوديعة فقال له سق أحد الجمال فسومه فبلغت قيمته أربعة وعشرين ديناراً, فباعه وفعها لصاحب الوديعة, وقال للدمري بع أحد الجمال واشتر بثمانه ما تحمل على الآخر إلى اهلك, وبادر اهلك, وسر في حفظ الله. قلت ومن شأن العزابة وأهل المذهب قديما إذا وضع عند أحد منهم وديعة أن يستأذن ربها في التصرف فيها في المصالح بغير تعد فيها, فإذا أذن تصرف. وفعل أبا يوسف من هذا النوع.

وذكر أنه كان في مدة قضائه كان يقضى بين الناس وهو يعمل أشغال دارة لا يلهيه شئ عن شئ, وذلك لذكائه وقلة كبره, وكان منتهى الفتيا بوارجلان, وله مصلى معروق بوارجلان لاستجابة الدعاء, هو بين تينمصيون, وتينماطوس بمقربة من بصر الأجر.

أبو محمد ملي

ومنهم أبو محمد ملي الايدرفي, رحمه الله. ممن يعزى إلى الورع والصلاح, لا ممن ضرب في المدارس بقдах, أو أديرت عليه من راح المذاكرة أقдах, إلا أن التقوى اظهر حاله, "واتقوا الله ويعلمكم الله"

يأبى أن يأكل طعاه لانه يحمل له شهادة

ذكر إن أبا محمد ملي كان يحفظ شهادة بحق رجل نفوسي, فلما أراد منه أن يؤديها عمل طعاما واستدعاه إليه, فلما وضع بين يديه ذكر له الشهادة واعلمه أنه يريد أداءها. فلما ذكره فيها وعلم أن الطعام إنما كان بسبب الشهادة المذكورة, قال له: "ارفع طعامك فان عندي لك شهادة", فقال له كل يا شيخ, فأبى عليه, فقال له كل واشهد أني تركت لغريمي مالي عليه من حق شهادتك فانصرف, فاحضر أبو محمد قمحا صالحا واستدعى الرجل المذكور, فقال له خذ هذا الطعام فاصرفه فيمن تراه محتاجا والقمح إنما احتاط به لما اتلف من الطعام بسببه, فحمل معه زيتا وكسى به الطعام, وقال للرجل كل أنت, وعيالك, ومن عندك,

نغير النعم من سوء تصرف الناس

وكان أبو محمد أحد المستجابين دعاءهم, الكثير اجتهادهم ورفعتهم في درج الكرامات, وسنائها. فمن ذلك ما ذكر أنه كانت له بقرة يحلبها ساكنة لا تتحرك, ولا تنفر, فلما كان ذات يوم قامت إليها لتحلبها على حسب العادة, فركضتها برجلها, فانكب القدح, وتبدد اللبن, فقامت المرأة فذكرت ذلك لبعلها, فقال ما هذا إلا لنازلة سوء شنيعة نزلت بالجبل, فأخذ عكازه وخرج مبادرا, فأتى جمع أهل الجبل, فوجدتهم محتقلين على رجل ينكل ويجلد فسألهم عن شأنه. فقالوا له: جاء في

كتاب من الوالي . فقال أيسواد في بياض تهرق الدماء يا نفوسة؟ أو قال يا معشر المسلمين, فقالوا لعمروس جاوبه, فقال إذا قيل الحق بطل الجواب, قال ثم سألوها فوجدوا الرجل المكتوب فيه غير هذا المظلوم, فلما علموا أنهم قد تعدوا وأنه برئ قوموا جنابيتهم عليه, وغرموها.

يتخرج من اخذ غلة أرض حرثها بدون رضى صاحبها

وذكروا أنه حرث ذات سنة أرضا فلما حصد الزرع ودرسه وصير الحب في التاليس إذا برجل قد وقف على الشيخ, ومعه ولده, فقال له الرجل: اللهم انك تعلم أنني لم أذن في حرث أرضي, ولا بعت ولا وهبت, وإنها لأرضي لم تخرج عن ملكي, فقال الشيخ لابنه افرغ الطعام لربه ففعل ومضى الشيخ وابنه راضيين بسلامة دينهما.

الشيخ سعد بت أبي يوسف

ومنهم سعد بن أبي يوسف رحمه الله, ذو الأخلاق الحميدة. والآراء السديدة, والاجتهاد في طلب العلوم لا يعتاقه*, عنها إلا ما ليس فيه بملوم, قرأ على الإمام أفلح وتخدم فاستقاد وأفلح, وحافظ على طريق إمامه, وتساوى حاله في زمن رحيله عنه ومقامه, وفي بواجب البيعة لما نكت الناكث, ولم تمل به عن الطاعة علائق الشهوات, وقد مضى في السيرة الرستمية من ذكر صفته واخلاقه, ما يدل على طيب شيمه وكرم أعراقه, ومن تمسكه بعصم الدين واسبابه, ما تعرف به سبقه في ضروب من الفضائل على كثير من إضرابه, وتقدم له من المناقب, ما هو أضوي من النجم الثاقب

الشيخ ياكرين وداود بن ياكرين

ومنهم الشيخ ياكرين وداود بن ياكرين رحمهما الله شيخان نسك وزهد, واجتهاد في العبادة وجد.

وقد ذكر انهما خرجا ذات سنة من السنين إلى البادية في فصل الربيع. فكانا متوافقين, فلما عزما على الافتراق أو قبل أن يفترقا قال ياكرين لداود, أوصني يا أخي, قال لا تستنج بيمينك, ولا تنزل أهلك إلا في موضع الدار والسترة, ولا تسكن أزواجك في بيت واحد وغيرها كثير أخفاهم الخمول, وحب الاختصار

الطبقة السابعة 300-350هـ

الشيخ أبو مسور يسجا

منهم أبو مسور يسجا بن يوجين اليراسني, رحمه الله الشريف المنصب الكريم المنسب, الطالب أرفع مطب, الكاسب انفع مكسب, الناهج أوضح طريق ومذهب, العاجز كنه أوصافه كل بليغ أوجر أو أظنб خدم الدين فخدمته الدنيا, ورفضها فنال منها الدرجة العليا, طلب العلوم فحوى عيونها, وورد مناهل الخير والصالح فاز معانيها, فكان مؤثلا للقاصد, ومنهلا للوارد والقاطع سبيل الفساد والهادى إلى طريق الرشاد, بيته في المذهب أكبر البيوتات, لم تزل مذ لم يزل مخصوصا بالبركات, ولم يزل قط منهم نقات مقتنية آثار الآباء نجباء الأعقاب وقد مضى من

مناقبه, وذكر كريم مذهبهم في أثناء الكتاب ما هو كاف, ولو اقتصر منه على أدنى باب, وسنذكر في هذا الفصل نبذا من أخباره التي هي علم في الفضل دالة على ما كان عليه من السيادة ولنبيل.

الشيخ أبو مسور يعرض عن شاتمية حسما للفتنة

فمن ذلك ما يذكر أنه حضر مجلسا حضره جمع وافر من أهل جربة, هبيتها ونكارتها, وكان فيمن حضر من النكار رجل يقال له: خلف بن أحمد وهو خال لأبي مسور فكان النكار يقعون في أبي مسور يقولون: رجل غريب ما عسى أن يكون له من القدر؟ في أنواع من قبح القوم, وضروب من المهز واللمز, بحيث يسمع وبحيث لا يسمع, فكان يتغافل عنهم وينزه سمعه من أن يصغي إليهم, وينزه لسانه عن مجاوبتهم فبلغ ذلك أهل المذهب في الأقطار فاستعظموا ذلك, قيل وكان حينئذ أهل الجزيرة إذا اختلفوا كان محفلهم واحدا, وهبيتهم ونكارهم فبينما هم ذات يوم مجتمعين وقد احتفل مجلسهم, إذا بكتاب قد ورد إلي أبي مسور من قبل رواغة البادية, ومن معهم من الوهيبية فقرأ الكتاب فإذا فيه قد سمعنا يا شيخ أن النكار يقعون فيك ويهمزون ويلمزون, ويتحركون في أمرك ويتحاولون أذاك فان صح ذلك فاخبرنا نلق عنا ثيابنا ونصرحك, وليس علينا غير الازر والسلاح رغبة في نصرتك, وقرعا لمن يرومك ويحاول ضيمك, فقال: لم اسمع بهذا أولا لي به علم. قيل ولم يفرغ من قراءة الكتاب المذكور إلا وكتاب آخر قد ورد من جهة دمر, فقرأه أيضا فوجد فيه: يا شيخ بلغنا أن النكار يتحركون ويسئون إليك ويلوكون أمرك, فان صح ذلك فاخبرنا نصرحك بعسكر يكون أوله عندك وآخره عندنا, فقال أبو مسور مالي بهذا علم, ولم يفرغ من قراءة الكتاب الثاني إلا وكتاب ثالث قد ورد من جهة جبل نفوسة, فيه مثل ما في الكتابين المتقدمين, إلا أنهم قالوا فان صح ذلك فاخبرنا نكسر أغماد السيوف ونصلك والسيوف مصلته في أيدينا, فقال لا علم لي بذلك ولم اسمع به, ولك ذكر في مجلس واحد كما ذكر, كأنهم تواعدوا, وكل ذلك لرغبتهم في نصرة الدين والذب عنه وكثرة الحزم والتحفظ عنه, وعن القبيلة قيل فكان خلف ابن أحمد بعد ذلك يقول: ابن اختي إمامنا أجمعين, لحمي ودمي, رئيس الكل, وجعل يكرر ذلك في مجالسه, وحيثما حضر, وكان عميد القوم وفقههم.

رأي العالم له جانب من الصواب

قيل اختلف أبو مسور والنكار في مسألة وخلف غائب حينئذ عن جريرة جربة, فلما قدم سألها عنها أصحابه وأعملوه بما قالوه فيها, وبما قاله أبو مسور فقال: أخطأتم وأصاب يسجا, فبلغ أبو مسور قوله لهم فقال لهذا أو أمثاله يقول العلماء: لا يعوج قول عالم ولو انه مخالف.

ما ينبغي أن يقرأ على المحتضر

وسئل أبو مسور عما يقرأ عند احتضار المريض فقال ما سألتني عنه احد منذ فارقت أبا معروف إلي اليوم ثم قال: قول الله تعالى: (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي ودخلي جنتي).

ومن حسن اخلاقه ودهائه ما ذكر أنه وضع طعاما بين يدي التلامذة بعد أن غسلوا أيديهم, وخرج لم يقل لهم كلوا, فامسكوا عن الأكل حتى دخل عليهم بعد وقت فوجد أيديهم مرسلة, فقال ما لكم لم تأكلوا؟ خشيتم أن أغرمكم, كلوا وان شئنا غرمناكم, ومات له ابن فجاءه الشيوخ يعزونه, فجلسوا يتذكرون ويوردون ما فيه تسلية, فقال لهم الشيخ: اخبروني ما الصبر الجميل؟ وكيف صفته؟ فقالوا له الجواب من عندك, فقال لهم: ما لهم يتغير وجهه ويسدم ويوجم, ثم قال وهذا صعب, فهل

ايسر منه؟ فقالوا وما هو؟ قال ما لم يصح ويدع بالويل والثبور، لأن البكاء قد يكون بالرأفة والرحمة في النفس.

الشيخ سحنون بن أيوب

ومنهم حسنون بن أيوب رحمه الله فقيه أوانه وعمدة مكانه، علقت عنه مسائل، وفتاوى في كثير من النوازل، ورويت عنه في العلوم روايات وكان يعد في أهل الداريات. وله آثار محفوظة غير منسية بل منتشرة في الجهات الطرابلسية، إلا أنني لم احفظ له سيرة، ولا وقفت في تعاليق له على مسألة من مسائله صغيرة ولا كبيرة، وليس ذلك بباحس حظه في الفضل، ولا قاعد به عن أولية السبق، وأوليه الحصول، فانه في الأئمة الثقات المثبتة أسماؤهم في صدور الطبقات، وقد أذنت بل رغبت لمن يقف على ذا الكتاب من الفضلاء، أن يثبت له فيما يحفظه عنه من طيب الأنباء فليقلق في حاشية الكتاب وهو إن شاء الله مأجور متأب*

أبو الخطاب وسيل

وكذلك أبو الخطاب وسيل بن ستتن الزواغي رحمه الله* معدود في هذه الطبقة، مذكور فيمن أفنى بدنه في العبادة، وماله في الصدقة موسوم بسمه الصلاح وتسميته، مرسوم في ديوان علماء وقته، لا بطيئاً في السباق، ولا قاصراً عند اللحاق، هذا فيما أدركتهم يتداولون ويتعاطون من أوصافه ويتناولون، وما يخرجني إلى الخطة إذ لم احفظ عنه رواية، فأطرز برد طبقة بما أمكن عنه من ذلك ولو حكاية، فيكفي نهلها عن العمل، ويكون لي جهد المقل.*

الشيخان أبو القاسم مخلد وأبو خزر يغلا

ومنهم الشيخان أبو القاسم، وأبو خزر، الوسيانيا رحمهما الله، لا يمكن فيهما مزيد على ما قدمناه في هذا التصنيف ولا يحتاج مع شهرتهما إلى زيادة تعريف، فانهما إماما أهل التوحيد، وفخر من نشأ بقسطنطينية وغيرها من بلاد الجريد، ولكل واحد منهما أخبار سارده وفضيحة فاطلب ذلك فيما مضى من الشيعة، وسنذكر هاهنا مسائل وقع بينهما فيها اختلاف وكل أصاب سهمه الغرض وما ضاف؛* فمن هذه المسائل ما نبها عليه وسنذكره، والخبر لا يسأم من يكرره.

لا تتسرع إلى الحكم إلى ما وجدت احتمالا

فمن ذلك رجل قال: لا اله فسكت، ولا حول ولا قوة، ما الحكم فيه؟ فقال: أبو خزر، أشرك، لانا إنما يلزمنا الحكم بالظاهر وقال: أبو القاسم بل في المسألة احتمال، لعله يعنى لا اله في الأوثان واضمر في نفسه تتميم الكلام، ولا نظن بالمسلم إلا خيرا، ولا نخرجه إلى الشرك بالاحتمال، وهذا كما قيل عن الإمام افلح رحمه الله: أن من دين الله أن أحدا إذا جاء بوجه يحتمل وجوها حمل على أحسنها.

الأم أولى الأبوين بالبر وأحق

واختلفا في الأبوين أيهما اعظم حقا قال أبو خزر الأب اعظم حقا، لانه المأخوذ بحقوق الولد، وقال أبو القاسم بل الأم اعظم حقا لأنها اعظم مؤونه، فقد قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما سأله عن ذلك سائل: فقال التي حملتك بين الجنين، وأرضعتك بالثديين، ووسدتك الفخذين، قلت وهذا إنما هو مجرد حكاية، ولا ينمغي لكل واحد منهما على مكانه في العلم وجلالة، لا

ينبغي ينكر ما قاله صاحبه أو يعتقده خلافاً, بل كل وجهة يصدقها ما يجرى من أحكام الميراث, وما قاله صلى الله عليه وسلم لما سأله سائل يا رسول الله من أحق الناس مني بالصحة؟ قال : أمك قال: ثم من؟ قال : أمك, قال: ثم من؟ قال أبوك, فالأول لأبى حزر, والثاني لأبى القاسم ترى أن أحدهما يجهل ما تمسك به صاحبه؟؟.

حكم من لم يجاهد نفسه ولم يحملها على الجد

وذكر أيضاً أن أبا حزر قال: من جاهد نفسه من أهل الدعوة فأما نال خيراً, وأما لم ينله, وأما من لم يجاهدها فلا ينال خيراً, فقال أبو القاسم في الأول أنه ينال خيراً على كل حال, والثاني محتمل, قلت: وهذا أيضاً غير بعيد من الأول ولكل واحد منهما تأويل يحمل عليه لفظه لا يمكن أن ينكره الآخر, ولا أن يعتقد خلافه.

أبو صلاح حنون بن يمران

ومنهم أبو صالح حنون بن يمران رحمه الله . ذو الورع والسخاء وبركات صالح الدعاء, وهو أحد الإبدال, وأصحاب الكرامات والأحول, واحد أقطاب الدين وثمان اليتامى والمساكين, إن لم يكن مقدما في العلوم فمقدم في المعارف, وإن لم يكشف أجسام الدواوين فهو لا رواحها مكاشف بل أن قيس بسواه في عمله ودرايته وجد سواه يقصر دون أدنى طلقه, فكيف بغايته, وقد مضت في هذا الكتاب جمل من أخباره ونكت من حميد آثاره.

حال الشيخ يوافق ما يقال عنه

وذكر أن ثلاثة من فقهاء جربة أحدهم أبو صالح بكر بن قاسم, والثاني أبو موسى عيسى بن السمح, والثالث أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور, توجهوا إلى جهة ريغ ووارجلان زائرين اخوانهم وأهل دعوتهم, قيل فوصلوا وارجلان ودخلوا على أبي صالح وصافحوه وتبركوا بمشاهدته, ثم تساءلوا فيما بينهم عن حل أبي صالح؟ فقال أحدهم لم رأيته توليته, وقال : الثاني لم عانقته توليته, وقال الثالث لم تكلم توليته, قلت وهذا مستح من وجه وستقبح من وجه فوجه الاستحسان حسن التوسم من مثلهم في مثله, ووجه الاستقباح إذا حمل على ظاهر ما رواه الراوي, كونهم إنما تولوه بعد هذه المشاهدة من رؤية وعناق واستماع كلام, أتراهم كانوا قبل ذلك وبعده أهلاً لتوليتهم, فإن حمل اللفظ على ظاهره لم يصدق عليه المعنى, لكنهم أرادوا – والله أعلم – أنهم لما شاهدوه مع ما كان متقدما عندهم من توليته شاهدوا منه مصداق ما تقدم عندهم, فانه تقدم على طريق السماع, والاستفاضة, فلما شاهدوه تحققوا ذلك عياناً, لا يحمل كلامهم على غير هذا.

وصية الشيخ أب صاح لبنيه

قيل وأوصى بينه بثلاث, وكل واحدة منهن تشتمل على ثلاث, فتلك تسع, قال: يابى إذا كان إبان غلتكم فولوها بأنفسكم, ولا تولوها غيركم, حتى توصلوها موضع حرزكم, فإن لم تكونوا أصحاب غله ولم يكن لكم بد من شرائها فاشتروها ما دامت في أصولها, ولا تتركوها حتى تصل الحرز فيصعب إخراجها, فإن لم تكونوا أصحاب غلة ولا فادرين على الشراء وتزلتم إلى طلبها فاطلبوها قبل دخولها إلى الحرز, يسهل وإعطائها, والثانية أن كنتم في بلد فأول ما تلتمسون أنفسكم وأموالكم المسكن. فأن من سكن في غير مسكنه فإما أن يكون غنياً, وأما أن يكون فقيراً,

فان كان غنيا ووسع على نفسه سماه الناس مبذرا , وان ضيق سموه مقترا ممسكا , وأن كان في مسكنه يستتر على غناؤه وفقره ولا يعرف الناس فيه عيبا , والثالثة إذا اقبل الشتاء فحصلوا كسوة شتوتكم , فإن من بات مبيت سوء ليلة واحدة لا يخلفها أبدا والذي تخلفونه من مجرد ثيابكم وخلقها فيه بقية ومنفعة , فان أعين الناس وألسنتهم متسلطة على من معهم , يتحسسون للكبيرة والصغيرة , وهذه الوصية ليس فيها من أمور الدين شئ إلا النهي عن أضاعه الحال والمال , وفي ذلك مصالح كثيرة , ومنافع جمة .

منابت النخل أعنى من مزارع القمح

وذكر أن ابن عم له كتب إليه كتابا من المغرب : يا ابن عمي ايتنى فانك قمت في ارض الفقر , فإن عندنا أرضا كريمة , قدر الكساء يحمل البعير وسقه حبا فأجابه أبو صالح : يا ابن عمي أبيتنى , فإن عندنا أرضا قعدة الرجل يحمل البعير وسقه عسلا , وفي هذه الحكاية حسن الجواب المسكت , وفيها ما يدل على القناعة وعلى الرصانة وعدم الطيش .

للرجل الفقير أن يأخذ زكاة زوجته لا العكس

وذكر أن رجسلا من أهل قصر بكر , أد فصور وارجلان كان رجلا مقلا , وله امرأة كثيرة المال فسأل أبا صالح , هل يجوز أن يأخذ زكاة امرأته ؟ فتوقف عن الجواب تحرجا إلى أن قدر الله بوصول أبي نوح سعيد بن زنجيل إلى وارجلان , حين فراره من أبي تميم الشيعي , فسئل عن المسألة فأباح ذلك , وأعلمهم أن للرجل أن يأخذ زكاة مال امرأته , وليس للمرأة أن تأخذ زكاة بعلها , وهذه المسألة مشهورة ليس في هذه الحكاية ما يدل على قله علم أبي صالح , بل يدل على ورعة وتزهره .

وذكر أن بنا له , اشترى كتابا , فكان يقرأه على أبيه , فكان أبو صالح يخاطب الكتاب ويقول : باعك من يعرفك واشتراك من لا يعرفك , وهذه الحكاية تدل على أن هذا الكتاب كتاب عجيب , وان الولد ولد غير نجيب , وكن خاطب ابنه بما يفهم من هذا الوجه ولم يقبله بقبح الزجر .

تضربه المرأة فيصبر لذلك احتسابا

ومما يذكر من سعة صدره , وفله ضجره , وكثرة صبره , أنه جلس ذات مرة مع امرأته وهي تعجن عجينا , فخاطبها بكلام لم يقع منها موقع الموافقة , فلطمته حتى ارتسمت آثار أصابعها في خد أبي صالح , فتكدر خاطره , فلم يمكنه الشكوى إلى أحد , ولم يكن له بد الشكوى إلى شيخ أبي يوسف يعقوب الطوفي , فجاءه شاكيا فلما بثه حاله , قال الشيخ أترى هذه ؟ وأشار إلى زوجته ؟ فقال ما لها ؟ قال : ضربتني البارحة بمقلى فصيرته طوقا في عنقي فقال أبو صالح أنت , أنت , يريد أنت أصبر مني ثم والله لا أشكوها بعد اليوم .

الشيخ أبو محمد جمال المدوني

ومنهم أبو محمد المدوني رحمه الله فقيه الأسلاف المتلافي في سيرهم حين التلافي , الشامل ما أشرف على الشتات المؤلف للجمع بعد ما صدر الأشتات , تدارك المريض فأقامه , وقد أراد أن ينقض فرده إلى أحسن حاله , وعالجه بحسن رأيه وإيالته فالممسك فيه به اقتدى , وهو من السابق في العلم الورع والندى وله في معاملاته أمور سنية , وأحوال مرضية .

يختلفان لاجل كتاب فيفصل بينهما الشيخ براى مصيب

ذكر أبو الربيع أن رجلا من مزاة قارض رجلا بمال فكان يتجر به , فبينما هو ذات يم في بعض شؤونه , إذا بكتاب تفسير القرآن لهود بن محكم الهواري يعرض للبيع , فاشتراه وجاء به إلى رب المال , فقال له أني اشتريت هذا الكتاب وهو لي دونك , وإنما لك رأس المال , فقال له رب المال: بل هو لي دونكم وأنما لك نصيبك من الربح , أن كان في متجرك ربح , فتخاصما وتشاتما حتى قامت مع كل واحد عشيرته متعصبة , وتأمروا على القتال , وتواقف الفريقان وقد اشرفوا على أن يتفانوا , فبلغ ذلك أبا محمد جمالا , فجاء مبادرا وقال: ايتوني بالكتاب الذي أراكم تريدون أن تقتتلوا عليه , فأتوه به ففتح وقصد موضعا منه , فإذا بين النصفين ورقتان بيضاوان , ففصل ما بين النصفين , وضم إلى كل نصف ورقة بيضاء وقطعة بسكين واعطى لكل واحد من الخصمين نصفًا , وقال من شاء منكم الآن إكمال الكتاب فلينسخ النصف الذي فاتته فاصطالح الفريقان وافترقا على خير , وزعم بعض الناس إن منتسخ الكتاب تفرس أو كشف أن أمره يؤول إلى تفرق بالحديد , فاحتاط عليه وترك ورقتين غير مكتوبتين , وهذا الذي زعموا لا حاجة بنا إليه , وإنما المقصود ما ذكرناه من بركة هذا الشيخ , وحسن سياسته.

يشح على نفسه وعياله فيطعمه الشيخ قسرا

وذكر أن أبا محمد جمالا كان جواره رجل من أهل البادية في سنة مجاعة , وللرجل صرمة , وقد أضربه الجوع , وشحه المطاع مانعه أن يحر منها ناقة , فيطفي سغب نفسه وعياله فبلغ ذلك أبا محمد فجاءه فوجده في خيمة لا حركة له من ألم الجوع , فقام أبو محمد احتسابا في الرجل وفي يده حربة , فدخل في ابلة فعمد إلى ناقة كوماء لم ير في ابل الرجل احسن منها , ولا اسمن منها , يريد أن ينحرها , فرآه صاحب الإبل , فقال: لعل غيرها يا أبا محمد؟ فأبي إلا تلك التي قصد إليها , فنحرها بحرته , فلما نحرها قال لهم: قوموا , وكلوا , فلما أصبح أغارت عليهم غارة , فاكتمسب أبل الرجل , فلولوا أن الله عز وجل لطف بهم ببركة الشيخ لماتوا جوعا . قيل تبلغوا بشحم الناقة ولحمها , وسدوا فاقنتهم تلك السنة الشديدة.

على العالم أن ينظر للجاهل ما يصلح به

وذكر أن عاملا خرج على عشيرة أبي محمد من قبل السلطان فكان هذا العامل يماكسهم , ويشدد عليهم فلما كان يوما من الأيام قال لهم العامل: أن أعطيتموني اليوم كذا وكذا مضيت عنكم , وإن بت الليلة ضاعفت ولم يعبأوا بقوله , فكان يضاعف عليهم فلما رأى أبو محمد العامل يضاعف عليهم الغرامة كل ليلة , ورأى قومه غير مكترئين به حماقة , وخرقا لا قدرة وعزا , قال للعامل وخدامه: قفوا على ترع الأحياء ولا تتركوا مالهم يسرح , فلما رأى أصحاب الأموال ماشيتهم يأكل بعضها بعضا جوعا , أدوا إلى العام ما لزمهم , وانصرف فجعل جهالهم يطعنون في الشيخ , ويعيبون فعله , حتى قال قائلهم: ما هذا إلا معونة الظلمة الفجار على الضعفاء والمساكين , فقال لهم أبو محمد: لله على العالم أن ينظر للجاهل ويدله على ما فيه سلامة دينه وديناه.

يقنت في الصلاة وهو لا يرى ذلك موافقة للجماعة

وعنه أنه كان يصلى بجماعة أكثرهم أهل الخلاف ممن يرى القنوت في الصباح , فكان أبو محمد يقنت بأي القرآن التي فيها الدعاء الذي في آخر سورة البقرة , وكالآية من آل عمران , " ربنا لا تزغ قلوبنا " الآية , وما أشبه ذلك . لعلمه أن ذلك لا يفسد الصلاة على مذهب الامتناع من

القنوت فكانوا يشكرونه ويثنون عليه وقيل: بل الذي فعل ذلك فتوح بن أبي حاجب المزاتي, وهو أيضا من طبقة أبي محمد في العصر والتحصيل للعلوم. وعن فتح رحمه الله أنه سمع رجلا يطعن في دين الوهيبية من المخالفين فغضب, وأخرجه ذلك واحنقه حتى قال ما ههنا أحد من أولاد المشومات؟ فسمعه جماعة من شبان مزاته وفتاكهم, ممن يغضب لغضبه, فعلموا أنه عرض بفعله تفعل بالرجل وأنه رأى أن مه مباحا, فلما كان الليل نام الرجل في أعلى داره فتسوروا إليه وخنقوه حتى مات وذلك في بعض قوى بعض الزاب, فلما مات رموا به في الزقاق فلما أصبح وجده الناس لا روح فيه, ففتشوا ليجدوا فيه اثر جرح أو ضربه فلم يجدوه, فقالوا: والله ما قتله إلا الملائكة قيل ثم أن الفاعلين لذلك مروا بالشيخ بعد عام فوجدوه يدرس زرعاً, فقالوا يا شيخ هل هنا أحد من أولاد المشومات أم لا؟ يذكرونه فعلتهم فأنتى عليهم وشكر فعلتهم.

حكم طهارة ما صنع من نبات الأرض بالزمن

وذكروا أن جماعة من المشائخ توجهوا نحو طرابلس فراكبوا البحر, ونزلوا بجزيرة جربة, وحضروا بها مجلساً, قد حضرته فقهاء أهل جربة, ومشيوخه كأبي مسور وأمثاله, فتذاكروا في الطهارة حتى وردت بينهم مسألة فوق وقع فيها الاختلاف بينهم, وهي: ما كان من نبات الأرض من الثياب كلها حكمها في ذلك إذا نجست حكم واحد, لا يطهرها تداوم الشمس والرياح عليها, إذا أبرزت المدة الطويلة, ما لم تبق عين النجاسة, قائمة, قيل فنهبه بعض اصحابه واعمله بما كان من اتفاق الجميع وإن آفاقهم هو الصواب, فأقام أبو محمد الحجج على صحة مذهبه وقوله, ولم يرجع عنه فقال لهم أبو مسور كفورا عنه قان العالم كالاجدل* إذا حلق ضرب.

ما نقل عن الشيخ وقيل عنه وهو في طريقه إلى الحج

وذكر أنه توجه إلى المشرق فصاحبه الشيخ مطكداسن, وعبد الله بن الأمير ومع أبي محمد جمال حينئذ أثنى عشر جملاً فأراد عند الركوب أن يحملها فاستدعى مطكداسن ليعينه, فقال: ليس ذلك من شأني قال وما شأنك إذا؟ قال الدواة والقلم حسبك باني كتبت أحد عشر كتاباً في عشرة أيام فاستحسن ما أجابه به ولم يكلفه شططا, وساروا حتى نزلوا مدين فرأى رجلاً يطفف الكيل فلطمه, فقال "أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين" فرفع إليه رأسه وقال, فينا والله نزلت يا مغربي, وإنما خاطبهم أبو محمد بالآية لانهم المخاطبون بهاء ولما قضوا مناسكهم ورجعوا إلى بلادهم كان فيمن جاء لتهنئتهم عبد الله بن مانوج, فقال لابن الأمير لما رآه سالماً في ماله ونفسه لعلك يا أبا محمد ما أصبت في سفر هذا بشيء؟ فقال قد سلمني الله وعفاني من ذلك, فقال له ابن مانوج: قد كنت أود لو احتسبت بشيء تصاب به فاصبح أحد عشر جملاً من جماله جيلاً. وإنما قصد ابن مانوج في ذلك وجوها منها قوله صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيراً يصب منه" ومنها خشية العين, ولم يكن ابن مانوج ممن يتمنى العطب لأخيه في الله تعالى, بل أراد ما يوفر به الأجر.

سليمان بن زرقون وابن ماطوس

ومنهم سليمان بن زرقون وابن ماطوس رجمهما الله, كانا بدرى الفراق وكلاهما مطلب للناشد ومعلم للراشد, أن تباعدت بقاعهما فقد جمعهما أصل واحد, وعصر واحد ولكل منهما تأليف فقي علوم الدين كم هدى الله بهما من المهتدين, ونفى بهما من فساد المفسدين, وقد تقدمت لأبي زرقون

في هذا الكتاب أخبار وسير, فيها مقتع لمن عليها اقتصر, وسنذكرها هنا من أخبار كل منهما ما أمكن, فكلاهما مستملح مستحسن.

التعبد بدون علم يوقع في الخطا

ذكر أن سليمان بن زرقون رحمه الله كان مسافرا ومعه رجلان من أصحابه, ممن ينتمى إلى العلم والصلاح وحضر وقت صلاة من الصلوات, فاجتازوا على غدير ماء, ذلك في فصل يجمد فيه لماء من شدة البرد, فلما وقف عليه أبو الربيع توقف وغلب على ظنه أنه وجب عليه العدول إلى التيمم, ولا يعتمد بإلقاء نفسه إلى التهلكة ونزل أحد صاحبيه إلى الغدير فعسل يديه, واقتصر على الزيادة على غسل اليدين, لما وجد من ألم برد الماء, ونزل الثالث وغسل في محزر فشج عصبه, ووقع ملقى فنزلا إليه فلفاه في ثيابه وحمله وقالوا له: ألا تهون على نفسك التيمم لصلاة واحدة؟ فتيمم الآن لصلوات فأبي الاثنين الأفقه عندك؟ واني لاراه أبا الربيع وأما صاحبهما فتعبد بلا علم.

الفاهم لعلة الحكم هو الفقيه لا المتمسك بالفاظه

وذر أن أبا صالح اليراسني وأبا موسى ومن معهما من التلامذة, ساروا إلى أبي الربيع سليمان بن ماطوس, ليقرأوا عليه فاقاموا يقرأون عليه ما شاء الله, ثم انتقلوا إلى موضع بافريقية يقال له "سلام ليك" فاقاموا به يدرسون الكتب زمانا, ثم انهم رجعوا إلى ابن ماطوس ليعرضوا عليه ما قرأوا في تلك المدة فلقوا بكر بن أبي بكر بنفزاوة, وصحبهم فساورا إلى وقت صلاة الظهر, ومعهم رجل فقال لهم ما الذي أصى أقصرا أم تماما؟ فقالوا كلهم صل صلاة المقيم, حتى تجاوز ستة أميال, إلا بكر بن أبي بكر فقال له صل صلاة المسافر إذا نويت خروج ستة أميال, ثم مروا بامرأة تغسل صوفا نزع من شاة ميتة فقالوا لها, لا يطهر صوف الميتة حتى يترب في سبعة أمكنة بسبع أتربة, وسبع قضبان, ثم يغسل بعد هذا فقال لها بكر اغسلي صوفك كما تغسلين غيره من الصوف, ولا يلزمك مما قالوا شيء وقالوا في رجل تيمم ويده منجوسة أن اليد تطهر وأن التراب ينجس فقال بكر أن اليد تطهر وأن التراب لا ينجس, فقالوا له فأين ذهبت نجاسة اليد؟ قال ذهبت بين الضربات, فساورا حتى وصلوا ابن ماطوس فاعلموه بالمسائل الثلاث, وبجواب بكر, فقال لهم: الفرستائي عالم, ثم أخذوا في تصحيح ما قرأوه ونظروه على ابن ماطوس فصحوه في ستة أشهر, ورجعوا إلى أهاليهم, وهذا بمناقب بكر بن أبي بكر أشبه, وأولى وذكره ابن ماطوس قال لبعض من يرد عليه من بعض نواحي بلادهم. بلغنا عن رجال منكم أنهم يأخذون الصدقات ويردون منها على من أخذوها منه, فأزجرهم فانه مما لا يرضى الله تعالى.

الشيخ أبو سهل الفارسي

ومنهم أبو سهل الفارسي رحمه الله, غلبت عليه هذه العزوة الفارسية وليس بفارسي, وإنما هو نفوسي ولا شك أن أمة رستمية من بيت الإمامة, فغلب نسبها عليه واشتهر به, وقيل هو رستمي, أبا وأما, وأن أباه ولد لميرون بن عبد الوهاب رحمة الله, تمسك من العلوم بسبب, فليس برأس فيها ولا بذنب, إلا أن الغالب من أحواله, همل الدموع, والتلف على فائت ليس له رجوع, فجعل هجيراه مرثي الدين وأهله, والبكاء عليه بوابل الدمع وطله, حتى دونت الدواوين من كلامه, وانتشر في الأفاق حسن نظامه, وقد اعجز المرثي بما أوعظ, فلها بذلك في النفوس احسن موقع

ووافر حظ , وجميع ما حفظ من ذلك فإنما هو بلسان البربر , أكثره بالصواب حدا , فقف على دواوينه يكن عليه مترجما , ولا ترمها إذا لم تجد لها مترجما .

الديوان الذي نظمه بالبربريه وهو في جزائر بني مزعنه

وعن أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر ، رجلا من العرب من موالى لواتة قنطنار ، يسمى سعيدا ، واطلع إلى البادية فأنتهى إلى موضع أبي سهل ، بمرسى الخزر ، وقيل بمرسى الدجاج ، وهو الصحيح ، وهو بجزائر بني مزغان ، قال فأكرمه وسأله عن أهل الدعوة ، فقال له أي فن يسرهم أن أدونه لهم ؟ قال انتظم لهم بلغة البربر كلاما يكون فيه وعظ وتذكير وتخويف ، وكان أبو سهل فصيحاً بلغة البربر ، ولقد كان ترجمان جده الإمام افلح ، وقيل بل ترجمان خاله يوسف الإمام ، قال فقيد له أثنى عشر كتابا في المواعظ ، وفيها جمل من تواريخ أهل الدعوة فاختلس النكارى شطرها ، وبقي له ستة أجزاء فكان إذا أراد فرائدها ادخل رأسه في ثيابه وقرأها على الناس حذرا عليها ، فلما كان ذات يوم قرأ منها ألفاظا دلت على أنه أتخف بها أهل الدعوة ، فأمر الشيوخ خلوف بن وحنين أن يخاصم ويطالب سعيدا محتسبا في حق أهل الدعوة ، حتى يسترج لهم منه هديتهم ، ففعل فكتب منها العزابة ، ما كتبوا فلما أخذت قلعة بني درجين وأحرقت احرق ما وجد من هذا الكتاب ، وحينئذ تلافى ابو عبدالله ما تحصل في صدور العزابة فقيد منها أربعة وعشرين بابا ، فلذلك قد تجد فيها قلة الاتزان والزيادة والنقصان ، وذكر أن قبر أبي سهل بالموضع المذكور ويزار حتى أن صنهاجة كانت حينئذ تزوره ، وربما قال قائلهم : انطلقوا بنا إلى قبر النادب ذنبه ودينه ، وهذا مما يصح أنه بجزائر بني مزغان ، لأنها بلاد صنهاجة .

الطبقة الثامنة 350-400هـ

ابو نوح سعيد بن زنگيل

ومنهم أبو نوح سعيد بن زنگيل ، رحمه الله ، لا مزيد له على ما تقدم في الكتاب من المناقب ، فلكل منها في دجى العلم شهاب ثاقب ، هو في الأوصاف الحميدة نهاية فاطلبها في موضعها ففيه كفاية .

أبو صالح بكر بن قاسم

ومنهم أبو صالح بكر بن قاسم اليراسنى ، رحمه الله أنجب من طالع ودرس ، وأحد من أحيى ما كان عفى ودرس ، جبلته طلب الصلاحية والعلم ، وسمته الاعتصام بالوقار والحلم نوره يلتاح صامتا أو متكلم ، وبركته ظاهرة متعلما أو معلما فبهتمته انتشرت الخيرات ، وتلاميذه المفيضون للبركات ، وكان أحد من يوصف بالاجتهاد والتصميم ، لا فرق في الحق عنده بين العدو والحميم .

ذكر أن أبا صالح نكل برجل من تلامذة أبي مسور ، فاقبل الرجل مستغيثا بابي مسور ، شاكا إليه ما لقي من أبي صالح ، فقال له : إلا ترى ما بي ؟ فقال له أبو مسور وطن نفسك على ما تلقى من أبي صالح وأمثاله ، فإن المسلم في الحق كالحديدة المحماة ما أوقع عليها أحرقتها ، وما وقعت عليه أحرقتها والحق أحق أن يتبع ، وإن كان مرا قيل : ثم تعين على الرجل المذكور حق من الحقوق مرة ثانية فعيد به إلى أبي صالح ، فنكل به مرة ثانية فجاء إلى أبي زكرياء شاكيا إليه ، كما شكى إلى أبيه ، وكان من قوله : إلا ترى ما فعل في وضربني مبينا* فانتهره أبو زكرياء وتهجم في وجهه ، وقال له : لا واخذ الله الشيخ فيما ترك قبلك من الحق ، فإن أباك جاعني شاكيا بك ، وذكر أنك تتنف لحيته ، وما ذلك بقليل .

شده الشيخ على الجناة

قيل وكان ابو صالح في أول أمره بالبادية, في موضع يقال له "ازارق" وهو إذ ذاك شديد على العصاة حديد على العتاة, ومع ذلك كان لا يضرب السراق من صنهاجة متى عثر عليهم تقية, ولا مداهنة, وكان متى وقع عليه جان بين يديه, وثبت عليه حق, أخذ خشبة عظيمة قد اسردت فيها حلق, وسلاسل فجعل رجل الجاني في حلقة من تلك الحق, ثم يقلب الخشبة على رجليه لنلأ يهرب, قيل فكانوا بالليل يصيحون صياح التيوس, من شدة الحر والبرد, مع ما هو فيه. قيل فلما اشتد الحال في البادية وكثرت الزلازل, واضطربت نيران الفتن, انتقل إلى جربة فعمد إلى تلك الخشبة وما معها فرماها في بئر, فتكلم في ذلك بعض العزابة, وقال, ما دعاه إلى رميها في البئر؟ فقال لهم ولده أبو محمد إنما اتخذ ذلك ليصرفه في الوجه الذي أراده له, وإذ تخلص عن ذلك فلا ينبغي أن ينقنع بما في غيره.

العرف له اعتباره في المعاملات

وذكر أن رجلين اختصما إليه بجزيرة جربة, أحدهما باع للآخر سلعة بستين ولم يسم أي الجنس هي من الأثمان فقال المشتري إنما اشتريت بقرائط الحندوس, وقال البائع إنما لي عليه ذهب, وقال المشتري لا اعرف الذهب قال أبو صالح للبائع: خذ منه ذكر, وإلا فخذ سلعتك لأن أهل جربة إنما يعرفون التبايع بالحندوس, ولا يعرفون الذهب. قلت وهذا الكم شبيهه بالصلح, ولعله عرف أن البائع كان من بلاد جرى العف فيها بالتبايع بالذهب وعرف أن المشتري لا يعرف إلا الحندوس, فاكتفى عن البينة واليمين بما عرف, والنظر إلى أشبه قوليهما.

الحق لا يختلف باختلاف الناس في مذهبهم

قيل وكان لرجل نكارى على رجل وهبي دينار, فمات الذي عليه الدين فخلف ابنا عزابيا, ولم يترك مالا يورث عنه سوى شاة واحدة فطلب النكارى دينه من ولد الميت فقال: أن غرميك لم يخلف إلا شاة, فبعها وخذ منها دينك, فقال النكارى: بع أنت, وادفع لي: فقال: بيني وبينك أبو صالح, فترافعا إليه, فلما قربا من مجلسه قال النكارى للعزابي, سر إليه أنت, وحدك, واشتقته, فما أفتى به أمضيته على نفسي, ورضيته فجاء العزابي, وعرفه ما بينه وبين صاحبه, فقال أبو صل صدق صاحبك, بع وادفع إليه الثمن, فقال بعض من حضره من العوام هذه إعانة للنكارى على الوهبي, فقال لهم أن الحكم لا يختلف.

الحكيم فيما إذا تولى الورثة عن التركة للغرماء

فقال أبو محمد لو كان أبو صالح تتبدل فتياه لتبدلت في هذه القضية, واخذ بقول من قال أن الورثة إذا أخلوا بين التركة وبين الغرماء فليس لعيهم غير ذلك قلت الوجه في المسألة أن كان المديون لا مال له غير الشاة, أن يجتهد الحاكم في النداء حتى تبلغ أفشى غاية قيمة الوقت ولا يكون ذلك إلى أحد من الخصمين, فانه أرأيت أن باعها ولد المدين بأقل من قمتها ثم قال معلية غريم آخر, فحصى الغريم الاول فيما أخذ أليس قد ضيع بذلك حق الغائب والحاضر إذا كانت في البيع حطيطة إليهم؟ اللهم إلا أن تطوع الوارث بقضاء جميع الدين سواء كان في التركة وفاء أو لم يكن.

وذكر أن أبا صالح سار ذات مرة في بعض شؤونه ومعه ابنه أبو محمد , فلما كانا بعض الطريق وجدا شاة لا يدري أحد منهما لمن هي والشاة على آخر رمق فقال أبو صالح لابنه: اذبحها, فامتنع فكرر عليه, فامتنع. وكان الشيخ راكبا فنزل عن مركوبه, فذبح الشاة فتركها وانصرف فقال لابنه أبي محمد انتم أهل هذا الزمان لا تجزون على أحد صغيرة ولا كبيرة, ثم قال لابنه: اقطع لي قضيبا أسوق به الحما, فقطع له قضيبا فاستحسنه والقى الذي في يده ثم قال هكذا المتروك الذي يسميه العلماء متروكا.

وذكر أن أهل الحي شكوا إليه شاة تشرب من الآنية, فقال ايتوني بها, فاتوه بها فضربها ضربة واحدة بين إذنيها, فصاحت صيحة منكرة, فلم تعد بعد ذلك إلى شرب اللبن

شفقة الشيخ على الحيوان

وغاب عن أهله ذات مرة في بعض شؤونه وخلف ناقة له وعليها الصرار, فلم ينزعوه عنها فلما قدم وجد خيط الصرار قد اثر في غارب الناقة, حتى أحدث فيها قرحا, فاستعظم ذلك وأظهر غضبا, وابتدر ليحل الخيط عن الناقة, والصديد يقطر على كمي جبهته, فقال أبو محمد: وكنت أضم كمي لئلا يصيبهما الصديد, فانتهرني وقال: تتح عني لا بأس بذلك.

يتحمل الشيخ المشاق للإبقاء على اثر الصالحين

وذكر أن أبا صالح سمع بالنكرة انهم استولوا على جبل دمر بحلقة كانت لهم تطوف في الجبل فتكدر خاطره, فتوجه إليهم بالحلقة, ومعه ابنه ابو محمد وذلك في سنة محلة, وكان الشيخ يكابد الجوع والوعر, وصعود الجبل كل ذلك في الله وإحياء لسيرة المسلمين, وإبقاء لذكرى الصالحين وفي ذلك فكان ولده أبو محمد يرفده من وراميه لما صعد الجبل, لئلا يقع, حتى وصل إلى رئيسهم ومقدمهم " زيرى بن كلمين" فعاتبه أبو صالح وقال له ما هذا الذي بلغنا عنكم يا زيرى من مرور النكار عليكم وحلفتهم بين أظهركم وأنت بالحياة؟ فقال له زيرى: أن عذرنا يا شيخ بين أما سمعت المثل السائر في كلام البربر؟ وخاطبه ببيت بربري ترجمته: المرأة متى لم يزرها بعلمها ابتغت السفاح, وهذا الكلام له بالبربرية وزن, وطلاوه ومساغ, غير ما يظهر من تركيبة بالعربية, وقال له الشيخ منع من ذلك شجة الزمان, وما يدركنا من الشفقة عليكم فقال له زيرى فترفعون أزواجكم! فخصمه وأصاب, لأن الله أثنى على المؤمنين فقال: "ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب, ولا مخصمة في سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيض الكفار, ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح, أن الله ولا يضيع أجر المحسنين" ومن اعظم الجهاد الجهاد في الدين.

الشيخ يفضل تأليف أهل المشرق (عمان)

وكان أبو محمد يقرأ على ابنه مختصر ابن محبوب فكان أبو صالح يقول, هذا كلام محقق, فقيه, أصولي ولم يقع منه هنا إلا الجزء السادس وهو سبعون جزءا. هذا منه تعرض على العلم, وعلى تحصيل الدواوين, وذكر عنه أنه كان يقرأ عليه الكتاب المعروف بالنسخ الثلاث في الحيض, وكان كلما قرأ في النسخة الأولى يقول: هذا الفقيه العالم وفي الثانية يسكت لم يمدح ولم يذم, وفي الثالثة يقول: خلط, خلط, ذلك ليعلم أن تأليف أهل المشرق مفيدة, دون ما سواها.* ومن فضيلته أن رجلا من نفوسة يدعى ابا يخلف, وكان عندهم بجرية وكان هذا النفوسي متقنا لمسائل الحيض, فمتى وردت مسألة من مسائل الحيض على أبي صالح رفعها إلى أبي يخلف فتكلم فيها بما عنده بعد ما يقول لا أرى نفسي أهلا لذلك, ويسأل من أبي صالح الجواب.

وذكر أنه لم تسمع منه لفظة شرقط إلا مرتين, إحداهما أنه سئل عن بئر إذا كانت في الجان هل هي عيب؟ فقال هي شر العيوب,* والأخرى ذكر له رجل وكل رجلا أن يزوج له فزوج له أربع نسوة, فقال: هو شرا الوكلاء.

وذكر أن رجلا نكاريًا سأل الشيخ أبا صالح هل تجوز الصلاة بثواب واحد؟ قال: نعم, إذا كان ساترا فقال إنكاري إنما عنيت الشاشية, فقال أبو صالح إنما قلت لك إذا كان ساترا, وسأله مبكتا, أيجوز صوم العيد؟ فقال: لا, قال فلم تصومون يوم الجمعة وقد علمتم أنه عيد؟ قال: رأيت أن كان في رمضان فلم يجد جوابا.

وذكر أبو صالح قال: ما أفتى سليمان بن ماطوس قط في رخصة إلا في ثلاث مسائل: أحدهما أن من باع سلعة بقراريط وهو يعني دراهم الحندوس أن ذلك جائز, لأن القراريط في أوزان الذهب, والدرهم في الفضة, الثانية رجل تحقق في أعضاء وضوئه نجاسة, أو في عضو واحد منها فتوضأ حتى انتهى إلى موضع النجاسة فجعل مرور الماء على العضو النجس إزالة للنجاسة, وإداء لفريضة الوضوء, أن ذلك يجزيه ولم لم يقصد. فقال له أبو محمد, لا أعلم هذا إلا إن ترجعوا إلى جواب غيركم. والثالثة رجل سأل من رجل خمسين دينارا قراضا وخمسين سلفا, فأتاه بمائة دينار جميعا ودفعها له, ول يبين ما للقراض ولا ما للسلف أن ذلك جائز.

يجوز الرجوع إلى الرضى بعد الإنكار لا العكس

وقال أبو صالح في امرأة عقد نكاحها وليها فأنكرت, ثم رضيت أن ذلك جائز لأن لها أن ترجع إلى الرضى بعد الإنكار ولا يرجع إلى الإنكار بعد الرضى, في قول أبي عبيدة رحمه الله, فقال له أبو محمد النكار أولى بالصواب في هذا الجواب, فقال له: النكار أولى من أبى عبيدة بالصواب يا هذا؟ فقال: لا ولكنهم أخذوا بقول أبي نوح صالح الدهان, وهو اظهر واصح فصافه النكار فرجوه.

يهتم به تقديرا لأبيه

وذكر أن رجلا من ولد ابى مسور متخلفا, خرج من جربة إلى بلاد أهل الدعوة, يستجدى ويستعين, فعظمت مصيبتة على أبي صالح لكونه خرج في شئ لم يخرج إليه سلفه, فعز على أبي صالح يجتمع عليه فيه مصيبتان الاستجاء وأن لا يعرف قدره, فجعل يسأل كل من يرد عليه من النواحي التي توجه إليها, ويبحث عن منزلته عندهم, وهل عرف له حظ أو لا؟ وهل أكرم إجلالا لأبائه؟ فقال له ابنه أبو محمد: أن فلانا لم يبلغ قدره هذا الاهتمام الذي اهتمت له, فقال له أبو صالح يا هذا لا تقل هذا فان ذلك ابن أبى مسور, "وكان أبوهما صالحا"

وذكر أن تلميذا من تلامذة أبى صالح كان يقرأ عليه كتابا بحضور رجل نكاري يرد عليه, وأكثر الرد عليه في غير موضع الرد, ففهم أبو صالح عن النكارى أنه ينتفخ بما ليس عنده, فقال للتلميذ: ناول الكتاب من هو أجود منك قراءة, فناول النكارى فلما أخذه بقى حائرا لم يحسن القراءة ولو حرفا واحدا فبهت وخزي.

عادة أهل جبل دمر في اخذ جزء من الدية واستنكار ذلك

وذكر أن رجلا يكنس مربدا بجبل دمر, فرفع حجرا من المربد قرمى به وراء ستر, فصادف رجلا فقتله فترافع أولياء القاتل مع صاحب المربد أبي صالح فحكم فيه بالدية, فسر بذلك رئيسهم زيرى, لأن عادة أهل الجبل متى وجبت دية على أحد وأخذها مستحقها فانه يجيزها المقدم بثلاثها, وزعم أهل جبل دمر أنهم أخذوا هذه السيرة عن الأئمة, ومعاذ الله, فبلغ ذلك أبا صالح فأنكره عليهم وغيره, وكره أن يتخذوه وسنة, فيشتهر ذلك عنهم فيزداد في الشريعة ما ليس منها.

ينفق ماله احتساباً فيشتكي منه أبناؤه لت ذوى الفضل في آخر الزمان
وذكر أن رجلاً من بني يراسن تاب في آخر عمره، وكان موسراً وكان يتصدق بماله فجاء بنوه
إلى أبي صالح شاكين بابيهم، ذكروا له أنه اتلف المال وتركهم فقراء فيما زعموا فقال له أبو
صالح مالك وبنيك؟ زعموا أنك اتلفت المال فقال له يا أبا بكر، أفعل كفعل الذي نزلت فيه آية
الكنز "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم" فكان أبو
صالح يستحسن ذلك ويتعجب من كونه صدر من رجل عامي
وزارة جماعة من العزابة في مرض إصابة فدخلوا عليه في عريش له بمقربة من موضع
وضوء فجعلوا يحفظون ثيابهم أن يصيبها شيء من ثرى موضع الوضوء فقال لهم: لا تحذروا،
فأني لم آت قط بنجاسة وكان من عادة أبي صالح إذا اكمل النوافل التي اعتاد ركوعها دعا من
يقرأ آيات سجدة القرآن. فكلما قرأ منها آية سجد، حتى أتى على آخرها.

قلة ذوى الفضل في آخر الزمان
وذكروا عن أبي صالح أنه قال يأتي على الناس زمان يود الرجل من يأكل طعامه فلا يجده، ويود
من يستشير فلا يجده، ويود من يرفع إليه أمر النازلة تنزل عليه في أمر دينه، فلا يجده، لا لقلة
الناس بل لقلة الفضلاء، فمن أدرك ذلك الزمان منكم فليتمسك بما حفظ من دين الله، وليعض عليه
النواجذ.

أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور

ومنهم أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور رحمه الله، الطيب مورداً وموعى، الكريم أصلاً وفرعاً،
المبارك عينا وأثراً، المحمود خيراً وأخباراً ورث المجد عن امجد الآباء، وأورثه نجباء الأبناء،
وأبقاه فيهم مخلداً لا يفني إلى يوم الفناء فهم شجرة الدين، لأن أصلها ثابت وفرعها في السماء، أن
ذكرت السباق في حلبة العلم كان المبرز، وأن ذكرت المخاصين وجدته لخصال الخير بأسرها قد
أحرز، قد تقدم من ذكر أحواله في التعلم والعلم، وماله في طريق الصلاح من رتب حديث وقديم،
وفي كل مسموع طيب وثناء كريم، وسنذكر ماله من المناقب، وكريم المذاهب، وما وهب الله
على يده من المواهب، ما يحسن مرئياً عند الشاهد والغائب. من فضائل مشهورة، سائرة بها
الركبان، لو سكت عنه لأثنت الحقائب.

تسلط ابن وانزوى على الجزيرة في زمن الشيخ
ذكر أن قائداً من قواد السلطان يعرف بابرايهم بن وانموي، مزاتي وهو من أهل المذهب من
مزاة القيروان إلا أنه كان جائراً، فاسقاً توجه إلى جزيرة جربة، وكتب قبل وصوله إليها أبي
زكرياء فصيل، أن تتح بأهلك وعشيرتك إلى المسجد الكبير، لئلا يدركهم من إضراره شيء أو
تصيبهم من الجيش معرة، ففعل أبو زكرياء فاستباح القائد جربة نهبا وغصبا، وفي شره بني
يراسن فانهم في جنب الشيخ لم يصبهم شيء مما أصاب أهل الجزيرة ببركته، قيل فلما قضى ابن
وانموي من أهل الجزيرة أربه، وصل إلى أبي زكرياء، فأعلمه أن أهل جربة أفسدوا على
السلطان رعيته، ولم يودوا حق طاعته، فذلك نزل بهم ما نزل، ولكن يا أبا زكرياء ما الذي تعلم
من أحوال بني يراسن؟ قال ضعفاء، قال أما يقدر على أدني شيء؟ قال يقدون على دينارين
قال قد قنعت بدينارين منهم، وتقدم له في الكتاب نحو من هذا، رحمه الله* قيل وكان ممن انضم

إلى الشيخ أبي زكرياء من بني يراسن رجل يسمى أبا ملدين, فأصيبت له جدي وعنز فاعلم بذلك ابن وانموى, قال أما العنز فلك, وأما الجدي فلا, فقال: بل كلاهما لي, فقال له القائد: يطلقان جميعا فان صحب الجدي أمه فلك, وإلا فلا, فاطلقا فأخذ كل واحد منهما طريقا غير طريق الآخر, فقال له القائد كيف ترى دعواك يا ملدين؟ قال قد والله نالهما من رعبك ما نالنا فدهشا كما دهشنا, فضحك حينئذ, وسلمهما إليه وإنما ذلك كله ببركة الشيخ.

يطعم الجبابرة تقية ويتبرع بمثل ذلك للفقراء
وكان أبو زكرياء ربما عامل ابن وانموي وأشباهه بالإكرام, وقابلهم بإطعام الطعام, فإذا شيئا من ذلك تبرع بإطعام مثله للعزابة, فالأولى وقاية للعرض وابقاء للحرمة, والثانية تكفيرا عن الأولى على أنه يقول: من حرث زرعاً وحصده, ودرسه, وطحنه, وعجنه, وأطعمه الجبابرة, بمنزلة من أطعمه الأولياء, فلكليهما حظ من الثواب, وكلاهما يكتب عند الله صدقة, كما روي في الخبر.

اهتمام الشيخ بالطلبة و أعانتهم سرا
وكان يقول: " منزل التلامذة كشجرة الخروب " يعني أنه لا ينبت حول الخروب نبات, فان نبت كان ضعيفا لان الخروب يستق, وكذلك ما كان حول منزل التلامذة, فانه يكون اهتمام أهله لما يصلح شأن التلامذة فجهدهم مكابرتهم, والطافهم, والقيام بمئونتهم, وكأني به رحمة الله عليه يخاطب بذلك أهله, وحشمة ليكون لهم من الاهتمام والاهتبال بأمرهم, والقيام بحقوقهم, ما لا يكون عند غيرهم من ذلك فيقتنون آثاره, ولا يستعظمون ما ينفقون في جانب التلامذة, وما يخرج من مصالحتهم وكان رحمة الله عليه يصرف الدنانير بالدرهم, ويجعل الدراهم في القراطيس, والصرر, ثم يعلقها في ألواح التلامذة, وربما يجعلها في أوعية دقاتهم, وربما جعلها بين التلميذ وبين ثيابه, وهم لا يشعرون, وكل ذلك منه رغبة في كتمان الصدقة فلما مات أبو زكرياء رحمة الله عليه انقطع عن التلامذة ما كانوا يعتادونه من ذلك فعلموا أنه إنما كان يفعل ذلك أبو زكرياء وتحققوا ذلك.

وبلغه عن أبي بكر الزواغي أنه كان يقول: لسنا في دفاع ولا في ظهور ولا في كتمان, ولا في شراء, ولكن زماننا سائب لتضييع الناس القيام بالحق, ولا يعني أن السائب وجه من الدين خامس, فقال الشيخ أبو زكرياء لما بلغه ذلك عنه: أخبروه أن مسالك الدين أربعة: الكتمان وهو الأمر السابق لرسول الله عليه وسلم بمكة, ثم الظهور كحاله بالمدينة ثم بعده أن أمر بالجهاد, ثم الدفاع كدفاع أهل النهروان الراضين بحم ابن العاص وعبدالله بن قيس, ثم الشراء, كابي بلال رضى الله عنه* فلو رأيا زماننا وأهله لاستحالوا التمسك بشيء من الدين.

أبو عمرو النميلي

ومنهم أبو عمرو النميلي, رحمه الله, الراسخ القدم, المؤثر موسرا وذا عدم التارك الآثار والتباعات, المعمر في اكتساب البر وأفعال الطاعات, الذي كان الورع خدينه, والعلم في كل وجهة قرينه, وهو أحد أقطاب الجزيرة, وما يجري فيها الفرض والسنة والسيرة.
ذكر أبو الربيع أن أبا واسلان بن أبي صالح زار أبا عمرو النميلي, بعد ما كبر وعلت سنه, وقيل أبو عمرو لما كبا زار محمد, فقال يا واسلان يا بني, ذاكرني بشيء انتقع به فسكت عنه أبو محمد فلم يجبه, فقال مهلا عليك يا واسلان, مهلا عليك, أن كنت استثقلت سؤالي فأني اخفف عنك وإلا فعلام تركت سؤالي, ولم تجبني؟ ولما رأى أبو محمد تغير أبي عمرو أقبل عليه, يذاكره, بما

اعتقد انه ينتفع به فهكذا كانت أحوال السلف و اخلاقهم , وتسارعهم إلى الخير , وسباقهم, لا يضيعون الوقت, ولا يفوتون الغائب

جند المعز ينكلون بعدة مشائخ في جربه وكان أبو عمرو قد عاش مائة وعشرين سنة, وقتل شهيدا قتله بنو وتران زواية وذكر انهم دبوه وخرج من مذبحة شئ كاللبن يسيل, وهؤلاء الذين قتلوه هم عسكر أخرجه المعز بن باديس فيما ذكر, فقتلوا عده من مشائخ جربه, كأبي عمرو, وأبي صالح, وأبي موسى* وذكر أن رجلا خرج ليلا إلى المقتلة, يتقعد القتلى, هل فيهم من بقيت في بقية نفس, فسمع قائلا يقول باللسان البربري يا قاتل أبي عمرو النميلي, شئت الله شملك, وازال عزك, فلم يلبث إلا أياما فخرج عليه يونس بن يحيى الطنبري ومزع ملكه, وقتل رجاله, وخرب سلطانه ونفاهم من القيروان إلى النهاية.

أبو موسى عيسى الزواغى

ومنهم أبو موسى عيسى بن السمع الزواغى رحمه الله, شيخ أهل الاخلاص والتقوى, المعتمد على قوله في الفتوى, ذو الرصانة والحلم, والمتقدم في فنون العلم, جوابه عند السؤالة رونق وبلاغة, وألفاظه حسنة الوصف والصناعة, وحسبك بأول من فخرت به زواغة, فإنه صدق في التجرد والإنابة فأثاه الله مع العلم والاجتهاد الدعوات المستجابة.

المسائل الثلاث التي انتقدها منه المشائخ وجوابه عنها ذكر المشائخ أن أبا موسى كان يتحرى الصواب ويتحفظ بالجواب, لكنهم انتقدوا عليه ثلاث مسائل إحداها قوله له أن الأمر والنهي مرفوعان عن أهل الكتمان لا يلزمهم من ذلك شئ, والثانية قوله: الرياء لا يكون بين العبد والناس وإنما يكون بين العبد وربّه, والثالثة أنه لما أصيب قومه أيرعبان, لازم الفرائض مضطجعا اغتاما لما أصابهم من إخوانهم " بني تاتيتن" عذروه على الأولى, انهم قالوا إنما يعني سقوط الأمر والنهي في أهل الخلاف, فهذا لا بأس به, وهو قريب من جواب أبي محمد جمال وهو قوله كل ما أجازّه أهل الخلاف في مذهبهم, ولم يجز في مذهبك, فليس عليك إنكاره ولا يسمى هذا تضييع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, والجهور هذا من أصحابنا يأبون ذلك, ويوجبون النهي عن جميع المناكر, ما لم يمنع من ذلك ضعف أو خوف, فيسقطه عند ذلك, وعن الثانية أن قول من يقول لا يكون في الفرائض وإنما يكون في النوافل وعن الثالثة اعتذر عن نفسه وذلك أنه لما سمع به الشيوخ جاعوه معاتبين, فقالوا: حجبت, وتصدقت وأعتقت وأنفقت, وانفدت وصيتك بيدك, ومع ذلك فإن الوهابية غير راضين أحوالك, لكلفك بقومك حتى بلغ بك إلى هذا الحال, وأظن المتكلم منهم أبو صالح بكر بن قاسم, فأجابهم بأن قال يا أبا بكر أستم تقولون أن من إذا نال خيرا نلته معه, وأن ناله شر نالك معه, فإنه مهما أصابه مكروه فتوجهت وتوجعت شفقة عليه أن ذلك ليس بحمية؟ فقال لهم أبو صالح: اسألوا من صاحبكم المحالة, فإنه قد أجابكم بمخ العلم.

تركناهم وطلبنا العلم فرجعنا ولم يفتنا شئ وذكر عنه أنه قال: فرجنا من هؤلاء – يعني قومه وأهله – وتركناهم أصحاب شياه وبقرات, وقرأنا العلم ورجعنا وجمعنا مثل ما جمعوا من شياه وبقرات, لا أقول أن أبا موسى رحمه الله قال

هذا القول فخرا وافتخارا , بل تحريضا على طلب العلم والاجتهاد في الخير والصلاح, وأعلاما بان طلب الدنيا مدرك لا يفوت, وأن المتعين طلب العلم والدين.

أبو نوح سعيد بن يخلف

ومنهم أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي رحمه الله, ممن سلك مسالك الأخيار, وحافظ على إحياء السير والآثار, وأخذ نفسه بما تلقى عن ذلك الأبرار, وكان ذا سعة في العلم والمال, رحيب الصدر فيهما عند السؤال, ولا يضجر من المسائل, ولا ينبو عن جوبه السائل, والورع في كل ذلك دليلا, والرفق خليله,

ذكروا أن أبا نوح كان له أربعون فرسا, وكان يصطفي منها فرسا عتيقا, كان تبذل فيه الأثمان الجليلة, والأموال الجزاية, فيضن به, ولا يسمح بخروجه عن ملكه لما خبر من صبره وشدة أسره, وكان يعده للشدائد والمرامي البعائد, حتى وصل به إلى بلاد المشرق, ف قضى عليه فريضة الحج, وعليه سافر إلى " تادمكت", ولعل كثرة ما افتني من الخيل لكثرة ما بأمله من الخير في نصرة الدين, ومداغة المعتدين.

وذكر أن أبا نوح لم يصل صلاة بالتيمم على كثرة سكناه بالبداية, ولم يلبس الثياب المعدة للصلاة إلى غيرها قط, بل إذا قضى الصلاة طواها وأوعاها في الخرج, ولم تقته ركعات الضحى قط, ولم يفته نوم القائلة, فهذه خلال اعتادها لا يقطعها عنه ما يقوم به من الأسفار ولا يتركها بعذر من الأعذار فكان إذا سافر وحان وقت المقييل نزل عن فرصة ثم نام, ثم يقف غلامه عند رأسه ممسكا له الفرس, حتى ينتبه فيصلي في يركب فيدرك الناس, لم يفوتوه, وكذلك يفعل في جميع الصلوات, فرضها ونفلها.

وكان كثير المال كثير الأضياف لا يرد بابه دون أحد, وكان له أربع زوجات وكل واحدة منهن في خيمة فإذا نظرت إلى خيامه رأيت جلود الشياه منشورة, وعليها لفائف قطن, لكثرة ما يغشاه من الأضياف, فيكثر الذبائح.

رأيه في التصرف في مال الغير جلبا للمصلحة

وكان يقول كلما تصرف في أموال الناس في وجوه المصالح لتدخل عليهم بذلك نفعا, أو تكف ضررا, فليس عليك في ذلك تباعة, ذكرانه رأي بقر الناس في زرع فأخرج البقر وطرده عن الزرع, وهو على فرص أنثى يتعبها مهر, فلم ير على نفسه حرجا في دخول فرسه ومهره في الزرع, لما أنه إنما قصد بذلك إزالة الضرر.

وكان رحمه الله مطرعا حظوظ النفس, لا يقف عند مراعاة الظواهر, إنما كان عنده القصد والإخلاص, فذكر عنه أنه كان عند أهله في ناحية من نواحي طرابلس في عام الأبراج وهو العام الذي وقع فيه الحرب بين زناتة وصنهاجة فهزمت صنهاجة, وكان بنواحي إفريقية زلازل عظيمة, وأحوال شديدة, فتشمر حينئذ من كان بنواحي إفريقية من مزاتة فصاروا بجهات إخوانهم بنواحي بلاد طرابلس, فنزل إليه أبو نوح سعيد بن زنگيل, وكان عنده ضيفا, فلم يجد عنده غير الشعير واللبن, قيل فكان إذا قدم إليه شيئا من ذلك قال له: كل يا شيخ فأني لا اعتذر لمن أدعو له بالجنة, وأرجو أن يكون من أهلها, إلا ترى حسن هذه العبارة ولطافة هذه الإشارة؟ رحمة الله عليهما.

قيل وفي هذه السنة انضم عبد السلام بن أبي وزجون فيمن انضم من مزاتة إلى جهة طرابلس, وفيها سئل عن السخط والرضى وعن تلك المسائل, فقال, إنها صفات الله فعيب هذا الجواب

وطرد, وسافر إلى المشرق للحج, قلت: ولعل الجماعة رضوا عنه, وحينئذ توجه إلى الحج, وإلا فلا يمكنه إن يقصد إلى الحج وهو في وحشة الهجران, بل بعد أن يتوب وتقبل توبته.

أبو محمد واسلان بن يعقوب المزاتي

ومنهم أبو محمد واسلان بن يعقوب المزاتي رحمه الله لم يقصر عن مدى أصحابه , وأن كان غير منتفع بسبابه, وذلك أنه قضى أيام الشباب في لا شيء, ثم توجه إلى الله فبدل الرشاد بعد الغي, فسعى وحفد وجد واجتهد, حتى فتح الله عليه في مدة يسيرة, يما ناله غير في الأعوام الكبيرة فكان بالجاهدة المذكورا, وبالعلم والورع مشهورا.

ينتقل من رعي الغنم إلى طلب العلم

ذكروا أن أبا محمد واسلان كان راعي غنم, فأتى عليه حين من الغمر وهو لم يدر ما الصلاح, ولا أهله وكان عادته إذا خرج في رعاية أن تجتمع الرعاة, فيغنيهم لهم, وكان حسن الغناء, فإذا كان آخر النهار ختم غناؤه بكلمات, فيذكر الله فيها ويدعوه, فكانوا إذا سألوه أن يغني لهم فراغه من الدعاء يقول لهم: أما بعد إذ ختمت فلا, ويمتنع فلا يعود إلى الغناء على كل حال, وكانت له هذه خيرة, فهداه الله إلى الطريق المرضي فتاب ورجع إلى الله, ولحق بتلامذة القراءان في أيام أبي القاسم يزيد بن مخلد فابتدأ في قراءة القرآن على تلكف شأن التعلم على الكبر كما في كريم علمك وكان جهير الصوت فمر به رجل فوجده يعالج من ذلك ما يعالجه المبتدئ فقال له: يا واسلان هلا رجعت إلى أهلك فلازمت الصلاح واصطناع المعروف؟ فان ذلك أنفع لك وأجزي عنك وكأنه أياسة من التعلم, فسأه ذلك فخرج من المسجد ولوحه في يده, وعبرته تخنقه, بل دموعه تسيل, فوجده رجل آخر على هذا الحال فقال له ما شأنك يا وسلان؟ فاخبره بما قال له الرجل وایاسه إياه من روح الله, فقال له اقرأ فقرأ فقال له أي عالم يخرج منك يا وسلان! فارتاح لقلوبه, ورجع إلى تعلم القرآن, حتى حفظه, ثم تعلم علم الكلام وحصل الأصول على شيخه أبي القاسم رحمه الله.

فذكر أنه كان في أيام قراءته على أبي القاسم حضر يوما إلى منزله, فوجده راقدا فطفق يتناظر هو وزوج الشيخ في مسألة من علم الكلام, قال فلما افاق قال له: هل سمعت ما نحن فيه! قال نعم سمعتكما تتراميان بالخرف, يريد ضعف حجتكما في المناظرة, فلما قضى واسلان من هذا الفن وطره شأقت نفسه إلى تعلم الفروع فاستأذن أمه في السفر, والغز عليها في الاستيذان, فقال له أتأذنين لي في الطلوع إلى الجبل, فقالت نعم, فذهبت هي إلى الجبل بمقربة من منزلهم, وذهب هو إلى جبل نفوسة, فجل يقرأ العلم حتى حفظ في الفقه كتب كثيرة, وكان في أثناء هذه المدة إذا وسله كتاب من تلقاء أهله رمى به في الكوة لا يقرأه, حتى قضى وطره من علم الفروع وعقد النية على الرجوع إلى أهله, فقرأ الكتب فوجد في الأول التعزية بأمة ووجد في كل كتاب مالو اطلع عليه لكان شاغلا عما قصد إليه من الخير, قيل ولما خرج مسافرا عن جبل نفوسة شيعه المشائخ مودعين, فلما أراد الانفصال قال لهم: اخبروني يا معشر نفوسة عن رجل حلف بالله ثم حنث ما يجب عليه؟ قالوا العتق أو الإطعام أو الكسوة هو مخير في الثلاثة أن كان مستطيعا, فقال لهم هو مخير؟ قالوا نعم فقال: هذا ما كنت أحاول أن اسمعه منكم, وقد ظفرت به منكم, فأني متى سألتني سائل عن مذهب أهل جبل نفوسة, قلت: التخيير فقالوا له: إلى هذا كان قصدك!!

قيل: وكانت أقامته فيهم سبع سنين فحصل ديوانا عظيما فكان يقرأ فيه ويدرس عند أهله, وكانوا إذا أوه يقرأه في الشتاء, قالوا له: يبطل كتابك ببل أندية الشتاء, ويقول لهم: سيأتي الصيف ويجف

فان كان الصيف قالوا: يحترق كتابك ويتقبض بحر الشمس, ويقول لهم: سيأتي الشتاء, وينبسط. وكان رحمه الله لا يفتر عن القراءة في كال زمان.

يتعجبون من حملة فيمتحنونه

ومما يذكر عنه من رحب الصدر وكثرة الصبر, ما حكاه جماعة من أصحابنا أن قوما من أهل القيروان ذكروا أبا محمد واسلان وما وهب الله له من العقل والفضل, والعلم والحلم, وسعة الصدر, فتعجبوا, وقالوا: أياكون هذا من أخلاق بربري؟ أحدهم أنا امتحنه لكم اليوم فقعد له في طريقة حتى مر فرفع إحدى رجليه ليخطو ف جذب رجله الأخرى فصرعه, ثم قام ومسح التراب عن وجهه, ثم قال: الحمد لله, ولم يكثر بذلك.

أبو صالح الياجراني

ومنهم أبو صالح الياجراني, رحمه الله, هذا الشيخ اعبد العباد, وازهد الزهاد, وكان لكثرة زهده يحسب أن ذلك بله, ولفرط حزنه على الآخرة يظن أن الذي به وله, لا يكثرث إلا بخدمة ربه, ولا يعمل لشيء غير حبه, حتى خصه بالكرامات التي خص بها الاولياء, وافاض عليه نور معرفته وكساه الآلاء.

تهجد الشيخ وملازمته المسجد

ذكر أبو الربيع عن خاله عيود بن منار, أنه كان يذكر عنده أن أبا صالح ينتقل في كل ليلة في جميع مساجد وارجلان, يطوف عليها مسجدا, بعد مسجد, قال, فاتبعته ليلة وقد قام لتجهده, فجعل كلما اتى مسجدا ركع ما شاء الله أن يركع, فإذا انصرف قفوت أثره, وهو لا يشعر ثم يأتي مسجدا آخر, فيركع كذلك أيضا, وأنا خلفه اركع, حتى مر ببعض المساجد واخذ بالركوع فغلب علي النوم فاستندت إلى بعض المساجد أساطين المسجد, فلم استيقظ إلا وقد خرج, وغلب على ظني أنه أتى مسجدا آخر حتى يطوف على جميعها, فحققت ما كان يقال عنه.

بعض ما ذكر من كرامات الشيخ

وكان هذا الشيخ يحضر مجالس أبي عبد الله محمد بن بكر, فحضر مجلسه ذات يوم, فكان أكثر ما اورد فيه الوعظ والتخويف, واسهب ما امكنه, فقال له أبو صالح: يا محمد, أليس يقولون الجنة في آخر الزمان أرخص من حمار أدبر؟ فقال نعم رأيت إذا وجدت في السوق جملا بغيرراط؟ وذكر عيسى بن يركشن قال: مررنا بأبي صالح في الغيران المعروفة "ببني أجاج" بخارج وارجلان وكنا في جماعة من العزابة, قال فإضعافنا أبو صالح وبتنا عنده تلك الليلة فلما كان وقت من الليلة واخذ العزابة في القراءة جعلت الجن ترد عليهم, يسمعون الأصوات, ولا يرون الأشخاص وذلك دأبهم مع أبي صالح, ولعلمهم من مؤمني الجن, تأنسوا بأبي صالح, وتأنس بهم, لان من هرب من الناس وتوحش منهم تأنس بما يتوحشون.

وذكر من كرامات أبي صالح أنه إذا أتى ليلا إلى الغار الذي هو مصلاه من غيران : بني أجاج" وأراد الدخول ليتنقل على حسب العادة أسرج له سراجان أحدهما عن يمينه, في الجانب الغربي, والآخر عن شماله في الجانب الشرقي, ولا يعلم ولا يرى من يسرجهما له.

خروج الشيخ من وارجلان اعتزالا للفتنة

ووقف فتنة بوارجلان فلم يكن أبا صالح المقام بها فرخرج مهاجرا إلى ناحية ادرج, وكانت له بها ابل , فمكث عند ابله مدة سبع سنين حتى صرف الله الشر عن بلاد وارجلان, وانتشرت فيها

العافية فأراد أبو صالح الرجوع إلى الوطن, وكان حينئذ ببلاد أدراج شيخ من المشائخ الكبار, وكانت عنده حلقة عظيمة فيها نحو ثلاثمائة تلميذ يقرأون العلوم, وسير أهل الخير والصالح فكان أبو صالح يستأنس به, ويستفيد منه, فلما خرج مسافرا خرج الشيخ معه, وتلاميذه مودعين, وجعلوا يودعونه جماعة بعد أخرى, حتى لم يبق غير الشيخ.

الدعاء الصالح من خير المكاسب

فدار بينهما من الكلام المفيد أنواع, فكان آخر ما دار بينهما أن قال أحدهما للآخر, أخبرني ما أعظم شيء ينال به خير الدنيا, وسعة الأرزاق فيها أبا لتجارة أم بالزراعة أم بالصناعة؟ فلم يجبه طلبا لاخذ الفائدة وليكون الجواب من عند السائل فقال: أن أفضل ما ينال به ذلك دعاء الصالحين, لا سيما إذا أغثت ملهوفاً أو سددت فاقة مضطرب, وذكر أنه استسلف حينئذ من تلك النواحي عشرة دنانير صرفها فيما لا بد له منه, فلما قدم على أهله واحضر الدنانير المذكورة وأراد تبليغها منه ولم ير ما يخلصه منها إلا أن يؤديها بنفسه, فلما ارتحل عن أهله اجتاز بقوم يعملون المعروف ويتطوعون به لسد خلة أو نفقة على أنفسهم, فكل رجل منهم يتتقل بما عنده, ويتطوع بما قدر عليه, فارتاح أبو صالح واهتز وراها فرصة تنتهز, لكن تردد ما بين فرصتين أداء الاتباعية لمستحقها أو اصطناع المعروف في محله ثم أنه رأى تقديم ما يخاف فواته على ما ليس بفائت واستخار الله تقديم ما يخاف فواته على ما ليس بفائت واستخار الله تقديم ما يخاف فواته على ما ليس بفائت واستخار الله تقديم ما يخاف فواته على ما ليس بفائت من العشرة دنانير, ودفعه لهم عازماً على استئناف اعتزامه لصاحب السلف, فلم ير بذلك باساً لأن ذمته كانت عامرة بالكل, وتبقى عامرة بالبعض, فبعد دفعه الدينار تمادى في طريقة حتى وصل إلى صاحب السلف, فدفع له الصرة فعدها فوجد فيها عشرة دنانير, والشيخ لا يعرف أكثر من تسعة, فقال له أعد عدها, فأعاد, فوجد عشرة فعلم أن ذلك من عند الله.

تخرج الشيخ وشدة ورعه

ومما يحكى من الأخبار التي لم ينسج أحد على منواله ما ذكر أنه جلب من ابله ابصرة إلى وارجلان للبيع, فاشتري وارجلان منها بغيراً, فلما أراد أن ينفقه الثمن قال له: أن ثمن جملك في تادمكت, وكان له جمل أراد المسير عليه فقال هل رجل من أهل وارجلان أتحملي لي على جملك هذا حمل متاع إلى تادمكت فتبيعه لي هناك؟ فقال بكذا وكذا, وكان بعدد سماه له, فلما وصل تادمكت وسوق تلك الوديعة, نقص من العدد الذي سمى شيء يسير, قيل قدر ثلاثة أرباع قيراط, فقال لا يمكن البيع بدون ما سمى لي فرجع بالحمل إلى وارجلان قالوا فلم ير حمل رجع من تادمكت إلى وارجلان غيره, ولا شمعنا به, وهذا في التخرج شيء بعيد.

قوة إيمانه ويقينه

وكان لأبي صالح ولدان أحدهما يسمى صالحاً وبه يكنى, والآخر يسمى سليمان وكان إذا أراد أن يسأل عن ولدية يقول: ما فعل ابني صالح؟ وأما سليمان فقد رضى عنه المسلمون, وكان يقول: إذا نظرت إلى ولدي سليمان, وإلى عمران بن زيري وسدري بن سليمان احترقت نفسي, وعلمت أنني محتاج إلى التوبة والإنابة, واستئناف العمل, وكان هؤلاء النفر الثلاثة يقول بعضهم لبعض: سيروا بنا إلى زيارة الأخيار, ودعونا من هذا الشيخ – يعنون أبا صالح – فإنه لو سكن بين أظهر المشركين ما تبدل, ولا تغير. ومما يحكى أيضاً من أطرحه الاستعمال أنه كان ربما قصد مع أبي عبدالله محمد بن بكر رحمه الله حتى تذاكر معه في الصغيرة والكبيرة, حتى كان مما ذكره أبو صالح أن قال له: يا محمد يا ولدي ما عسى أدركت مني وشعر رأسي كالغامة, ولحيتي كالصفار وجسدي هزيل, ولو علمت ما علي من القوة والشجاعة والعبادة, لو رأيتني حينئذ لرأيت

شيئاً عجيباً تعجب أن تراه، آفته رحمه الله يريد بذلك تفاخراً وسمعة؟ حاشاه، ثم حاشاه، إنما ذلك دليل على صفاء باطنه وكونه لا يحذر شيئاً يحذرهُ أهل الدنيا رحمه الله.

الطبقة التاسعة 450-500هـ

أبو عبدالله محمد بن بكر

منهم أبو عبدالله محمد بن بكر، رحمة الله الطود الذي تظاءلت دونه الاطواد، والبحر الذي لا تقاس به الثماد، بيت أهل المذهب والشهور بالبركات، والمعتمد عليه فيما أصل للحركات والسكنات أسس قواعد السيرة وله في كل فن تأليف كثيرة، وأكثرها الحجج والبرهان لأنه كان فيها ركن الأركان، وحفظ عنه في الأخلاق حكم قد خلدت في بطون الأوراق، وله الدعوات التي ترتجي وتتقي عواقبها، وهي باقية لذريته يتوارثها بدورها وكواكبها،

كرامات تحتي عن الشيخ أبي عبدالله

وصنوف فضائل أبي عبدالله أكثر من أن تحصى، لكن اذكر منها ما تيسر فمن كراماته أنه أضاف جماعة من أهل الخير والصالح؛ ممن ينبغي معه الاحتفال، وممن لا يقابل بالمحال وكانت غنم الشيخ في مرعاها بالبادية، ولم يحضر ما يسنى به طعام أضيافه ولا وجدوه له بوجه الشراء فقال لهم: انظروا العريض هل فيه شيء أم لا، وكان في داره عريش فنظروا العريض، فإذا فيه كبش عظيم، فجهز به ضيافة أضيافة فبعد ذلك قدم رغاء الغنم فسألهم عن حال الغنم فقالوا ما علمنا بأساً إلا أن الكبش الكبير الفلاني دارت عليه زوبعة ريح في يوم كذا وكذا، فتشنا عنه فلم نجده، وهذه الحكاية روتها جماعة ممن لا يرد ما ذكر، ومثلها لمثله، لا ينكر. ومن كرامته ما ذكره الفقيه أبو الربيع رحمه الله قال: كنت عنده ذات يوم وحوله عمال يعملون فقدم لهم بسراً ليأكلوه، فقال لي: كال يا سليمان، فامتنعت، فقال كل يا سليمان، أن من يطاوع لمشكور الحال، محمود الخلائق، فأردت أن أقول ولو فيها لا ينبغي، فأمسكت فاطلع على ما كتبت، وكوشف بما عنه سترت فقال لي: يا سليمان ذلك ليس بمطاوع فنطق به قبل أن أظهره له.

وكانت في أيام أبي عبدالله امرأة كثيرة التخدم لتلامذته، محسنة القيام بمعائشتهم، وكثير من مهماتهم، فتزوجها رجل وغاب عنها في نواحي طرابلس في بعض أحياء مرانه، فأضربها مغيبه عنها، وبلغ ذلك في الشيخ طرابلس في شأنها، أحدهما على بن يعقوب، والآخر عمرو بن يحيى، وأشهدتهما على نفسها أنه متى فارقتها فقد أسقطت عنه المهر، فلما استوثقا منها سارا إلى جهة طرابلس، فوصلا إلى الرجل فاشهدهما أنه خلى سبيلها فakra راجعين إلى أريغ، ثم أنقلب على بن يعقوب إلى جبل نفوسة ثم أراد الرجوع، فمر بقرية خاملة الذكر، فيها عجوز يجتمع إليها الناس سألونها عن مسائل دينهم، ولها مصلى تصلي فيه، قال علي فصليت فيه صلاة الصبح مع أهل المنزل، فتفرقوا.

خير الجني الذي قيل أنه كلم الناس

ثم جلست أتلو القرآن حتى غلبتني سنة، فما ايقظني إلا صوت قارئ يقرأ بازائي، اسمع صوته ولا أرى شخصه، ثم سمعت صرير ثيابه لها تحرك وهي جديدة، فارتعت ارتياحاً شديداً، فقال في الصائت، لا تخف فأني جني ممن لا يخشى أذاه فسألته عن كثر من الأنبياء فأعلمني بما سألته عنه من الأشياء البعيدة عنا، ثم سألني عن السبب الباعث لي على السفر إلى ناحية طرابلس، فذكرت له خبر المرأة وبعثها وما كلفني به الشيخ أبو عبدالله من إصلاح حالها، ثم وضع سؤالاً فسألني

به , فقال كيف ولايتنا لكم , وولايتكم لنا؟ فقلت الجواب من عندك قال نعم أما ولايتكم لنا فبالجملة , وأما ولايتنا لكم فبالأشخاص , فسمعت العجوز تجاوبنا , فجعلت تسبح وتكثر التعجب ثم سكوت إليه ما استقبلته من الحركة وأتوقعه من خوف الطريق , فقال : اقرأ هذه الآية : " قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب الأسباط وما أوتى موسى وعيسى , وما أوتى النبيون من ربهم , لا نفرق بين أحد منهم , ونحن له مسلمون , فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا , وأن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم " فكرر ها علي حتى حفظتها , ولم تقنعه قراءتي معه حتى قال لي : اقرأ وحدك , فقرأت , فقال : الآن قد تحقق أنك قد حفظت , ثم قال : أن لنا موعدا بالجزيرة اليوم , لا يمكنني المغيب عنه , فلا تغب عن هذا المكان حتى أعود إليك إن شاء الله .

فأنا لنتحدث إذ طلعت الشمس فقال لي : هذا وقت الختمة , فخذ بنا في الدعاء فقلت له الدعاء من عندك , فقال بل الدعاء منك لأنكم أفضل , فدعوت , ثم دعا , ثم قال زيدي من الدعاء يا عجوز , فدعت وأكثر التسييح , ثم مضى الجني وانتشر الخبر في القرية إن الجن تكلم وحرار الناس وتتحيت عن الناس بحذاء القرية في خربة , ثم نمت فيها , فلما استيقظت أقبلت أنظر ميعاد صاحبي , وجئت إلى العجوز فأعلمتني إن الجني اقبل , وسأل عنك , فلم يجدك فناولني حصيات , وقال ادفعها إليه إذا جاء , وقد انصرف وترك الحصيات برسمك , فهاكها , فأخذت الحصيات فوجدت عليها خطأ رقيقاً , لا أكاد أبينه , فعزمت على التوجه إلى ناحية بلادنا , فسلكت على نفزاوة , ثم على تقيوس , ثم قال , وقد اشتريت كساء طاقيا * من نفزاوة , فلما صرنا في السبخة التي بين نفزاوة وبين تقيوس من طريق بشرى وتوسطنا السبخة واجهتنا خيل لا نستطيع الهروب منها فقصدنا هنا وأنا في ذلك اردد الآية التي علمنيها الجني , فلما وصلناهم حفوا بنا والكساء الطاقى على عاتقي , فردد في أميرهم نظره وصعد فينا بصره وصوبه وقد غشيني زبد فرسه , فقال لنا من انتم ؟ فقلنا عزابة تلامذة , فقال امضوا على طريقك راشدين , قال وقد كنت أتوقع أن يقول ضع الكساء فسلمني الله , وذلك بفضل الله وبركة الشيخ أبي عبدالله فأني ما تحركت إلا مساعدة له وموافقة لمراده , قال فكانت معي تلك الحصيات فوصلت بها إلى تادمكت لم أزل أتعرف ببركتها فلم أرزأ قليلا ولا كثيرا مذ ظفرت بها .

جملة من الأحكام الشرعية استجوب فيها القاضي أبا الحكم وذكر يعقوب بن أبي القاسم أن أبا الحسن افلح كان من أصحاب أبي عبدالله وكان أبو الحسن تلامذة حمو بن اللؤلؤ فاحتاج بنو ورتيزلن إلى أن يقوم عليهم أبو الحسن قاضيا فقدمه عليهم الشيخ أبو عبدالله قاضيا , فمكث سنين فيهم قاضيا يحكم بالعدل , حتى ملوه وضجروا منه , فوقعوا فيه عند الشيخ أبي عبدالله واكثر الشكوى وكرروا القول فلما طال ذلك على أبي عبدالله وكان جبلته الغيرة على أهل الفضل فاستحضر جماعة بني ورتيزلن ومن يليهم من تلك النواحي وحضروا في جمع جم , وحضر أبو الحسن وحلق القوم حلقة واحدة عظيمة فسكتوا طويلا , فقال له أبو عبدالله : ما الذي نقمت من أبي الحسن ؟ فقال قائلهم أن أبا الحسن يحكم بين بعض منا دون بعض , فقال الشيخ أكان ذلك يا أبا الحسن ؟ فقال نعم , فقال لهم الشيخ ثم ماذا ؟ قالوا حكم على رجل بصداق امرأة بغير إقرار ولا شهادة , ف قال له أكان ذلك يا أبا الحسن ؟ قال نعم فقال لهم ثم ماذا ؟ قالوا له أكان ذلك يا أبا الحسن ؟ قال نعم , فقال لهم ثم ماذا ؟ قالوا له اختصم عنده رجلان في شفعة فأبطلها من يد القائم فيها , فقال له أكان ذلك يا أبا الحسن ؟ قال نعم , قال لهم ثم ماذا قالوا مات رجل بقرانا فأوصى في ماله بوصية فاستأثر بها أبو الحسن , فقال له كان ذلك يا أبا الحسن ؟ فقال له سأخبرك بما فعلت فيها , قال لهم الشيخ ثم ماذا , فلم يجدوا زيادة . فقال له أبو الحسن : يا محمد

أثبت الحاكم الخصومة في الأرض المشاعة التي لم يتعين لها رب؟ قال لا , قال فان هؤلاء المشاعة التي لم يتعين لها رب؟ قال لا , قال فان هؤلاء القوم حين دخلت هذه البلاد قالوا لي: ما بين فلانة إلى فلانة مشاعة لبنى ورتيزلن, فجعلوا يعمرّون هذه الأرض دون أن يسلم بعضهم لبعض, فهو ما لم احكم فيه بينهم, ثم قال: ما تقول في رجل أقر بالنشوز هل يحكم عليه بالصدّاق أم لا؟ قال نعم, قال اختصم ألي الخير وامرأته تازوراغة, فأقر بالنشوز, فحكمت عليه بصدّاقها , ثم قال أبو الحسن ما تقول في نخل نبت في أعلى مجرى العامة هل يحكم فيها بالشفعة لبعض دون بعض؟ قال لا, ثم قال أن رجلين اختصما عندي في نخله هي في مجرى العامة, فطلبها رجل بالشفعة من مشتريها وهو واحد من تلك العامة , فلم احكم له بها, وأما أمر الوصية فان الرجل الذي مات من بني ورتيزلن استخلف امرأته على تنفيذ الوصية, فقالت لي أرسل معي من يعلمني كيف انفذ هذه الوصية, فأرسلت معها ولدي فبلغني إنها تصدقت عليه بربع شاة لحما, ولم أره, ولم آكله ثم قال أن عندي كلاما لا أريد أن لا يتكلف قضاء بينهم سبع سنين, فصاح فيهم الشيخ, فتفرق كل واحد على جهة, وقام أبو الحسن منصرفا فقال الشيخ ليعقوب بن أبي القاسم اردد أبا الحسن, فردّه ومضى معه إلى الغار فقال الشيخ ليعقوب أنظرني, وذلك في أول الليل, فلما أصبح لم يخرجوا ثم إلى غروب الشمس فلم يخرجوا, ثم إلى الصبح فخرجوا فتوادعا فقال يعقوب, فقال: أو أنت قاعد عنا أي الآن؟ فقلت أجل فقال أن أبا الحسن لم يزل يسئلي عن مسائل الأحكام , ولم يفتر عن السؤال إلا إذا قمنا إلى الصلاة ثم قال أن جيرانك يصارعون من لا يصرعونه.

ومن الكرامات ما ذكر على بن يعقوب قال: رأيت في منامي بعد موت أبي عبدالله كأنني أتيت إلى تين يسلى, فسألت عائشة زوج الشيخ عنه, فقالت لي قد خرج , فأنا في ذلك إذ أقبل على فرس ادهم, فنظرت إليه فإذا هو كحيل العينين, ناعم الجسم والوجه, فنظر ألي فقال: امض بنا فقلت يا شيخ أني غير ماض بعد؟ فنظر ألي فقال تركته للناقضين الذين يموت الدين على أيديهم*, فتوجه نحو المشرق.

مشائخ يتسابقون إلى قضاء دين أخيه

ومن فضائله ما ذكر أبو الربيع أن رجلا نفوسيا كان صاحبا ليكنول بن عيسى المزاتي. وكان بتاجديت وكان لازمه ويسعى في أموره وحاجاته, حتى ترتب للنفوسي على يكنول عشرون دينارا, فمات يكنول في بلاد إفريقية في غير بلاده, فسار النفوسي في طلب ماله قبل يكنول, فلقي المشائخ بتاجديت , فقالوا له أن يكنول قد مات في غير بلده ولم يترك وارثا سوى بنتا له طفلة ولم يوص بما ذكرت, فلما أيس النفوسي من الخلاص على أيديهم وسمع بمشائخ أهل الدعوة قدموا إلى فسطالية ونزلوا فنظر أر وفيهم الشيخ أبو عبدالله محمد بن بكر ومحمد بن الخير وداود بن يوسف وسعيد بن إبراهيم رحمهم الله جميعا في جماعة كبيرة قصدتهم النفوسي, فأعلم الشيخ أبا عبدالله بقضيته وشكى إليه بعدم خلاصه , فجمع أبو عبدالله أصحابه وقص عليهم قصة النفوسي و يكنول, وما شكى به النفوسي, فقام داود بن يوسف فقال علي قضاء دين يكنول من مالي, فقال له الشيخ أبو عبدالله اجلس فلا يصح لك إلا نصيبك ثم قام سعيد فقال كقول داود فقال له أبو عبدالله مثل ما قال لداود, فقام محمد بن الخير فقال علي دينه لسعة مالي, فأجابه أبو عبدالله بمثل جواب أصحابه, فلما رأى النفوسي أترعهم ورغبتهم ومسارعتهم إلى الخير واهتمامهم بقضاء دين يكنول. فقام فقال لهم تركت ليكنول ديني عليه, فقال له المشائخ اجلس فجلس فجمعوا له دينه.

ومن تخرجه ما ذكر أبو الربيع قال, دعاني أبو عبدالله محمد ذات مرة, فقال أني قمت البارحة قلم أجد ما أتوكأ عليه الا هذه الجريدة ولا أدري لمن هي فأخذتها على وجنه الدلالة على العزابة عموما, فسل عن صاحبها وادفعها له.

الجماعة أولى واهم من الفرد

وتوجه إلى وغلانة فوجد بين أهلها تنازعا وتدابرا وفيها رجل من لواتة يسمى أبد الله من ذرية ابد الله السكاك, يعنتهم في الأمور وينزع إلى الخلاف والتشاغب, فقال له أبو عبدالله لما علم أنه أحد أسباب الخلاف بين جماعتهم: أعلم يا أبد الله أنه ليس واحد أفضل من جماعة غير النبي عليه السلام, وأعلم يا أبد الله أن من يتكلم وقد احتيج إلى كلمة فقد ابتلي ببليّة, ومن يتكلم ولم يحتج إلى كلامه فقد ابتلي ببليتين.

ضيوف الله أولى بالإكرام

ومن إثارة وحسن آثاره ما ذكر أنه قدم وغلانة وبها جماعة من التلامذة العزابة, فجلس أبو عبدالله في ظل النخيل التي عند راس تغرمات, فأطرفه أبو عمران موسى بن كنون برطب بني باكور وقتاء, فلعم رحمه الله أن ذلك لا يؤثر به غيره وأن العزابة الغرباء قد يكون بهم تشوق لمثل هذا مما يستغرب فلم ينفرد بذلك دونهم فقال له يا موسى أعلى تجتأ بمثل هذا, وتجهم في وجهه, فقال وما ذلك؟ قال تتحنني بمثل هذه التحفة ومعك أضياف الله لا يتحفهم أحد بمثل هذه التحفة, وهم أولى من أوتر بها فاذهب وادفع ذلك إليهم وطلب نفسا بما يقر عيونهم فقال أن هذا شئ يسير لا يجزى فيهم, ولا يقولهم مقاما فقال بل يقوم ولهم أي مقام فجز القثناء على عددهم, أو أكثر من عددهم ثم ضعه على الرطب, ثم ادفع لهم, ففعل ولا يبعد أنه تناول لنفسه مثل نصيب أحدهم لا زيادة وكل ذلك ليبقيه سيرة يقتدي بها من رآه أو سمع به.

ومن الكرامات ما ذكر أبو الربيع أن الجراد نزل "بتين يسلى" وكاد يتلف ضيعة الشيخ أبي عبدالله فدعاني قال لي: صل إلى الضيعة فاقرأ هذه الآية "سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسأرب بالنهار له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله, أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقول سوءا فلا مرد له, وما لهم من دونه من وال" ثم ناد؛ يا من هنا من أخواتنا يستعين بالله وبكم الشيخ الضعيف الأعمى, على دفع الجراد عن ضيعته, قال ففعلت ما امرني به, فانكشف الجراد وانقشع بأذن الله, ونحو ذلك ما ذكر انه كان نازلا بالبادية في فصل الربيع بالناحية الغربية إلى بلاد أريغ, فنفرت بغلة الشيخ وصارت متوجهة إلى بلاد أريغ, فلم يستطيعوا ردها, فقال: قوموا يا إخواننا ردوا على الشيخ الضعيف الأعمى بغلته ففعلوا فرجعت البغلة دون أن يردها أحد.

ومن حكمه وأمثاله في ذم الزمان وأهله قوله: أن أهل زماننا هذا كالسبخة, أن أبتلت أزلقت, وأن جفت خدشت وكالتبوس أن اجتمعوا تتناطحوا, وأن افترقوا تصايحوا وقال: قطيعة الرحم كقطع عضو من الجسد, لا يخاط ولا يربط, ولا يناط.

خروج الشيخ من اريغ

وذكروا أن بني ورزمار طغوا واكثروا من الفساد وقطع الطرق وأنواع الأذى, فاجتمعت جماعة أهل ريغ عند الشيخ أبي عبدالله فوعظهم وذكرهم على حسب ما جرت به العادة في مجالسه ثم

ذاكرهم فيما تدمر به السالكون في الطرق، والمستضعفون في الأرض من أضرار بني ورزمار بهم، وانهم ينبغي لهم النظر في حسم هذه العادة، واكثروا القول في ذلك، فأجاب قائلهم بان قال: لا طاقة لنا، وما عسى إن نقدر عليه؟ فقال لهم الشيخ: نحن نقدر إذا على أنفسنا فارتحل بأهله وعياله ونزل أيفران من قرى وارجلان، فأقام فيهم عاما فضاعت أحوال أريغ لفقدهم أبا عبدالله، وما كان يصلح من أحوالهم وفسادهم فاجتمعوا في جمع كثير، وقصدوه ورغبوا إليه في الرجوع إلى موضعه وكان من قولهم أن قالوا له: لم تركت ضيعتك وقد أقبلت منفعتها وأقبل خيرها؟ فقال هي عندي وهذه "الزيتا" واحد - وأشار إلى شجر "الزيتا" حوله كأنه يراها - وما الذي في ضيعتي من فائدة إذا كنت منكم كالفريسة يعتادها السباع من كل مكان؟ أو لا ترونني أقصد من الآفاق؟ يقصدني العزابة للاستفادة فيقتلون بنواحي أريغ! وعدد عليهم أشياء قبيحة.

منشا الخلاف الاستبداد و العناد

وعن أبي عبد الله رحمه الله أنه أوصى بعض تلامذته عند وداعه إياه منفصلاً إلى أهله فقال: اذهب إلى منزلك وأهلك فإن وجدت من تقدمه في الأمور فتكتفي به فاتبعه فإن لم تجده ووجدت من تتعاون معه فتعاونوا على البر والتقوى، وأن لم تجده ووجدت من يقتدي بك في الخير فكن إماماً، وإن لم تجد من هؤلاء أحداً فالزم الطريق وحدك، وجانب الناس.

فانحل جميع ما اعتقد عليه, وحمدته واستحسننت حاله, وحمدت الله إذ لم تكن مني إليه عجلة بنشاط, ولا معاملة بمكروه.

وعن أبي عبدالله رحمه الله قال مثل الجماعة كالخشب ومثل من يستغني برأيه كالوتد الذي يضرب في الخشبة فتفريق الجماعة إنما يكون بسببه, وذلك إذا استبد برأيه في أمر تتبغي فيه المفاوضة كان حرياً بأن يخطئ فإذا أخطأ فلا بد من اجتماع الجماعة للنظر في أمره, فإذا أخذوا في الكلام في قضيته لم يعدموا من يقوم غضباً للخطأ يدافع عنه فيكون خاطئاً ثانياً, فهو كوتد ثان يضرب في الخشبة في سمة الود الأول, ثم إذا حاول الجماعة النظر في أمر الود الثاني قام الثالث يدافع عنه فهو بمنزلته وتد ثالث في سمة الودتين, فعند قيام هذا الثالث تتفرق الجماعة, ألا ترى أن الخشبة بعد الود الثالث تصير اثنتين؟ فلا ينبغي الاستبداد فقد ورد عن النبي ع انه قام " من استغنى برأية ضل, ومن هجم على الأمور عطب" ز

رأيه في بعض كتب الفقه

وبلغنا أن محمد بن سليمان النفوسي ومحمد بن غمرة زاراه حينئذ فسألهما عن مقدمهما, فاعلماه انهما قدما من غيران بني "اجاج" وانهما بها يدرسان الكتب كتب الفقه فاستحسن عكوفهما في دراسة الكتب. وقرر لديهما أن من يدرس كتب اللقط كمن يهيل أنواع الثمر إلى غزارته وان كتاب أبي غنم قد أوضح قول كل عالم من مشائخ, واسنده إليه وان أجوبة الأئمة هي مخ الفقه قلت إنما يعي أن ملتقطات العزابة مختلطة كم يجمع في غرار واحدة على مسائل شتى من أبواب شتى, فلا مسألة تنتظم مع أختها, ولا باب من أبواب الفقه يستوعب ويستقصي له فهي قليلة الفائدة جدا والغناء كثيرة لتعب والعناء, وأن الغانمي قد نظمت مسائله في أبوابه منسوبة إلى أصحابها, فمتى حفظت بابا عرفت مسائله ومن قال بها ومستند كل قول منهم فهي بالمصلحة عائدة, فنيه باجتلاب الفائدة, وأجوبة الأئمة مليحة في معناها, فانك تعرف منها وضع السؤال فتفرغ ذهنك لما في جوابه, كما فرغ المجابوب خاطره, واستجم فكرته للجواب عن فصوله مستقصات, فهي مخ كما قال.

الآخرة تقوم أحيانا بالدنيا

قيل وزار أبو محمد بعض أصحابه وقد كان عهده قبل ذلك على حالة سنية ورفاهية, فرآه في حالة ركيكة وثياب رثة, فسأه ما رءاه فيه من سوء الحال, فقال له ما هذا يا أخي؟ فقال له نحن في زمان من فقد فيه دنياه فقد أخرته وكان السلف في زمان من فقد دنياه لم يفقد أخرته, فالسعيد من احتاط على سلامة أخرته.

وقدم رجل من لمطة يسمى "منزو" إلى اريغ وقصد أبا عبدالله وتاب على يديه, وتلعم السير, وسلك سبيل الصلاح, فكان من حاشية أبي عبدالله ومن المقربين عنده فذكر أن أبا عبدالله أرسله في غنم له بجمال بني مصعب سائمة, فخرج فكانت الغنم تحت يده وله فيها غنم قد جمعها فيها جميعا, فأغار خيل بني غمرة عليه, فاستاقوا الغنم كلها فاتبعهم يطلب أن يردوها له, فأبوا, فألح عليهم, فاخرج أحدهم رجله من الركاب فركله بها, فتيست رجله, بأذن الله, فلم يطلق ردها في الركاب فلما رأى أصحابه ما نزل به رغبوا إليه أن يحالله فيغفر له, فامتنع فكرروا الرغبة ففعل بلانية, فقالوا لكن نرغب إليك أن يكون ذلك منك بنية, ففعل فانطلقت رجله سوية, كما كانت أول حال, فلما تحققوا ما هو عليه صاروا يتجنبون أذاه, ولا يتعرضون له بمكروه, فلما كان أيضا ذات مرة أعاروا عليه, وعنده غنم الشيخ أبي عبدالله أيضا, فقال لهم, خذوا غنمي واتركوا غنم الشيخ, فانه افضل مني, وإنما نالني بعض بركته فأبوا عليه, فكان عاقبتهم خسرا.

الحوض من جديد في مسألة الحرث وعبد الحبار
 وذكروا أن أبا عمران موسى بن زكرياء رحمه الله ضاق في الوقوف في الحارث وعبد الحبار
 والذين وقع فيهم الاختلاف فقال فيهما عبدالله المدوني بالوقوف لانهما لم يبلغنا صلاحهما
 إلا مقرونا بفسادهم فتنازعا فيهما فورد عليهما يوسف بن نفاث فسألاه عنهما، فسمع مقالة
 المدوني فقال هذه نكارية بعينها واستحسن ما قال أبو عمران ثم كان بعد ذلك بأيام مجلس
 آخر حضره جل العزابة المشائخ، فيهم أبو عمارن فسألهم أبو عمران ما تقولون فيمن
 وقف لكم في أئمة المسلمين؟ فأداروا السؤال بينهم حتى انتهى إلى المدوني، فقال من وقف
 فيهم دون أن تقوم عليه الحجة فلا شيء عليه، فلم يفتح السائل بهذا الجواب ثم قدم عليهم
 يوسف بن سهلون فسألوه عنها وعلم ما كان من جواب كلا الشيخين، فقال لهم كفوا عن
 منازعة الشيخ فلعله لم يبلغه ما تقوم به عليه الحجة فيهما قبل حد ثهما، فكتب أبو عمران
 إلى الشيخ أبي عبدالله سؤالا عن هذه المسئلة وكتب له اخبرني بما حفظت فيها عن شيخنا
 أبي نوح رحمه الله فأجابه ما نصه - الله أعلم- في الحارث وعبد الحبار ، وأما رجل لم
 يبلغك صلاحه إلا مقرونا بحدته فليس عليك منه شيء والسلام، فلم يفتنعهم الجواب ووقف
 عليه يعقوب بن أبي محمد واسلان فقال أما أنا فقد ظفرت بهذا الجواب ولا أبالي في
 الحارث وعبد الحبار.

وعن أبي يعقوب بن أبي عبدالله قال أوصى أبي بألف دينار ثم استكثرها، وأوصى بخمسائة
 دينار، ثم قال يا يوسف يا بني هذه وصيتي فانفذها ولا جعلك الله في حل إن دفعت زائداً على
 أربعة دراهم لشخص، أي شخص كان، فإنما هي حوطة من أموال أهل الدعوة، وما أطعمتكم
 منها عشاء ولا غذاء إلا أنهم ربما أرادوا وجهاً فصرفت في غير الوجه الذي أرادوه.
 ومن تواضعه ما ذكر ياجر بن جعفر قال كنا في حلقة أبي عبدالله نقرأ عليه، فكان العزابة أرادوا
 كنس الغار فكنس معهم الشيخ أبو عبدالله وجعل يرفع معنا الكناس على عاتقه فقال له يوماً بعضنا
 وهو ينقل معنا: أقعد يا شيخ فإن العزابة يكفونك، قال أو يحملون علي ذنبي؟
 فكان يرقع قليلاً قليلاً جهد طاقته، فقلت له ارفع إذا أكثر من هذا، فقال لو كان رأيك يؤخذ لأخذنا
 به أنفاً، وكان أبو الربيع إذا شبه الشيوخ وضرب بهم المثل قال إنما مثل أبي عبدالله كما قال الله
 تعالى: ((ولو إلى قومهم منذرين))*.
 وكان أبو عبدالله إذا سئل عن أحد فأن علم به خيراً قاله، وإن علم غيره سكت ، و توفي رحمه الله
 سنة 440 أربعين وأربعمائة ودفن في مقبرة بمقربة غارة في ابلو و هو موضوع معروف
 بالبركة*.

أبو يحيى زكرياء وأبو القاسم يونس

ومنهم الشيخان أبو يحيى زكرياء وأبو القاسم يونس بن أبي زكرياء فصيل بن أبي مسور
 اليراسني رحمهما الله ورضى عنهم أجمعين لما علم الشيخ أبو عمار نجابة هذين الشيخين
 وتصرفهما في فنون المسائل، وسبقهما في حلبة الفضائل، أثبتتهما في طبقة شيخهما الذي قرأ
 عليه، واستمدا في رواية العلوم إليه، لعلمه بأنهما لم يقصرا عن مداه ولازاغا عن هداه، بل الكل
 فرسان حلبة وكلهم سابق، والساعي في أثرهم لاحق أو متلاحق، ولكل واحد من هذين الشيخين
 مزايا، وسجايا يالها من سجايا، جود الكسحاب، ودعاء كالشهاب، وحسن سلوك الطريقة وحفظ
 العلوم الحقيقية والتمسك من عرى التقوى بالأسباب الوثيقة، وما عسى يقال في هذين الشيخين

وهما فرعا تكل الجرثومة، والناميان في اكرم أرومة فطاب منها الخبر والمخبر، وكيف لا والأب فصيل والجد أبو مسور وقد تقدم في أول الكتاب من فضائلهما فصول، كلها فضل وما عداها فضول.

حكم طهارة ما صنع من نبات الأرض
ذكر أبو الربيع أن أبا زكرياء يحيى بن كرنان قدم إلى ناحية طرابلس زائرا، وكان بها زكرياء بن فصيل فاجتمع الناس يوما على ابن كرنان يسألونه عن أمر دينهم وذلك في مجلس محفل عظيم. وكان ممن حضر هذا المجلس زكرياء بن فصيل، فسأل ابن كرنان سائل عما يعمل من نبات الأرض كالحصير وما أشبهها هل تطهره الشمس إذا أصابتها نجاسة؟ فقال نعم تطهره الشمس، فقال أبو زكرياء: ليس هذا الجواب من المعمول به يا شيخ، كأنه لم يرض بهذا الجواب فقال ابن كرنان بل المعمول به وكرر صحته وكرر ابن أبي زكرياء المنع، فقال ابن كرنان فان الذي يقال في أولاد الشيوخ انهم غير منقادين صحيح؟ فقال ابن أبي زكرياء هل علمت أن عقبة المستجاب* قال لأولاده: إياكم والمرخصين لئلا تقارقوا دينكم وانتم لا تشعرون.

اخوة تصل إلى حد الدلالة والتدلل.
وذكروا أن أبا القاسم يونس بن أبي زكرياء وأبا نوح صالح قدما على أبي محمد عبدالله بن مانوج زائرين له، فلما أديا حق الزيارة وانفصلا عن موضعه متوجهين إلى موضعهما مرا بشجر تقاح قد أينع ثمره واحمر، والشجر لأبي محمد، فقال له أبو نوح الم ترها يا يونس حمراء؟ وكأنا راكبين، فنزل أبو القاسم وخلع ما كان في رجليه وجعل يمشي في رمل هنالك وأكثر المشي في موضع يتيسر فيه بيان الأثر لئلا يقع الشك في غيره، فعمد إلى الأغصان واجتنى من ثمارها ما رأى فيه كفاية، ودفع إلى أبي نوح فرد أبو نوح بعضه إلى أبي القاسم، وسارا إلى أهليهما فجاء أبو محمد فقال: هذا اثر أبي القاسم، وهذه منه دلالة لم يستبدل عندي ولم يزل مثله يدل في مال أخيه له ولغيره، وذلك يثبت المودة بينهما فقد حكى عن أبي عبدالله رحمه الله أنه قال من كان له أخ كأخي حاجب فليأكل وليرفع.

وكان أبو القاسم ممن يزور أبا محمد عبد الله بن مانوج فزاره مرة فتواردا ما يرد بين أمثالهما، فقال أبو القاسم لأبي محمد أن وكليلك على الحج قد اخذ وأخذنا معه فإن أذنت لنا أن ننظر إليك شيئا تستعين به فعلت فنظر له خمسا وعشرين دينارا ليدخرها لقضاء فريضة الحج، وأراد أن يحذب عليه فلم يقبله، واستحسن أبو محمد إثارة على نفسه وذلك لحسن ظنه ولا عجب في مثلها من مثلها رحمة الله عليهما.

الشيوخ الثلاثة الكنوميون

ومنهم الشيوخ الثلاثة أبو عبد الله محمد بن سودرين وأبو محمد بن عبد الله بن زورستن وميمون حمودي ابن زورستن الوسيانيون، ثلاثتهم من أهل كنومة رحمهم الله، كان هؤلاء نفر الثلاثة علماء زمانهم، وفخرا لإخوانهم وطرازا لمكانهم درسوا علوم النظر وأتقنوها، واحرزوا معاني الألفاظ بصيانة الكلام. ودونها فلم يقدم حينئذ من المخالفين مجادل، ولا نجم من خيالهم مناضل وهم لبنان رتبة الحلقة دعائم وعندهم ابتدأت وقامت، فكانوا لها من القوائم بعد أن جالوا في تحصيل العلوم وطلابها، وأخذوها كما يجب عن أربابها، فكانوا بدورا بأفق تقيوس تميل بهيجة بهم النفوس.

الشيخ يتخرج من تقديم معونة لأبق

ذكر أبو الربيع أن أبا محمد توجه إلى أبي صالح فسار هو واصحابه حتى وصلوا وسط السبخة التي بين نفزاوة وقسطيلية فرأى أبو محمد في السبخة شخصا اسود فحين رآه على بع ظن أنه غراب فقال لأصحابه ما ذلك الشخص فيما تظنون؟ فلما نظروا إلى الشخص تسارعوا إليه، فإذا الشخص أمة، فضموها ورفعوها، وأظنها أبقت فذكر أنه تكدر من أجلها خاطره وتكرر، فلم يهناً له عيش وحرار في وجه تخلصه من هذه الورطة، فلما وصل جربة قصد أبا صالح إلى المسجد، قال: "وكان وقت صلاة الظهر وحلقت الجماعة وناولوني كتاباً، فكنيت أقرأ وأفسر حتى جاء أبو صالح وأمسكت عن التفسير، فقالوا له: فسر فجعلت أقرأ الكتاب، فقال لي بعض من في المجلس: فسر لنا، وكان في المجلس أبو عمرو النميلي ولم أعرفه قبل ذلك، قال فطفقت أقرأ فقالوا له: فسر لنا يا شيخ فأحال أبو صالح على أبي عمرو النميلي، فكنيت أقرأ ويفسر فأصابني خجل لما فرط مني إذ تكلفت التفسير بمحضر منه، ولم أعرف مكانه قال أبو محمد ثم سألت أبا صالح عن مسألتني -أعني- تلافي الأمة وكنيت السبب في تلافيها*، وأوضحت له المسألة، طلباً أن يدلني على الخلاص فقال لي لا بأس عليك، لأنك لم ترد إلا خيراً، وما تعمدت إتلاف مال أحد ولا أثقلته أنت.

دين الله أعز من هذا:

وذكر عن أبي محمد أنه فتي أبي نوح المقرب من تلامذته، صاحبه في أسفاره وكان له موافقاً، كان المشهور من أسمائه أن يقال له فتي أبي نوح، كيوشع بن نون وموسى ١٠، فذكر أنه صاحبه ذات مرة إلى بني كطوف الذين حول تملى فألفاهم حين طعنهم، وتمادوا في رحيلهم، فتبعهم الشيخ حين نزلوا، فنزل الشيخ عن فرسه فأرسلها إلى المرعى، فلها أهل الحي في أشغالهم وغفلوا عن الشيخ حتى ضاق صدره من قلة التفاتهم، فقال لفتاه: اردد إلي فرسي فإن دين الله أعز من هذا، قال الفتى: فقممت إلى الفرس لأزاوله وأصلح هيئة ركوب الشيخ، وعيني ترمي إلى أهل الحي، فرأيتهم اجتمعوا بجمع يسرون إلى الشيخ مسلمين متعذرين، فلما أقبلوا قدت الفرس وأقبلت أمشي لمشيههم حتى التقينا عند الشيخ، وصافحوه واعتذروا فقبل عذرهم، ثم أني أخبرته بما كان مني من مماطلة وما اقتضته سياستي في ذلك فقال أحسنت يا بني، وناهيك. للعرماء طبائع مختلفة:

وذكر أن أبا نوح كان إذا سئل عن مسألة في الفقه يجاوب بأن يقول روى فيها هذا الفتى عن أبي صالح كيت وكيت، ويشير إلى أبي محمد عبدالله بن زوستن، وعن ميمون بن حمودي قال كنت أقرأ على بعض شيوخه حتى ظننت أني قد استقدت ووعيت ما عنده من العلم، حتى سمعته يوماً يقول: رؤية المديان غريمه في تقاضي بعض دينه، فلما قال ذلك ولم أسمع قبل ذلك قلت: لا تدرك للعلوم غاية، قلت: وهذا الكلام إنما أخرجه فيما يلوح بخاطري في المديانين أنواع، وطبائع تختلف، فبعضهم إذا أراد الغريم تقاضى دينه تقاضاه بعنف وإغلاظ، هذا إذا علم فيه لداً، وبعضهم يتقاضاه منه بكلام لين ودون التقاضي الذي وصفته، وبعضهم ينظر إلى الغريم نظرة يفهم منها التقاضي فتقوم عنده مقام مطالبة بأبلغ قول وأشد اقتضاء، هذا إذا كان ممن يستحي ويتقي على عرضه ودينه، فالدين الذي يكون على من هذه صفته هو الذي عني الشيخ، وهذا مقصده، والله أعلم، لا أنه استوفى بعض حقه، والله أعلم.

تعاونهم على تخريج الطلاب في ثلاث مراحل:

وذكر عن أبي يعقوب شيخ كان بنفوسة أMSNان، أنه كان مقصداً للمبتدئين فإذا انتظموا في حلقاته علمهم السير وآداب الصالحين، ثم ينقلهم إلى محمد بن سودرين فيجرون قراءة القرآن ويتعلمون اللغة والإعراب ثم ينتقلون إلى أبي عبدالله بن بكر فيعلمهم أصول الدين، والفقه، فكان

العزابة في ذلك الزمان يشبهون الشيوخ الثلاثة بثلاث تجارين أحدهم يحسن قطع الخشب من الشعراء، والثاني يشقها وينشرها، والثالث يركب الألواح ويسمرها، فيما يصلح بين الأدوات. وعن أبي عبدالله محمد بن سودرين أنه قال: بينما أنا أمشي في بلاد الساحل إذ رأيت باباً مفتوحاً ورأيت ناساً يدخلون ويخرجون فقصدت إليهم ودخلت، فوجدت بيتاً مفتوحاً، وإذا برجل جالس في دكان فكل من دخل ناوله الرجل ديناراً، فدخلت فناولني الرجل ديناراً، فأخذته فسرت غير بعيد ثم راجعت نفسي لائماً، مقبلاً لفعلي، ثم رجعت إليه فقلت له: أنا على غير مذهبك، فنظر إلي مبتسماً وزادني ديناراً آخر، ألا ترى أنه لم يقبل صلة من ظن أنه مخالف حتى تحقق بتلك الزيادة أنه أهل لصلته.

اختل الأمن في زمنهم حتى سقط فرض الحج:

وذكر أن أبا يعقوب بن أبي عبدالله تذاكر يوماً مع أبي محمد فبسط أبو محمد القول في ذم الزمان وعدم الإخوان، فقال له أكسب يا أخي من المال ما شئت، فلا أرى الحج ألا وقد سقط عنك لانتقطاع السبيل، وجور أهل هذا الزمان، قلت وقد صدق رحمه الله فإن فريضة الحج الاستطاعة، فإذا انقطع السبيل فكان من الجور ما يجحف بالمسافر في زاده فقد عذمت الاستطاعة، وسقط فرض الحج، وميمون ابن حمودي هو الذي يروي عن هود بن محكم أنه جاءه رجل من العزابة يستعين في افكاك كتب له مرهونة عند رجل نكاري في خمسة دنائير، فدعا هو رجلاً فقال له سر مع هذا الرجل إلى أحياء مزانة فاعلمهم بما جاء به فاعلمهم وتسارع الرجال والنساء كل يجمع ما أمكنه من دنائير ودرهم، حتى اجتمع مال كثير فجاء به إلى هود، فقال له يا شيخ هذا ما فتح الله على يديك فأنت أولى به وأحوج إليه لكثرة مؤن من يقصدك، فأخذ من ذلك كله خمسة دنائير وترك الباقي، وزعموا أنهم عند ما تداعوا لأعانة الرجل بسطوا بساطاً وجعلوا يلقون فيه حتى كاد يضيق عن زيادة حتى ناولوه وضموا أطرافه، وناولوه معه فلا أدري أميمونا أم هودا قال حينئذ: صدق الإمام رضي الله عنه في قوله المشهور بقيام هذا الدين بأموال مزاة*.

حكم اخذ الاجرة على تعلم القرآن

واجتمعت بوارجلان بالمسجد الكبير جماعة فيها أهل الدعوة منهم أبو عبدالله محمد بن بكر وابن سودرين وابن زورستن وعبدالله المدوني فسألهم رجل عن مسئلة وهي، الآخرة هل تؤخذ على تعليم القرآن أم لا؟ فتدافعوا السؤال بينهم، فقال عبدالله المدوني اجب الرجل عن مسئلته فقال له نعم تؤخذ الأجرة على تعليم القرآن فان لم تؤخذ علي فعلى ماذا؟ أعلى رعي البقر؟! فسكت الفقهاء توقيراً له، مع أنه لم يحسن العبارة تأدباً منهم وفضيلة، قلت وهذا الجواب غير معروف بالمذهب، والذي أنكر من الإجارة على رعي البقر فهذا الإجارة لا خلاف في جوازها، وكان ينبغي أن يقول بما في المذهب من جواز الأجرة على تعليم الأدب والخط، وصناعة الكتابة وادواتها دون أن يكون للقرآن ثمن، والعذر عنه رحمه الله كره أن يقول لا تجوز فيكون ذلك ذريعة إلى ترك التعليم فيفضي ذلك بالناس أن يكونوا أميين لا يعلمه الكتاب، يقول: فإذا جاز لراعي البقر الأجرة وهو يأخذها على إصلاح أحوال الدنيا فالذي يأخذها بسبب إصلاح الآخرة أولى.

أبو محمد عبدالله بن مانوج

ومنهم أبو محمد عبدالله بن مانوج اللمائي رحمه الله. أحد من نظر* فابصر واستبصر، وذكر حيناً فتذكر تلافى الفوات بعد حين. واعتاض الإجهاد بما ضيع عدد سنين، واطمأن بعد الحزن إلى السهولة، وعالج ما يعالج الشاب وهو في الكهولة يسر الله له الورود من منهل الوعظ

الفاظا فارتوى، وبادر وله يتباطأ وجد ولم يثن عن طلب الخير عنانه، ولا أزاح من الاجتهاد فكرته ولاجتماعه حتى أصبح من العلم مفعم الوعاء ومن القرب من ربه أهلا لإجابة الدعاء.

شيخ حكيم يؤثر في ابن مانوج ويوجهه

ذكر أبو الربيع أن أبا محمد عبدالله بن مانوج تاب بعد الكبر وسبب توبته أنه لقي شيخا من لماية وهو يرعى غنما له، فقال له الشيخ: اعلم، غنما ترعاها اللحية هي خير الغنم، وأن لحية تتبع الغنم هي شر اللحاء، فوَقعت التوبة في نفسه فتاب، وطلع حينئذ إلى المشائخ: أبي مسور، وأبي صالح، وأبي موسى عيسى بن السمع، فكثرت عندهم في الجزيرة ما شاء الله ثم رجع إلى أهله فلقي الشيخ المذكور فقال له: اعلم أن الغدران كلها تأخذ الماء وإنما التفاضل فيما يبقى فيها الماء، فرجع ثالثة إلى المشائخ فكثرت عندهم ما شاء الله يقرأ العلم، حتى تفقه وهو أحد الفقهاء السبعة المشهورة نسبتهم إلى غار امجماج*.

أخبار عن قناعة الشيخ وجوده

ومما يذكر من قناعة وقلة تعلقه بعلائق الدنيا ما ذكر أبو الربيع أن عبدالله بن مانوج لم يستسلف من أحد شيئا قط غير دينار واحد، استسلفه مرة ورده بعينه إلى الذي استسلفه منه، وليس منه هذا استغناء بل رضي بما قسم الله له. قال، ومع قلة ماله فان ضيافته لا تزال حافلة لا فضل عليها لضيافة ذوى اليسار، ومن ذلك ما ذكر أبو الربيع أن راعي غنم أبي محمد بن مانوج قدم عليه فسأله عن حال الغنم فقال: هي صالحة الحال، وأن وهب الله لها العافية إلى قابل فستكمل مائة فقال أبو محمد لا أحب أن تكون مائة، كما لا أحب أن أكون يهوديا.

ومن اجتهاده ما ذكر انه لم كبر وضعفت قواه وكان أعمش وكان يضر بعينه مرور الماء عليهما، فكان إذا وجب لعيه الاغتسال غسل جسده كله إلا وجهه، وإذا توضأ أمر الماء على أعضاء وضوئه إلا وجهه، ويتم في كلا الأمرين في مقابلة غسل الوجه، فكان دأبه على ذلك يتخذ مستحما في كل ناحية من نواحي خيمته الأربع بسبب الرياح، فقليل له فهلا اكتفيت بالتميم؟ فقال تلك مسألة "العجزانيين" لا أخذ بها.

تخرج الشيخ من الأموال المجهولة

وذكر أنه زاره مرة أبو عمران موسى بن زكرياء فتذاكرا في أنواع من الفوائد، وصنوف من العلم حتى افضت بهم المذاكرة إلى ذم الزمان، وما صار الناس إليه من ضيق الحال، والتخرج مما يدخل على الناس، وهم لا يعلمون أو يعلمون، فقال أحدهما للآخر أكثر ما عاش الناس عليه اليوم حمل الأشياء على احسن وجهها، وقال الآخر إنما ينبغي أن يرتكب ذلك في أحوال الطهارة والنجاسة، وأما في أموال الناس فلا، واستحسن الآخر ما أتى به.

العبادة هي التقوى والإخلاص

وسئل عن العبادة ما هي؟ فقال: النية والإخلاص لا ما يتخللونه من الاجتهاد في القراءة وغيرها، إذا لم يصحب ذلك تقوى الله، إلا ترون ان داود بقي الفتن ويقعدها وهو يحفظ ما بين الدفتين وأكثر، قصده في ذلك ما يقدم به ابنه عما هو ليس بسبيله، وكان ينهى بنيه عن معاضدة داود ومساعدته، خوفا أن يصيبهم ما أصابه، ولم يزل متكرر النفس من أجله لسلوكه غير طريقة أبيه، حتى عادت عليه بركته، فألهمه الله الرشاد وتاب عما كان عليه، وحسنت توبته بهمة الشيخ. وذكر الشيخ ماكسن بن الخير قال لما توجهت إلى جربة يرسم الطلب كان طريقي على الشيخ أبي محمد عبدالله فاستشرته في أي فن أبتدئ فيه القراءة، الكلام أم الفروع؟ فقال: يا بني اقرأ كليهما فقلت: أرايت أن كان ذهني يقصر عن ذلك؟ قال: فدينك إذا يا بين يشير إلى علم الفروع، والله اعلم.

لا يرضى منه أن يزروه وعليه دين

وذكر أن عبود بن منار زار ذات مرة أبا محمد، فقال له يا عبود انك لعظيم القدر عندي، فكيف حالك يا عبود؟ فقال بخير يا شيخ، إلا أنه علي ديون قال له أياكون عليك الدين وتزورني؟ ابعد عين يا عبود، فانفصل عنه وأتى إلى موضعه فقال لعلي بن خلف أخي سليمان الفقيه بادرني يا علي يما يخلصني من هذا، فاتاه بمن اشترى منه قطعه غنم وعبدا، أو مطمورة شعير، فقضى دينه، فبد ذلك بأيام أغارت عليه غارة للنكار خرج بها رجل منهم يعرف بمنصور بن فلديك يلقبونه في " زريق " فدافع عبود عن نفسه وماله وأهله، حتى قتل شهيدا فكانت زيارته لأبي محمد فضلا من الله ونعمة. قيل فرآه بعض أهل الصلاح في نامه فقال مضيت وتركنتا يا عمي، فقال لا تقل ذلك فأني تركت فيكم سليمان بن خلف نذيرا بعدى.

وصية لعمرس الزواعي

وزاره مرة عمروس بن عبدالله الزواعي فسأله عن حاله فاعلمه أنه صالح الحال، فكان مما قال له يا عمروس اجعل تقوى الله جنة فانها خير جنة، وأحسن معاشرتك للناس فقال له أي الناس؟ فقال أحسنت، وفهمت، الناس هم الصالحون.

يختار أن يترك الناس قبل أن يتركوه

قال أبو الربيع كان أبو محمد يقول بعد ما كبران من العلماء من يقول أن العالم إذا أحسن بعقله ضعفا لعله أو لكبر فلا يجوز له أن يفتي، وأنا أخذ بهذا القول وأترك الناس قبل أن يتركوني، وكان قد آخر الله في اجله فلم يعرض نفسه لم يجر عليه نقصا.

أبو جعفر أحمد بن خيران

ومنهم أبو جعفر أحمد بن خيران الوسياني، رحمه الله ذو الاجتهاد العظيم، والتشمير والتصميم، الثابت على الورع وملازمة المنهاج القويم، العامل بما يرجو فيه خلاصة، المؤثر على نفسه ولو كانت به خصاصة ليس بكثير في العلم، ولكنه حاز من التقوى الخلاصة، كان أبو عبدالله محمد بن بكر يقول لأهل الدعوة من أهل قسطلية: قطع عذرکم أحمد بن خيران أن زعمتم أنکم ؟؟؟؟ لتحيى ما كان أحياء من الدين، وإلا كنت مسؤولا عنا، واعلم انه لاغنى لنا عنك، فاجاب رغبتهم واعتقد المقام فيهم، فانكحوه زينب بنت أبي الحسن، واقم حيننا ثم انحدر إلى اريغ واستصحب ما يتسر من صداق بينت أبي القاسم، فقدم على الشيخ أبي عبدالله واعلمه بما كان من رغبة قومه فيه، وانه قد قضى الله بفارق ابنة الشيخ وقد جئت بما أمكن من صداقها، والباقي أن شاء الله أوفيه، فاخبر أبو عبدالله أبا القاسم فقال، معاذ الله أن نأخذ من عبدالسلام عرضا من أعراض الدنيا وإنما جمع بيننا وبينه الدين والتقوى لا الطمع فيما نناله منه، واشهدوا إني قد تحملت جميع ما وجب لها عليه، وتركت له، فلم يقنعه ذلك حتى أبرأته المرأة من نفسها، من جميع ما كان لها عليه من صداق، فلما تخلص بعضهما من بعض قال له الشيخ يا عبد السلام ما حصلت؟ كأنه يشير عليه بالإقامة معه، فلم يمكنه ذلك، فرجع إلى أهله وأقام فيهم حتى ارتحلت زناته إلى طرابلس وارتحلت معه مزاته، فكان عبد السلام معهم مدة إقامتهم، فلما انقلبوا إلى إفريقية قصد عبد السلام إلى جبل نفوسة فلما رجع انتقل إلى قسطلية فسكن قلعة بين درجين فكان فيها مرفها.

وكان حينئذ كثيرا ما يقول لزینب: يوشك إن يغلب بنو العلم على بناتك يا زينب، تعرض لها بالنظر إلى زوجة ليهب الله له منها ولدا ذكرا وكان حينئذ كثير البنات فجرى من قدر الله أن وقعت مجاعة في بلاد طرابلس وسنة شديدة، تسمى سنة فرورار سنة ثلاثين وأربعمائة فانجلى أهل طرابلس في الأفق، ووقع رجل من ورغمة في قلعة بني درجين فنزل الوردغى في جيرة دار عبد السلام، ومعه عياله وله ابنة، فاستحسن زينب صورة بنت الوردغى فخطبتها على

بعلمها، فتزوجها وسكنوا معه في دار واحدة، فطلع هو وزوجته إلى أفريقية ووصلا إلى مزاته ففى مغيبهما نزل عسكر لصنهاجة على قلعة بني درجين فحاصرها حصارا شديدا، وذلك سنة أربعين وأربعمائة فلما اشتد عليهم الحصار ولا صريخ لهم خرجوا عليهم خروج رجل واحد يقاتلون، حتى قتلوا عن آخرهم، واستبيح ما في القلعة، وهدمت فخرجت امرأة ابن أبي وازجون معها بناتها، وجعلت تنادي يا آل مزاته فسمع دعوتها رجالان من العسكر فحاطاها وبناتها حتى تخلص ولم ينكشفن فقد عبد السلام فوجد أحوالا لم يستقر له معها قرار، فاجمع على الارتحال إلى سوف فتسامعت به بنو ورتيزلن فساروا إليه بالحمولات وارتحلوا به إلى أخلو، فمنحوه أرضا عظيمة فعمرها.

وولد له من الورغمية ولد فسماه سعيدا، فلما بشر به في آخر أيامه، فزاره عند احتضاره فوجده في السياق فجعل يتأسف ويظهر الجزع لفراقه، فقال له رحمه الله: يا أخي اقصر عن هذا، ولكن الدعاء فصار يكررها حتى قبض رحمه الله.

حزن الشيخ على موت الإمام محمد بن بكر وكان عبد السلام يقول بعد موت أبي عبدالله إنما مثلي كمثلي رجل يسير في يوم شديد الحر، فبينما هو يمشي إذ وقعت له شجرة عظيمة فقصدها جاريا ليتقيأ ظلها، ويتقى بها حر الشمس، فلما وصل إليها اقتطعت فازيلت فبقى ضاحيا.

وذكر أن عبد السلام اشترى بأفريقية خرافا من السوق فلما استوجبها وجا بائعها ليقبض الثمن قال له: "ارأ" ومعنى هذه الكلمة بلغة صنهاجة: هات، فغلب على ظنه أنه صنهاجي، فدفع له ثمن الخرفان ثم تصدق بها، ولم يستجز اقتناء غنم غلب على ظنه أنه اشتراها من صنهاجي*. وذكر أبو نوح، أن أهل امسنان سألوا عبد السلام عن رجل زنى بامرأة وأقر على نفسه بالزنا، ما الحكم الذي يجرونه عليه؟ فقال ادخلوه المذبة وارجموه، ففعلوا، فلما فرغوا عنه، وحضرت صلاة الجمعة صلى ركعتين بخطبة، ثم قال أن الكتمان يأخذ من الظهور، والظهور لا يأخذ من نفوذه فتدخل أحكام الظهور لا ينبغي لهم أن يدخلوا تقية في شئ من الأحكام التي تلزم أهل الظهور، ففعلوا ما لا يحل فعله إلا في الكتمان، والكتمان حينئذ لا تدخل أحكامه في الظهور*.

الشيخ أبو عمران المزاتي

ومنهم أبو عمران موسى بن زكرياء المزاتي رحمه الله رأس من رؤوس المذهب واعلم علمائه، وشمس من شموسه الكاشفة لظلماته، والعلم والأدب حليته والكرم الصبر سجيته، شيمته تفوق الشيم، أدرك المشائخ وروى عنهم العلوم والآثار، وسادت تلامذته فكل منهم منير في الدين ومنار، وله كرامات مذكورة، وبركات مشهورة، ولنذكر معه هاهنا أهل غار امجاج السبعة إذ كان رأسهم على أن منهم حينئذ الشيوخ والشبان، ولكنهم لما ضمهم مضمرا واحدا، جرى ذكرهم هنا في نسق وأجروا في ميدان، ولجميعهم فضيلة في هذا الفن وشأن من الشأن.

المشائخ السبعة و تأليفهم للديوان

وهم أبو عمران موسى بن زكرياء هذا، وجابر بن سدرمام، وكباب بن مصلح وأبو جبير المزاتي، وأبو عمرو النميلي، وعبد الله بن مانوج اللمائي، وقد تقدم ذكرهما، وأبو يحيى زكرياء، بن جرنان النفوسي رحمهم الله وسبب نسبتهم على غار امجاج أنهم اجتمعوا به وصنفوا تصنيفا في الفقه مشهورا، في اثني عشر جزءا. فتولى نسخة أبو عمران لما خصه الله من جودة الخط، فنسب إليه التصنيف، وليس له ما عليهم فضل سوى فضل البنان وإلا فهو كأحدهم في فضل البنيان، شريكا فيما أودعوه شركة عنان، ذكروا أن أبا عمران رأى في منامه أن يده صارت

مصباحا فقص رؤياه على معبر الرؤيا، الماهر في تاويل الرؤيا، فقال له هذا رجل يحيى دين الله بيده فلم يبعد.

يتأسف على ثلاثة فانتته

وقال أبو محمد لا اندم على شئ فانتتي من الدنيا كندمي على ثلاثة أشياء لتركى إياها قراءة كتاب الجهالات، وزيارة أهل الدعوة ومجالسة أبي عمران سافر مرة زائرا لأهل الدعوة فاجتاز بقسطنطينية، فنزل عند أبي جعفر احمد بن خيران، فقال له أبو جعفر هلم بنا إلى زيارة الغاية زوجة الشيخ أبي القاسم، ففعلا، فلما دخلا إليها وسألا عن أحوالها سألتها عن نازلة نزلت بها وخسست أبا عمران بالسؤال، فقالت له ما تقول في امرأة صحبت النساء إلى الوادي فنزلت في الماء ثيابها وجعلت على رأسها سترة؟ فقال لها أيما امرأة نزلت في الوادي مكشوفة فإنها ستقوم في سبعة أودية من نار جهنم، قال فتغير لونها لما سمعت ذلك، فقالت له هل من رخصة؟ فقال لها إذا كان ما ذكرت من السترة فانه أشبه شئ واقرب إلى السلامة، ثم قلبك عليها السؤال فقال لها ما تقولين أنت فقالت نعم هكذا سمعته من سعيد بن يونس.

وذكر أن أبا نوح سعيد ابن يخلف قدم إلى وارجلان فجلس في مسجد " تماواط " فرأى رجالا يغتسلون ويتوضأون من ساقيتها ويطلعون إلى المسجد حفاة، يطأون في الطين فانتهرهم ونهاهم عن ذلك، وقال أرى أن الذي يقوله الناس حق: أن أهل وارجلان سيصيرون مخالفين للمذهب، وإنما حملة على هذا الكلام ما طبع عليه من التحرج والتتره فيما طهر ونجس، حتى أ، ثياب صلاته غير ثياب لباسه ويجعلها في خرج حسبما تقدم.

واجتمع بها في مجلس هو، وأبو نوح سعيد بن زنگيل فوقع بينهما كلام في مسألة أمة أخذت في الصلاة مكشوفة الرأس فلما قضت بعض ركعات صلاتها، اعتقها ربها فأتمت صلاته كذلك، فقال أحدهما عليهما إعادة الصلاة لان حكمها أخيرا غير حكمها أو لا، وقال الآخر ليس عليها إعادة لأنها دخلت في فعل عبادة على وجه جائز لها، فبينما هما في هذا الاختلاف إذ طلع عليهم الشيخ أبو عمران موسى بن زكرياء، فلما رأياه قال أحدهما للآخر اسكت فقد جاء من هو أعلم مني ومنك ثم سألاه عنه فأحباب بهما وافق أحدهما، قلت هكذا حكى صاحب الكتاب مبهما، والذي يغلب على خاطر انه أجاب باسهل قوليهما وقياسا على غير هذا قلت والذي يظهر في قول ثالث بين قوليهما وهو إنها لا تخلوا أن تكون عالمة بوقوع العتق عليها من سيدها إلا لا تعلم حتى خرجت من الصلاة، فان علمت وقد بقي عليها شئ من أركان صلاتها وتمت صلاتها مكشوفة الرأس فأولى والأصح إعادة الصلاة، وان لم تعلم فأولى والأصح لا إعادة عليها، فكيف ترى هذا الجواب؟

فضل تعلم العلم ونشره

وعن أبي محمد أن أبا عمران قال مرارا في مجالس كثيرة تعلم حرف واحد من العربية كتعلم ثمانية مسألة في علم الفروع، وتعلم مسألة واحدة كعبادة ستين سنة، ومن حمل كتابا إلى بلد لم يكن فيه ذلك الكتاب فكأنما حمل ألف حمل دقيقا، وتصدق بها على أله ذلك البلد، وهكذا في فضل العلم وطلبه.

وذكر أن جابر بن سدرمام أضاف اضيفا، فلما استدعاهم وكان ذلك بمحضر صاحب له يعرف بخليفة بن تزوراغت، فرعب إليه جابر في أن يصحبهم فامتنع فألح عليه، فقال له: يعلم الله إنني لا اصحبهم، فقال له جابر أما الآن فان شئت فاصحب وان شئت فامكث فالكفارة قد وجبت، قال الراوي وإنما أوجبها لأنه حتم في شئ لا يدرى أن يكون ام لا، قلت: وهذا تشديد لأنه لم يذكر شيئا من ألفاظ القسم.

أبو إسماعيل البصير

ومنهم أبو إسماعيل البصير إبراهيم بن ملال المزاتى رحمه الله شيخ عبادة وورع, واجتهاد في معرفة ما فرض الله وشرع كثير الملازمة لزوايا المسجد, لالتقاط الفوائد, يغدو إليها ويروح إلا بطينا باستفادة كل خير, وعنه يحكى أبو محمد ماكسن أنه كان يعلمه في درب بني ميدول من بني راسين بتوزر, وأنه اكتسب فيها خمسمائة كتاب, واكل فيها خمسمائة رأس ضانية سوداء, وعنه يحكى أبو محمد ماكسن انه قال وقد آب من سفر لقد استقدت في سفري هذا ثلاث مسائل, فذكر المسائل التي يذكرها العزابة ويرددونها كثيرا, وهي مسألة القراد المتعلق بالميت, والطريق في المقبرة, فالقراد أن أثر يتيم للميت, وأن لم يؤثر غسل قلت والغسل عندي على كل حال أولى, والمسائل الأخرى يعطى الحكم للمتقدم منها أيهما كان.

لا يحل المبيت عند قوم اظهروا المظالم واعلنوا المناكر

وحكى عنه أنه زار أهل الدعوة فاجتاز على بلاد اريغ وعلى كدية بني غمرة, وهم قوم ظلمة فتاكون أهل فساد وغارات, في المنزل قوم صالحون, فرغبوا إليه بان يبيت عندهم ضيفا تلك الليلة, فقال لا يحل المبيت عند قوم اظهروا المظالم, واعلنوا بالمناكر, فإذا قيل لهم انقادوا إلى الحق لا ينقادون, ولا يدعون, فتجاوزهم ونزل " بتميرينت" فلم تكن الأيام قلائل حتى نزل عليهم حماد بعسكر فأجلاهم ودمرهم تدميرا.

أبو محمد عبدالله بن الأمير

ومنهم أبو محمد عبدالله بن الأمير اللمائي رحمه الله, شعار الدين والتقوى مع صبر ورصانة تزوى على رضوى ومحافظة على السير والآثار, والتحلي بالتواضع, والتخلي عن الاستكبار, إذا رفع عينه إلى السماء فتحت له أبوابها لاستجابة الدعاء, فكان من يعاشره يتقي عقوقه, وكل من يعرفه في الصغيرة والكبيرة حقوقه.

يفطر من صوم النافلة إرضاء لأخيه في الله

ذكر أبو الربيع أن أبا محمد عبدالله بن الأمير زار أبا محمد عبدالله بن مانوج, وع ابن الأمير لحم مطبوخ وذلك في يوم جمعة, وأبن مانوج حينئذ صائم ف تناول وأكل منه, وذكر إبراهيم بن يوسف أن ذلك بعد الظهر, لما علم ابن مانوج انه إنما قصده به على جهة الود خشي أن يسخطه ويعقه أن امنع من أكله, فأثر رضاه على تتميم صوم هو فضيلة من الفضائل, واعتقد أن رضى الشيخ لاحق بالفرائض.

احذروا سخط الله فانه يعم

وحكى إبراهيم بن إبراهيم أن أبا محمد كان يعظ لماية ويحذرهم, ولقد لهم يوما فيما أورده عليهم " يا لماية" احذروا أن تؤاخذوا بذنوبكم, ثم قال من فم أبي صالح إلى أذني, الويل لي أن ظلمته, سمعته يقول: السخطة تعم والرحمة تخص, يهلك الصالح بذنب الطالح, قال الله عز وجل " ثم صرفكم عنهم ليبتليكم" وقال "إنما استدلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم".

وقال أبو الربيع جئت لزيارة عبدالله بن الأمير فلم أجده في منزله, فأعلمت انه في الاندر فقصدته, فوجدته في جيلة صوف وقد وضع كساءه وهو يضم أطراف الاندر, فلما رآني تتحى الى كسائه فلبسه فلاقاني, فصافحته ثم اقبل يعتذر كأنه أساء في وضع الكساء, وقلت له وهل في ذلك من بأس؟ أليس هو العمل في الحلال؟ فقال نعم ولكن أين من يحسن العمل في الحلال؟ إنما يحسن ذلك أبو صالح, فقلت وكيف عمله, قال كان في أيام الحصاد يحمل الزرع إلى الأندر على ناقة له, فإذا كان وقت صلاة الضحى أناخ ناقته وحط عنها حملها, ثم عقلها, وحل إزاره واخذ في الصلاة, حتى يصلى ما كان ذلك, ثم يرجع لناقته, فهكذا العمل في الحلال, إنما هو ما لم يضر بعمل الآخرة.

علف دابة الضيف من جملة اكرامه

قال أبو الربيع وجه إلي سليمان بن موسى شيئا، وأمرني أن اشتري به طرفا من المأكّل والطافا فأتى بها إلى عبد الله ابن الأمير ليأكلها، ففعلت من ذلك ما أمكنني ثم توجهت إليه، فمررت في طريقي على كلا خصيب وكنت على حمار لي، فجمعت من ذلك لحماري ما قدرت أنه يكفيه، فلما وصلت إليه قال لأولاده، اعلفوا حمار سليمان، فقلت له يا شيخ انه ليس بحمار يعتاد العلف، وقد جمعت له في طريقي ما يكفيه، فقال: هكذا جرت قصتي مع عبد الله بن مانوج، جئته ذات مرة وأنا على دابة وقد جمعت لها كلاً كثيراً، فقال: اعلفوا دابة عبدالله، فقلت له ما هو حمار علف، فقال لا بل يعلف، ولا بد من ذلك، فان علف دابة الضيف يا عبدالله أهم من إطعام الضيف.

وكان عبدالله بن الأمير من أمة سوداء وكان ذلك غالباً على لونه، فذكر عنه انه صحب في بعض تغلباته شيخاً يعرف بعزّون، فلما كان في بعض الطريق أراد عزّون تكليف أبا محمد أحد الكلفات الكبار المستثقلة، فلم يساعده فقال عزّون معرضاً لسواده لو كان العبد من ديباج لكانت إطرافه من تليس، فقال أبو محمد يا عزّون أنفترق بعد هذا الطريق ولا بد؟ قال نعم، قال تعال فاركب على عاتقي.

أبو زكرياء يحيى بن ويجمن

ومنهم أبو زكرياء يحيى بن ويجمن الهواري رحمه الله* الورع الزكي، الفطن الذكي الدين النقي، المقر بفهمه كل شاف قصي، الكاشف بذكائه كل غامض خفي، المذلل بسياسته كل عاص قسي، المعترف بفضل البديوي والحضري، أن نطق جلا المبهم في صورة جلي، وأن صمت فله معتبر في كل شيء.

الناس في شأن على بين إفراط وتقريط

قال أبو عبدالله بن محمد قلت لأبي زكرياء ما معنى قوله عليه السلام هلك فيك فئتان يا علي: محبك وبغيضك المفرط؟ فقال صدق عليه السلام، إما محبه المفرط ففرقة الشيعة الذين قالوا فيه مثل قول النصارى في عيسى عليه السلام: انه نبي، وانه حي لا يموت، وانه في جبال رضوى، وانه الاله، وانه إمام مطاع ومن عصاه فهو كافر، وانه إمام يجوز له تبديل الكتاب والسنة ونسخهما، وانه أولى من أبي بكر وعمر، وانه وصي، وأن آلامه ارتدت إذ لم يولوه. وإما بغيضه المفرط فأصناف الصفرية الذين اتفقوا على أن كل معصية شرك، وقال قوم كل كبيرة شرك، فجعلوه مشركاً لأنه حكم الضالين وقتل المسلمين، فافهم ذلك.

الشيخ يابى عليه أن يذكر الحديث بدون سنده

وقال أبو محمد كنا في أجلو فجلسنا يوماً للمذاكرة، وكان رجل عزابي يقرأ آثار الربيع عن ضمان عن جابر رواية عبدالله بن صفرة، قلت وكنت أفسر بلسان البربرية ما يقرأه القارئ فكنت كلما قرأ سند أثر من أثراه تجاوزت السند فلم أتكلم عليه وتركته إلى أن يصل الحديث، أو الأثر فأتكلم عليه فسمعنا أبو زكرياء وكان في ناحية قال: مالك لا تذكر إيمتك؟ فعدت اذكر كلما قرأ فاقول: روى أبو صفرة عن الربيع عن ضمان عن جابر.

وقال أبو محمد كنت إذا سألت ماكسن عن مسألة عويصة توقف فيها، وقال: دعها الآن حتى نسأل عنها صاحب الغوامض أبا زكرياء يحيى.

يحاسب الله العبد على مبلغ عقله

وقال أبو محمد اجتمع الشيوخ ذات مرة في مسجد الشيخ يكنول بن الطويل في تمولست وكان الاختلاف بين جماعة "تين وال" وأرادوا أن يصلحوا ذات بينهم وكانوا يقرأون كتاباً فمروا في الكتاب، على خبر وهو: "إن رجلاً كان في زمن موسى عليه السلام وكان للرجل حمار فقال يا رب لو كان لك حمار لعلفته مع حماري، وربطته مع حماري، فهم به موسى عليه السلام

فأوحى الله إليه: يا موسى ذلك مبلغ عقل عبدى فتركه موسى عليه السلام" واجتمعت بأثر ذلك جماعة "تين وال" فجعل الشيوخ يعاتبون رجلا يلي الأمر يقال له أيوب بن حمو, فقال لهم أبو زكرياء: اتركوا عنكم البله الذين تمتلئ بهم الجنة, يعنى - الأثر المروى- ألا ترون قصة صاحب الحمار؟ دعونا من هؤلاء وهلموا لمن يثقب الخرزة بكيسه, مثل ياتياسن ين حمو فجاءوه ولحوه حتى تابوا واصطلحوا.

وذكر إن أبا زكرياء يحيى بن ويجمن رأى ليلة القدر في مصلى المسجد عند موضع المحراب الذي يلي الحائط المصلى, في دار يحيى بن ويجمن وهو اليوم هنالك معروف مما يلي الجانب الغربي, وهو من المواضع المزورة المعروفة بالبركة.

الشيخ يجس الأب ليؤدي دينه على ابنه

وذكروا إن رجلا ممن ينسب إلى الديانة كان لابنه عليه دين, فمأطله فدعاه إلى المشائخ باجلو وفيهم يحيى بن ويجمن وغيره من جماعة عرابة اجلوا, فجبروا الأب على الدفع وحبسوه وجعلوه في الخطة, واعلموه انه لا يبرح حتى يقضي دين أبه أو يسرح الابن سبيله, فسمع بذلك ماكسن, وقدم من تين وال إلى مشائخ اجلو, فقال لهم علام يحبس الأب في مال ابنه؟ فقال له أبو زكرياء يحيى بن ويجمن قد حكم به أبو عبدالله بن بكر بوغلانة, وحكم بها هنا في اجلو ونحن نحكم بها فلا يخرج من تلك الخطة حتى يؤدي ما عليه.

أبو عبدالله محمد بن سليمان

ومنهم ابو عبدالله محمد بن سليمان النفوسي رحمه الله جال في حلبة المتقين, وجمع الله له بين الدنيا والدين فكان مرضى الحال موسعا عليه في المال, فكان ينفق مما آتاه الله من سعة عطائه, حتى أنسى كل ذي سخاء بسخائه فانه يهب من كلتي الذخيرتين لا تغيب هباته, ومهما بدرت أملا في بدره فطيب يخرج نباته, يفيد العلم ويكسو ويمون, فنيله مأمول, وحرمانه مأمون, يحنو على التلامذة حنو أبيهم, ويقويهم دون قرابة ويجتنبهم.

الشيخ يعلم طلبته وينفق عليهم

ذكروا إن أبا عبدالله بن سليمان كانت عليه حلقة عظيمة يعلمهم ويطعمهم ويكسيهم من ماله, وكان إذا قبل الشتاء اشترى لهم أكسية جديدة فيها دفء فإذا قبل الصيف اشترى لهم أكسية خفيفة برسم الصيف, ويدخر الأخرى للشتاء وربما باعها بالثمن الذي اشتراها به ويخرج لهم كل يوم ما يقيم طعامهم وأداهم, وقال أبو عمرو قال لي إبراهيم بن يرمون - وكان شيخا صالحا - : دعاني أبو عبدالله يوما فوجدته يلوت عمامته ويصلح نفسه, فقلت له: ما هذا يا شيخ؟ فقال عزمت على الوصول إلى "شوس" فان لي فيها شجرة زيتونة مشرفة على السوق, تضيع غلتها فلا انتفع منها بشيء, فأردت بيعها فقلت بكم تريد بيعها؟ فقال: إذا وجدت عشرة دنانير فأنا أبيعها, قال إبراهيم فساعدته فاقبلنا ماشيين, حتى وصلنا "شروس" فسميت منه شجرته بأربعين دينارا, ثم صر الثمن في عمامته ضرارا متفرقة, فلما وصلنا إلى موضعه أخذ يفرق الدنانير على العزابة لكل واحد منهم دينارا أو اقل, أو أكثر ودفع لي ستة دنانير, ففرقها حتى لم يبق لنفسه غير عشرة دنانير, فقلت له: ما هذا؟ قال كنت نويت البيع بعشرة دنانير, فكل ما زاد فهو لله أرى له فيه شيئا قال أبو عمر: سألت عن ذلك أبا العباس فقال: أن من العلماء من يقول الفقراء أحق بتلك الزيادة, والذي فعله حسن جميل.

راية في الزواج واقتناء الحيوان

وكان أبو عبدالله يقول ثلاثة لا أراها إلا في بيت عدو الفرس في رأسه مطحنة, وفي تحته مزبلة, والكلب ينبج فيسمع نباحه فيروع ولو مسلما واحدا, وساق هنا خبرا قال: سرنا ذات مرة مع الشيخ أبي سليمان أيوب في بعض الطريق حتى نبشنا كلب من إحدى الدور, فذعر الشيخ وقال أن

داخلكم والروح مثل ما دخلني فان صاحب الكلب لا يدخل الجنة, والثالثة المرأة تفسى الأسرار وتهتك الأستار.

وروى أنه لم يملك قط حيوانا ذا روح ولا تزوج قط, فلما علت سنه قال لأصحابه أن أهلي وآبائي قد عرف من عادتهم أنهم إذا كبروا اعترضتهم حبسة باللسان, تؤذنههم بفراق الدنيا, فإذا رأيتهم ذلك أصابني فزوجوني امرأة تقوم بي في مرضي, فلما رأوا ذلك نزل به أنكحوه امرأة قامت عليه في مرضه حتى توفي رحمه الله قلت وفي هذه الحكاية مواضع تحتاج إلى النظر منها: ما قال في اقتناء الكلب ولعله علم أن كلب غير مباح الاقتناء وكونه لم يتزوج قط فقد حكى ذلك عن غيره من المؤمنين والتزوج افضل إلا أن علم من نفسه انه غير قائم بحقوق الزوجة, وكونه لا يقتني حيوانا - وقد قال عليه السلام ما من نبئ لا ورعى الغنم - لا يلزم منه إن نقول من يكتسب الحيوان مذموم, بل ربما أراد راحة خاطره وتفرغ باله إلى ما هو اوكد وأولى وقوله: إذا رأيتهم ذلك فزوجوني نظرا لأمرين أحدهم: أن المريض يصير إلى حالة يحتاج فيها إلى من يطل على عورته, ويقلبه في مضجعه, والثاني نظرا إلى قوله عليه السلام من مات عازبا مات شيطانا فاخذ بالظاهر وأراد أن لا يموت عازبا. وهذا إذا صح هذا الحديث.

حكم التزوج في مرض الموت

وكونه تزوج في مرضه الذي مات فيه هو جائز عندنا خلافا لمن منعه الله إلا إذا علم أن المريض إنما قصد التزوج ليمنع ما لورثته من الميراث, فهاهنا وافقناهم على منع التزوج وأما قصد به شيئا مما يقصد بالتزوج غير المحابات فلا يمنع.

الشيخ أبو مكحول الزنزي

ومنهم أبو مكحول مطكو داسن الزنزي رحمه الله, هذا الشيخ منسوب إلى صلاح, وزهد في الدنيا واطراح ويعد في الوعاظ والنصاح, والداعين المرشدين إلى سبيل الفلاح, ويحكي عنه الحكم والأمثال, والإصابة في الأقوال والأفعال, أن أكثر ما يروى عنه إنما هو باللسان البربري, صادر عن صدر رحب, وقلب جري, وهو من كل غش برئ ذكر يحيى بن جعفر أن أبا القاسم يونس بن أبي زكرياء كتب إلى أبي مكحول:

"بسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم. إلى أبي مكحول أطال الله بقاءه وأدام عليه نعماءه.

أما بعد فأني سمعت أن جماعة من النكار طلوعوا قبلكم فإياكم ثم إياكم, أن يردوا أرضكم ولو للضيافة, فان القوم اخدع الأمة, وأنت ممن لا يحتاج إلى أن يوصى والسلام" فوقف عند ما حد له وكان أهل لصد ما يخشاه منه من هذا الداء* وذكروا أن أبا محمد ماكسن ويخلف التميمي أضافهما أبو مكحول فقدم لهما طعاما حفيلا ضيافة كاملة, وعلى كمالها فإنها دونها دون قدرهما لهم: كلوا فقد مات من يسلم في نفسه ويسلم معه غيره, فشكرا صنيعة وشكرها حين رأهما شكرا ولم يذما, وحمد هو الله على اقتران الشكرين, وخطر بباله أن اللعنة مع الضيف مقرونة, فإذا حمد وشكر وقابله المضيف بحمد الله وشكره وقعت على إبليس, لعنة الله عليه وإن لام أحدهما وضجر وقعت عليه, وقد وقعت لأبي مكحول على كلام كثير بالبرية لم أحصل منه فائدة فاعلقها.

أبو موسى يزيد المزاتي

ومنهم أبو موسى يزيد المزاتي وابنه ضمام رحمهما الله ممن تمسك بالورع بحبل وثيق, وسلك في الصلاح أنهج طريق أنقن مسائل الحلال والحرام, واشهر نفسه بعلامة المجتهدين من الخدام, وذلكها وراضها حتى انقادت لموافقة أهل الإسلام وبث المعروف في الأجانب وأولى الأرحام وكان من أفاضل تلامذة أبي خزر, واخذ عنه الآثار والسير.

مساعدة الشيخ لقبائل مزاتة وإنقاذهم

ذكر الشيخ أبو نوح صالح بن إبراهيم أن بلاد أفريقية أصابتها سنة، فاشتدت أحوال أهلها وعدمو القوت، حتى ضمت أهل البوادي وغيرهم إلى بلاد الجريد فانتجعت مزاتة إلى قابس ليمتاروا منها التمر بالدين والقرض فأتوا ضمام بن أبي موسى يدلون عليه بالقرابة والاخوة، وهو حينئذ عند أهل قابس معروف، وبالخير والصلاح موصوف فسألوه أن يستقرض لهم، ويستدين ويتحمل عنهم، واعلموه بما هم فيه من شدة الحال، وأن جاهه كفيل باستنقاذهم من الجوع فشاور والده في ذلك واعلمه بما جاء به قومه، وبما طلبوه، فقال له هل يعرفهم أحد؟ قال: لا، قال: وأنت هل تعرفك أهل ويأمنونك؟ قال نعم، ولا يعرفون غيري فقال له أبوه دخولك في شيء يستنقذهم من الجوع إذا فرض من الفروض اللازمة، إذ كانوا ينتفعون بجاهك أكثر مما ينتفعون بأموالهم ففضى مآربهم أجمعين.

يسأل المرء عن جاهه كما يسأل عن ماله

وقال أبو نوح صدق أبو موسى وقد قيل: يسأل المرء عن فضل جاهه كما يسأل عن فضل ماله، وقد قيل من تبرم بجاهه فقد تعرض لزواله قال فهو كقوله عليه السلام: "إن الله وجوها من خلقه يستخصهم بنعمته ما بذلوا لخلقة، فإذا بخلوا بها بدلها إلى غيرهم" فتحمل عنهم ضمام وانجز مآربهم فلما ايسروا قضوا ما عليهم إلا اقلهم ف قضاه عنهم ضمام، وقد نسب إليه كلام في ذم الحمالة.

ومنهم أبو يعقوب بن سهلون رحمه الله

العظيم القدر، الكثير البر والغزير الحفظ في فنونه، المتحصن من كل روع بورعه ودينه، لا تهوله الأهوال ولا يغتر بما يرع من حسن الحال.

مصاب الشيخ في لسانه وسبب ذلك فيما قيل

ذكر يعقوب بن أبي القاسم انه وصل ذات مرة إلى وارجلان قال: فرجعت ووجدت أبا عبدالله محمد بن بكر، ومزين بن عبدالله عنده، فقال لي أبو عبدالله: هل رأيت أبا يعقوب يوسف بن سهلون؟ قال: فقلت لا فقال انظر يا مزين! أولا تعجب لهذا الذي سافر إلى وارجلان ولم يزر أبا يعقوب، فعظم علي ذلك، ورجعت إلى أبي عبدالله فأخبرته بحال أبي يعقوب، وذلك بعد ما أصيب في لسانه ومنع الكلام، وسبب ذلك أن مسألة شينعة نزلت في وارجلان فاجتمع بها كل من بها من وجوه العزابة، ومن ينسب إلى العلم والرأي وكان دأبهم في ذلك الزمان إذا نزلت مسألة أن يجتمعوا من شأنهم الاجتماع للتشاور في النوازل، فاجتمعوا بالموضع المعروف بمنبر وارجلان واتي كل واحد منهما ببينة على صحة الزوج، فتراد الشيوخ المسألة حتى انتهت إلى أبي يعقوب فقال حرمت على الأول، والأخير، ورجال الدنيا، والآخرة إلا أن تتوب فتحل لرجل الآخرة فقال رجل من بني ياجرين، هاج الفحل فتفرقت الفصائل، فأصابته عين، فاحتبس لسانه حتى لا يستطيع كلاما.

كيف أعان الشيخ ابنه على بره.

وكان أبو يعقوب كثير السياسة كثير الرفق وله ابن يسمى أيوب وكان إذا أراد أن يأمره بشيء أشار إشارة أو ساقه في حكاية لئلا يغلق عليه الأمر فيخالفه فيعق، وكان إذا أشار بشيء امتثله واتي به على حسب ما يرضيه ويجيء على وفقه حتى ضرب بهما المثل في بر الابن للأب والأب لابن فقالوا: "الأب كابي يعقوب والابن كأيوب"

وحكى الشيخ فلفول خلافا وقع بين أبي عبدالله بن بكر، وبين الشيخ أبي يعقوب بن سهلوب في مسألة وهو: الرجل يقول فيمن يتولاه: هو مسلم عندي أو مسلم عند الله وعندي، فقال أبو عبدالله لا يجوز إلا أن يقول مسلم عندي وقال أبو يعقوب كلاهما جائز سواء لا فرق بينهما لأنك إذا قلت عند الله فانك تعني يعلم الله أنه عندي مستحق لهذه المنزلة.

قلت إماما قاله أبو يعقوب في المرأة التي ادعاها بعلان أنها لا تحل للأول ولا للأخير فتصح على أصل تحريم الزانية: وحرم ذلك على المؤمنين، وهذه المرأة قد تعمدت الزنا بإدخالها بعلا في عصمة آخر، وهذا إذا كانا مقرين بالدخول، وهي أيضا مقرة، فإن لم يكن إقرار بالدخول، ولم تقم به شبهة فلا تخلو البينتان أن تثبتا على تاريخ أحد النكاحين أم لا، فإن تثبتا فهي للأول، وإن لم تثبتا أو أحدهما فسخ النكاح، ويتزوجها من شاءت منهما أو من غيرهما.

كتابة عقود النكاح والطلاق تدفع الشك

ولأجل هذه الشنائع وأمثالها تجدني أتله وأتأسف على شيء لو أمكنني فعله والإشارة به، فهو والله أمر سهل، رافع للالتباس، كاشف لهذا البأس، وهو والله مما ينبغي أن يسعى فيه أهل الخير، وذلك: أن يؤذن في جهة من الجهات على أيدي القضاة أو عن رأي الجماعات بأن لا يشهد في النكاح خاصة أو في النكاح والطلاق إلا رجال معلومون، لا يعدوهم هذا الشأن، يختارون أهل علم ودين، وسنن ويستلزمون كتب التاريخ ولو لم يكتبوا غيره، فكيف والكتاب في جميع فصول النكاح والطلاق أحوط، فانه إذا كان على هذا الوجه كان قطعاً لا شترارك ما لا يشترك، ورفعاً للالتباس، والاختلاط في الأنساب، والشك في التوارث والعدد، وفي الخبر: إن أولى ما احتيط به الفروج. وأما ما اختلف فيه الشيخان فمسألة تضرب في علم النحو بنصيب. وأرى أبا يعقوب فيها هو المصيب.

الطبقة العاشرة: 450هـ — 500

منهم أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي رحمه الله

الأصولي الفقيه، الزكي النبيه، أفنى في دراسة أيام الشباب، وفي حفظ كتب الفقه كتاباً بعد كتب، حتى برز وبعدت عن محائبه، وظهرت بين النجباء نجائبه، ولما بانته فضيلته سبقت بين السوابق، وحمدت منه الخلائق تصدر للتدريس، وإفادة كل جليس، فأحى الله به طرق الصلاح، وفتح له أبواب الخيرات أي افتتاح، وخرج من تلامذته كل نجيب، وقيد عنه كل جواب مصيب، وتصنيف عجيب.

ذكر أبو عمار إن جماعة عزابة اجتازوا على قرية من قرى نغزاوة فإذا هم مقدمها رجل يسمى "أبا علي"، فقالوا له: (أحذر عقوق الوهبية). فقال لهم ارغبوا إليهم وقولوا لهم يدعوا علي. فوصلوا جربة يوم جمعة، فوجدوا الشيوخ قد اقبلوا إليها بجماعة التلامذة، وفيهم الشيخ أبو الربيع فسلموا وصافحهم، وأخبرهم بما بلغ أهل الدعوة من ضرر المذكور، وقوله لهم، فقال أبو الربيع: رب كلمة سلبت نعمة، اللسان يلعب البلاء، فاجتمعوا وبدأ أبو الربيع بالدعاء فأداروا الدعاء، وختم أبو الربيع، فأصاب الملعون في تلك الساعة وجع فجعل يصيح من شدة الوجع، ويقول: (قتلني الأعور، يعني أبا الربيع، حتى مات، ولم تماطله دعوة أبي الربيع).

الحكم الشرعي في الوصية للوارث

وروي عن أبي عبدالله محمد بن بكر رضي الله عنه، انه لما حضرته الوفاة قال لمن حضره: (اشهدوا ان الجنان الذي على العيون لابني يوسف)، فلما سمعت امرأته ذلك حسبت ان به غفلة أو ذهاب عقل، فقالت له: ما هذا يا شيخ؟ تنبهه، فكرر الأشهاد على نفسه بما قال أولاً ولم يرجع عنه، فقال لامرأته أنني اعتقدت له أكثر من ذلك، وعلمي ورأيي لا أرجع فيه إلى علمك ورأيك، وكان ابنه أحمد إذ ذاك عند أبي الربيع سليمان بن يخلف فبلغه وفاة أبيه وقد بقيت بيده بقية من نفقته فكف عن الأكل منها، ورأى إن ذلك قد صار ميراثاً، فقال له أبو الربيع: امسك ما بيدك ولا حرج عليك ولا تلزمه العدالة بينكما.

قلت أما فعل أبي عبدالله فلا ينفذ لوجوه: منها انه عطية في المرض الذي توفي فيه فلا يجوز إلا بإجازة الورثة، الثاني انه لم يذكر التسليم والحوز وذلك شرط عند جميع أهل العلم إلا الشاذ، والثالث انه لم يعدل فيما دل عليه اللفظ والعدل بين البنين واجب على الأب في قول جماعة من أهل العلم، واليه مال كثير أصحابنا فيما علمت والشيخ أبو الربيع رجح قول من قال لا تجب العدالة على الأرب، وأقول والله أعلم: إن ذلك إنما جاز لإجازتهم له إياه أبراراً بالشيخ رحمه الله. وعن غير واحد من تلامذته قال لما كان عام واحد وسبعين وأربعمائة رجعنا من عنده فشيئنا إلى المصلي الذي فوق عيون تونين، فوقفنا لموادعته، فقال أحدنا: أوصنا يا شيخ، قال: لقد عزمت على ذلك ولو لم تقله لي، ثم قال: (امضوا بالسلام). فإذا وصلتكم إن شاء الله منازلكم فإياكم والدنيا أن تستقبلوها بوجوهكم، فإن من استقبلها أغرقته ومن استدبرتها فلا بد أن تأخذ منه، وعليكم بالآلفة والنصيحة، والتزاور، وحفظ مجالس الذكر، وإياكم وأمور الناس والتقصير فيمن يرد عليكم من أهل دعوتكم والسلام).

وكنا قد أردنا إذ نحن بتمولست الطلوع إلى جبل (دمر) برسم دراسة الكتب، فلم يوافق ذلك أبا الربيع ولا أبا ذكرياء يحيى بن أبي بكر فشيئنا أبو ذكرياء يحيى، فقال: اعلّموا أنكم أن رجعتكم إلى أهليكم على هذه الحال فأنتم كمن ترك الإسلام عمداً، وهذا منه تحريض وترغيب في طلب العلم.

وذكر إن تلميذين من تلامذة أبي الربيع قال أحدهما للآخر: (زوجتك أختي)، وقال الآخر: (قبلت) فلما لفظ بالقبول داخله ما وسوس عقله وشغل خاطره، وجعل يسأل الطلبة واحداً بعد واحد هل عليه من هذا شيء؟ ولب على خاطره ان النكاح قد انعقد، فجعل يسأل العزابة الحل عازماً على الانفصال، فقال أبو الربيع لما رأى ما رأى من حاله: ما نال فلاناً؟ فأخبروه خبره، فقال لهم: قولوا له فليقم وليشتغل بالقراءة، فانه لم ينعقد عليه نكاح، ولا عليه شيء، ولو أجازته، قلت وهذه المسألة لها وجوه تقيد بها وليست بمطلقة وذلك أن أخا المرأة لا يخلو أن يكون وكيلاً مع كونه ولياً أو لا يكون وكيلاً، فإن كان وكيلاً فالنكاح قد انعقد بلا خلاف، وإن كان أنكح فضولاً بغير توكيل ثم أجازته بقرب العقد فالأولى جوازه، وقيل يكون موقوفاً على قبولها وامتناعها، ولعل أبا الربيع رحمه الله عر في هذه القضية بعينها ما أوجب امتناعها كترك وقع متقدماً مع ما خاطب أو عقد تقدم مع ولي تقدم مع خاطب آخر، والله أعلم. وذكر أبو عمرو عثمان بن خليفة أن أبا يعقوب محمد بن يدير سئل عن مسألة في مجلسه، فأخطأ في الجواب، وذلك انه قال: علينا العمل بالفرائض وليس علينا العلم بها، وكان يزيد بن يخلف الزواغي وأبو الربيع سليمان بن يخلف في المجلس حينئذ، فلما سمع يزيد ذلك قال يا سليمان ما الذي أخذت عن أبي عبدالله بن بكر في هذه المسألة قال: إذ لزم فعل شيء لزم العلم به، وإن له في فعله الثواب، وانه فرض وعدل، وكان قد باتا في حلقته فلم يقل لهما رجعت عن قولتي، ولا قالاً له: أرجع عنه ولا أدناهما من المجلس،

وجوابه في هذه المسألة جواب النكار وهو خطأ وجوابهما جواب أصحابنا وهو الصواب إن شاء الله، وهو قول جمهور الأمة لأنه كيف يمتثل الأمر من جهله؟ وكان هذا حال الشيخ أبي الربيع لا يعجل بتخطئة أحد، ولا يسمعه جفاء.

وتوفي رحمه الله عام أحد وسبعين وأربعمائة، فبلغ خبر وفاته المشائخ ببلاد أريغ أمثال ماكسن، ومزين، ويوسف بن أبي عبدالله بن بكر، وغيرهم فجل عندهم الخطب وسامرهم الرثاء والندب، واجتمع اليهم اعيان تلك النواحي يعززونهم، وهيهات، فقد لازموا العويل والاكتئاب الطويل، حتى قال لهم أبو يعقوب كفوا عافاكم الله فان هذا لا يغني عنكم شيئاً، وعليكم بالتمسك بما أخذتموه عنه، وعن غيره من الأشياخ، وكونوا لها كإبراهيم بن أبي إبراهيم للأمانة، وذلك أن رجلاً أودع الشيخ إبراهيم ديناراً، وقال له: (ادفعه إلى فلان، واحذر أن يسقط، فقال له: (تسقط هاتان ولا يسقط يا عماء)، وأشار إلى عينيه.

ومنهم الشيخان أبو محمد ماكسن بن الخير
وأبو عبدالله مزين بن عبدالله الوسيانيان رحمهما الله

كانا ممن تنسب إليهما أنواع من الفضائل، وترفع إليهما عند وقوعها المسائل وترجى بدعائهما عند الله الوسائل، ويستشفى برأيهما متى نزلت الخطوب النوازل، وتتيهمهم للبركة القابيل (1) والقبايل، وممن يفصل الخطة لما أعيت كل فاصل، فليس منها إلا عائل.

قال أبو عبدالله: كان مزين يقول: (الرأي إشارة، وأما الموارئة (2) فقتال، لا تدخل بين العصا ولحائها)، وذكر أبو محمد قال: دخل علي ينجاسن بن حمو ذات يوم كأنه ذاهل، فاستلقى مضطجعا، فقلت له مالك؟ ومن أين أقبلت؟ قال: (من عند مزين، جئته استفتيه في تباعة تعلقت بذمتي في قرية من قرى وارجلان، وسألته كيف الخلاص منها قال لي: أتعرف الموضع؟ قلت: نعم، قال: أتعرف صاحب التباعة؟ قلت لا، قال تجد من يشهد لك بن تلك التباعة لفلان بن فلان؟ قال: لا، قال: فتصدق بها إذا في موضعك، وأقم ولا تتكلف حركة). فحاربها - والله أعلم - إنما بسبب كونه لا يدري من يصرف إليه تلك الصدقة فيكون لها أهلا ولأنه ذكر عنه أنه قال حينئذ: خائن حازم، خير من أمين مضيع فداخله من ذلك شغل شاغل.

وذكروا أن "أبا ويدران" الفطناسي استخلف على وصيته مزين فعمد إلى خيار ماله وما تكثر فيه رغبة المشتري فباعه، وجعل ينفذ منه الوصية فشكته زوجة أبي "ويدان" وبناته إلى الشيخ أبي عبدالله وقلن له: انه قد باع أفضل المال ان في التركة أطرافاً لو باعها لم يصبنا لفقدنا جزع، فقال له مالك ولهؤلاء؟ قال: أعلم أنني لم اشتغل بمصلحة هؤلاء لكن بفكاك رقبتني ورقبة أخي في الله.

كيف كان الشيخ أيام التلمذة ورفق شيخه به.

وذكروا أبو الربيع إن أبا محمد ماسكن كان من أعاجيب الزمان، وذلك انه أصيب في بصره وهو ابن سبعة أعوام قيل سبعة أيام، فجاءت أمه إلى أم يوسف زوج المعز بن باديس فأعلمتها بما أصاب ابنها فقال لها رديه في لكتب، فانه يستفيد لما رأته من حدة فكره، وحضور ذهنه وذكائه ففعلت فحفظ القرآن تلقيناً في أسرع وقت ثم قصد جربة وحضر حلقة أبي محمد وإسلا بن أبي صالح، فكان انجب تلميذ حضرها وكان كل من رآه يستغرب ذكاءه وبراعته، وكثرة حفظه، إلا انه كان مع ذلك سريع الغضب حاد الكلام، فكان الطلبة يقولون لأبي محمد: اطرده عنا هذا السيع الغضب الحاد الكلام، فيقول لهم: والله لا اسمع قولكم فيه ولا أقبله ولا اخرج عليه لما تقرر فيه من الخير والبر واحياء الدين والسير ويقول لهم الم تعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم،

قيل له: لم تكون الخفة في المؤمن؟ فقال لغزارة في قلبه، وقيل لابن عباس رضي الله عنه أنك خير لو لا خصلة فيك قال وما هي؟ قال الخفة، فقال ابن عباس: عبتني بخير الخصال.

وكان ماكسن إذا ذكر هذا القول يقول رحمه الله: أن أبا محمد لو سمع في قولهم وطردي لوفعت رأسي وكنت في غير هذا المذهب فأضل واهلك، فلم يكن إلا مدة يسير حتى تفقه وعظمت منزلته فاعجب بيتيم عديم مكفوف البصر ينتهي إلى هذه الغالية في أسرع وقت ولا جرم أن الشيخ أبا الربيع سليمان ابن خلف كان مفتاح باب الخير لعيه لأنه كان محاضره فكان ينشطه ويدربه ويحرضه ويقرأ لعيه الكتاب فإذا قرأ بابا ردا منها بارا بالآخر حفيا به، كان أبو الربيع كما ذكرنا لا يأل جهدا فيما ينتفع به صاحبه فلا يعرف له طريق مصلحة إلا تحراه وكان ماكسن على نحو ذلك فيما له عليه قدره حتى أن ماكسن يدعوه بالخوولة مع كونه دونه في السن، وهذه الدعوة لأن أم ماكسن مزانية من قوم أبي الربيع.

ولقد تنازعا يوما في مسألة حتى تغاضبا وكان ماكسن يصلي بثوب أبي الربيع فحضر وقت الصلاة ولم ير ماكسن انه تصح له صلاة بثوب أبي الربيع، وحسب انه يجد منه في نفسه شيئا وأراد نزع ثوبه، فقال له صل عافاك الله فاه يم يحدث عندي شيء.

وذكر أن أول مسكن الشيخ ماكسن بوارجلان وذلك بعد انفصاله عن القيروان ومجيئه من جربة، فأقام بوارجلان حتى سافر منها إلى الحج وقضى الفريضة وتنفل وتزوج بوارجلان وقطن به، وجاءه رجل من أهل اجلو يقال له أبو العزيز داود، فقال له: أقم هنا يأكل أولادك تحف أهل الدعوة فإذا تمت اقتسموا ريع الصبا فسمعت كلاما اذن واعية ووقع في نفس ماكسن الانتقال إلى أريغ، فلقي الشيخ عيسى بن أبي الحجاج فقال له: اجعلني يا أخي في حل فأني عازم على الارتحال فقال: بل اسأل الحل في وقتك لي اجعلني في حل فقد أدخلت علي روعة، فقال له: اعلم انه لا يصح لح انتقال عن وارجلان حتى أموت وتغسلني وتكفني ثم انتقل، بعد ذلك أو أقم وأما - وأنا حي - فلا اذن لك في المسير، فوافقه وأقام حتى قضى الله بموت الشيخ عيسى، فتولى عنه ما سأله أن يتولاه. واجمع على المسير إلى أريغ، فقال له عبدالله بن عيسى الوسياني من أهل " كرناداس " ألم تقدر في سفرتنا يا ماكسن؟ فقلت: قد عولت عليكم وهيأت لكم. فساروا جميعا إلى أريغ فأقام ماكسن بأريغ مدة وليس لأولاده مؤدب، فجاءه أبو العزيز داود فقال له: أقم هكذا يا ماكسن حتى تموت وتبيع أولادك كتبك، فايظته وعلم إنما نبهه على أولاده فاستأجر مؤدبا يعلمهم.

الشيخ يتعجب من ثلاث مسائل والحكم الشرعي فيها

وكان أبو محمد ماكسن يتعجب من ثلاث مسائل احدهما قولهم "يموت الرجل ولا يقذف" ثم اجازوا له إذا خاف أن يقول: ليس هذا بابن فلان، أو ليس من القبيلة الفلانية فينفيه، والثانية قولهم: "يموت ولا يتعري" ثم اجازوا له أن يتعري عند الاختتان وعند الطبيب والقابلة، وقياس الجراح، والثالثة قولهم في امرأة المفقود: "عدتها عدة المتوفي عنها زوجها" ومع ذلك قالوا لا تخرج حتى يطلق عنه أولياؤه، قلت: أما الأولى فمن باب الكذب المباح لا من باب القذف والثانية ضرورة تعارض فيها حكمان فلا بد من أرجحهما والثالثة أخذوا في العدة بالحوطة ونظروا في تسريح المرأة خشية الضرر وجعلوا التطليق إلى الأولياء، على أنه لا حكم على غائب.

يحمل أولاده على الحق

ومن تخرجه ما ذكر أن أولاده بنوا بابا وزادوا في حائطه شيئا من الطريق فقال لهم: اهدموا هذا البنيان وردوا الشيء بحاله فقالوا أن الطريق واسعة بحيث لا يضرها ما نقضاه منها، فقال لهم: لا بد من من هدمه ولا انصرف حتى يهدم فهدموه وحينئذ طابت نفسه على الانصراف.

وذكر أبو الربيع قال: أغارت غارة "لبنى يوجين" على رأس وأدى أريغ فساقت غنمهم، فاتبعتهم عدة من المشائخ منهم ماكسن، وأبو العباس الوليلي، وعيسى بن يرصوكسن وعبدالله الدمري فلم

يلتحقوا بهم إلا بعد أحيائهم فلبثوا مدة يستردون حتى استردوا الغنم بجملتها، وما استردوها إلا وقد نفدت ازوادهم أو كادت قيل وفيهم عجوز مرابطة، وقد اطلعت على حال المشائخ وعلمت أن ازو أدهم نفدت، وإن يأذنوا لها في قومها لا يرون أكله تورعا، فرغبت إليهم أن يأذنوا لها في أن تلج لهم طعاما من مالها فأجابوا فاستعملت طعاما ولما حان وقت صلاة المغرب وصلوا جاءتهم العجوز تسألهم عن مسائلهم عن مسائلها، والشيخ أبو العباس الوليلي حينئذ يركع ولم يتقرغ من ركوعه، فعاد كلما سلم من ركعتين قال لهم: ابعدوا العجوز عنكم واطردوها عن أنفسكم، ولم يفتنوا لما أراد، حتى سألتهم ما تقولون في قومي هؤلاء إذا غاروا غارة وغنموا واخذوا وأعطوني زكاة ما أخذوا فهل في ذلك من حرج؟ قالوا إذا فأنت على هذا الحال المذمومة يا عجوز؟ أبعدني عنا فقال لهم أبو العباس: ألم اقل لكم من قبل؛ أبعدها عن أنفسكم فانصرفت ولم يذوقوا طعامها فقالت "بنويوجين" لماكسن: أن رخصت لنا في ثلاث مسائل رجعنا إلى مذهبك وهي: أموالنا، وأولادنا، وأزواجنا حلها حرام، فأذن لنا بالمقام فيها فقال لهم: لا يحل ذلك في مذهبنا، قالوا فأنا نجد من يرخص لنا في ذلك كله.

وغارت غارة لبعض المعرب على وأرجلان فساخوا عدة من الإماء، فلحقهم الشيخ ماكسن "بالدرمون" فيوق بئر الكاهنة، فسألهم بالله أن يردوا عليه ما أخذوا من أموال المسلمين فكان في القوم رجل يعرف بابن يلبان، فقال لهم: أجيبوا سؤال العزابي، فردوا عليه جملة الإماء إلا واحدة مولودة*، فزيناها الشيطان في أعينهم فرغبوا في الابتداء عليها، فقال لهم الشيخ أنها حرة، فقالوا: عريقة؟ قال لهم: نعم قالوا له: أتحلف؟ قال نعم، قالوا بالطلاق؟ قال لا يحلف بالطلاق مسلم فلا احلف به قال، فردوها له ثم سئل بعد ذلك ما أردت بقولك حرة؟ قال أمي، قيل ما أردت بقولك عريقة؟ قال فخدي.

أهل جربة يبتهجون بمقدمهم في سمت حسن وابهة وذكر عن الشيخ ماكسن انه قال أقبلت أنا واصحابي من الحج، وكنا في اثني عشر رجلا كسليمان بن موسى الزلفيني، وعبد السلام بن عمران النكسي، ومحمد بن عيسى بن إبراهيم، وامثالهم، ووصلنا طرابلس فاشترينا منها كسوتنا؛ كسوة سنوية، وخلصنا جربة، فشكروا ذلك منا واستحسنوه، ودخل عليهم من السرور ما لا يتصف، حتى قال لهم زكرياء بن الشيخ أبي زكرياء فصيل رضي الله عنه: لقد عاملتمونا في زورتكم هذه بما لا نستطيع أن نوذي حقه وقلدتمونا عظيمة لا تقوم ألسنتنا بشكرها وإن اختصاصكم إيانا بقدمكم علينا عند مقدمكم في تلك المشاهدة الشريفة ومشاهرتكم لنا ليقوم عندنا مقام قدوم جميع من سلف من أئمتنا، وأشياخنا، من لدن أبي عبيدة إلى اليوم فالله يتولى متوليكم وأكثر ما ادخل عليهم السرور قدومهم في احسن زي وشارة فانهم باهوا بهم جيرانهم النكارة وظهر من جلاله أقدارهم ما زاد في جيرانهم الحقارة.

فتن أهلها في وغلانة وتينتلات وسوء مصيرها وذكروا إن قافلة خرجت من وأرجلان من أهل ريغ متوجهين إلى أهل ريغ فلما وصلوا إلى "ونو" يعني: البئر ازدحموا عليه يستسقون حتى اقتتلوا فقتل رجل من بني سينتف أرجلان من "وعلافة" ورأى الوغلانيون أن لا طاقة لهم ببني سينتن، لكونهم جميعا يكون طريقهم على بني سينتن فخافوهم على أنفسهم فافترقوا من هنالك وجعل الوغلانيون طريقهم على بني ينجاسن فعاهدوهم على أن يكون معهم ألبا على طلب حقهم فلما وصلوا منازلهم عيوا ونهضوا إلى بني سينتن ثائرين بصاحبهم فلما وصلوا قرية "خيران" خرج اليهم أهلها يريدون إنزالهم ويحسبونهم أضيافاً، فقالوا لهم: مكنونا من القود بصاحبنا، فقالوا: نعم، لكم القود، فألقى الشيطان في أسماعهم، إن لا يصلح لكم القود، فلك يلبثوا أن وثبوا عليهم بالسلاح، فدافع يعقوب بن يسفا وأمثاله حتى

قتلوا، في ثمانين قتيلاً من بني سبتين، وكان رجل من وغلانة أدرك يعقوب على بغلة فعرقها، قال فأدركته الرجالة، فقتلوه فأوصى عاقر البغلة يديه يعقوب، واستخلف على وصيته يعلو بن صالح فدفعها إلى ورثة يعقوب، فلما رأى أهل تينتلات أنفسهم في قلة بعد موت العدد المذكور عزموا على الرجوع إلى أهل الخلاف، وكادوا يفعلون، فبلغ ذلك ماكسن فقال: من ذا الذي يعرض لأهل المذهب من تينتلات؟ فانقل إليهم بحلقته فوجد أعلام الخلاف قد نصبت، فلم يزل يكف شرهم، ويدحض عزمهم، حتى انقطع الاختلاف ولم يبق إلا الائتلاف، فحينئذ ارتحل عنهم، ومدة إقامته عندهم ثلاث سنين.

وسبب ارتحاله عنهم فيما ذكر أنه كان ذات يوم هتف به هاتف: يا ماكس اهرب، اهرب إلى حيث طاب الزمان، فالجبن خير من الجرأة إذا الفتنة تمكنت عروقها، قيل ولما ارتحل عزم من بها من أهل الخلاف وهم في غاية الحقارة والضعف على أن يبينوا لأنفسهم مسجداً، ورأوا أن الفرصة قد أمكنتهم بعد انفصال الحلقة، فاستقروا ضعفاء العقول من أهل الموضع، وشاوروهم في ذلك، فأذنوا لهم في بنيانه، وكان ذلك في مغيب أبي يوسف بن زيري وهو من أعيان القوم، فاستحضروه للمشورة، فلما حضر تكلم متكلمهم فقال: عزمنا على أن بنتني هنا مسجداً لإخواننا قال: لا يبنى إلا أن يبنى على رأسي، فأنحل عقدهم، ومن سمع بجواب أبي يوسف شكره ودعا له، ويتصل بهذا ما ذكر أن يعلو بن صالح خرج فاراً بنفسه، غضباً لما فعل أهلها ببني سبتين وذلك أنهم لما رجعوا من قتالهم دخلوا من باب وخرج هو من باب آخر، فمر بيعقوب بن أبي موسى الزواغي وكان بينهما قرابة، فصحبه وسارا حتى لقيا أبا عبدالله بن الخير فقال له: يا يعلو بني سبتين صرعوا قتلى لم يدفنوا بعد، وأنت تغدوا وتروح عليهم، فقال له يعقوب هذه منك سقطة يا أبا عبدالله، أتخاطب بهذا رجلاً خرج مهاجراً مراغماً لأهل الظلم طلباً للسلامة فلتلقاه بهذا القول وأنت لا تقدر له على شيء؟ فمن ذلك اليوم سار إلى أجلو.

أبو سليمان داود بن أبي يوسف.

ومنهم أبو سليمان داود بن أبي يوسف رحمه الله، أحمد المشائخ المذكورين، والفقهاء المشهورين، استفاد وأفاد، وخدم حتى ساد، فكان شيخ حلقة، يعرف كل أحد حقه، وسعهم علماً وخلقاً، وسيراً حميدة وتقى، ولا يجتنبه الطالب، ولا يخيب أمل الراغب.

ذكر أن جماعة من شيوخ العزابة توجهوا إلى «تتومة» فيهم أبو عبدالله محمد بن بكر، وأبو سليمان داود بن أبي يوسف، وكان على داود جين لرجل من تتومة، فلما كانوا ببعض الطريق لقوا زنغيل بن نوح بن الشيخ أبي نوح، فسأله عن الرجل صاحب الدين، فقال: تركته على آخر وقته، فرجع أبو سليمان فشق عليه ما سمعه، وتكرر خاطره، فقال له أبو عبدالله لي على صاحبك ديناً أكثر مما له عليك، وقد وهبت لك من ذلك مقدار ما له عليك، فقاصصه بذلك فيما عليك، ففعل، وهذه الفضيلة لأبي عبدالله رحمه الله.

وذكر أن الشيخ أبا عبدالله رحمه الله كان على جلالة قدره إذا أقبل الشتاء وفرغ من حرث ضيعته طلع بحلقته إلى أبي سليمان يقرأون عليه، فيقيمون حتى يسمعوها صبي البعوض فينزل إلى ضيعته، وجاء رجل من أهل وارجلان فسأله عن حال أبي سليمان فقال له: لما به أما أدركتموه وأما لم تدركوه فمضى الشيخ ماكسن يجد السير فوجده على آخر وقته فقال كيف تجدك فقال متمثلاً:

ولا يعرف الريان من طال عطشه

ولا يعرف الشبعان من هو جائع

فاقام عنده حتى توفي رحمة الله عليه.

وذكر انه لما كان عام اثنين وستين وأربعمائة توفي داود بن أبي يوسف وبلغ خبر وفاته المشائخ وهو إذ ذلك في زنزفة عند انحدار الشيخ أبي الربيع من زنزفة إلى منزله بتمولسة فشيعة المشائخ إلى قلعة بني على , منهم على ابن منصور وإبراهيم بن يوسف وغيرهم فوقفوا للرجوع فكروا مفارقة أبي الربيع إلا وقد عزوه في أبي سليمان ففتاجوا أيهم يجسر على مخاطبته بذلك وخشوا أن يدخلوا عليه روعة , إذ لم يتقدم عنده علم فدنا أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف والشيخ حينئذ راكب على فرس لرجل من بني زنزفة فقال له: احسن الله عزاك في الشيخ, وأجرك في المصيبة فيه فقال له: ومن الشيخ؟ قال: أبو سليمان داود بن يوسف فلما سمع ذلك نزل على الفرس فقال: " انا لله وأنا إليه راجعون " , فلما توادعوا وقضوا حق التعزية فرجعوا عنه قال وسرنا معه نحن إلى " تمولسة " فأخذ يحدثنا أخبار السلف ويذكر سيرهم ومناقبهم وما صبروا عليه وما صابروا وكابروا وكابدوا ويتوجع لما صار الناس إليه من فساد الزمان, وما نزل بهم من ذهاب الخير وأهله, وانقراض العلم وحملته حتى قال انقطعت آثارنا من المغرب.

مصيبة الأخيار تكون - أحيانا في أبنائهم

وذكر حديثا للرجلين الذين اقبلنا من المشرق يريدان زيارة بكر بن حماد الشيعي, فلما وصلا مصر سمعا بوفاته فقال أحدهما للآخر انقطعت آثارنا من المغرب, فرجع من موضعه وقال الآخر أما أنا فلا أرجع حتى آتي أولاده , فتمادى به السير حتى انتهى إلى تاهرت , فسأل عن خلف بكر بن حماد ف قيل له خلف ولدا لا يستحق أن يسأل عنه, فأبى إلا رؤيته, فطلبه فوجده ينوح مع النساء فلما رآه قال: " انا لله مصيبة الأخيار في أبنائهم " وإنما أورد هذا تقجعا وتوجعا لفقد أبي سليمان, وكونه لم يخلف من يقوم مقامه.

الشيخ يشكو من جهل الناس بأحكام الشريعة

وسرنا طريقنا كله وهو يكرر انقراض الخير واندراس الدين, وفقد العلماء وانطماس الآثار, حتى قال: فقد الناس من مسائل الحلال والحرام والفقه أكثر مما فقدوا من مسائل علم الكلام والجدال, ولا أعلم اليوم من يقرأ عليه علم الفروع إلا أن يكون أحد من تلامذة أبي سليمان هذا " يعني ابن أبي يوسف " فان منهم جماعة بوارجلان. وقال إبراهيم ابن أبي إبراهيم رأيت أبا سليمان في منامي بعد موته فقلت لعلك ظفرت يا شيخ؟ قال : نعم, ثم قال قل للعزابة عليكم بالدعاء, وقيام الليل والمعروف.

أبو القاسم يونس ابن أبي الحسن

ومنهم أبو القاسم يونس بن أبي الحسن رحمه الله, من جملة الفضلاء , المكرمين باستجابة الدعاء , المنتظمين في سلك العلماء وان كان السيمي مقصورة على شيم الصلحاء. ذكر أبو سليمان إن الوباء وقع في اجلو سنة من السنين فاضر بأهلها في جناتهم وأذاهم أذى كثيرا , واقتضى نظرهم أن يجتمعوا وصوموا يوم الأربعاء والخميس والجمعة, ولما صلوا صلاة العس=صر يوم الجمعة خرجوا إلى محراب المقبرة وهو موضع معروف بالبركة, واستجابة الدعاء , واجتمعوا عنده وقرأوا وتطوعوا بالمعروف, وعادتهم أن يحضروه ويدعوا, ثم حضرت صلاة المغرب وصلى بهم إمامهم يونس بن أبي الحسن, فلما صلى دعا الله أن يرفع عنهم الوباء, ولم يصبح حتى لم يجدوا له أثرا.

وذكروا عنه انه كتب إلى من بقسطيلية من طلبة مزاةة " إما بعد فاجعلوا حوائجكم بكريات, وإذا وجدتهم ما ترعون فارعوه رعى النهماء من الغنم, ولا تمجوه مج الريان الماء " في كلام كثير ينشطهم به إلى القراءة والاجتهاد في الطلب.

أبو الربيع سليمان الزلفيني

ومنهم الشيخ أبو الربيع سليمان بن موسى الزلفيني رحمه الله، ذو النفس الألفية، والخلق المرضية، والدعوات المتسجبات الدينية، المحافظ على الأمور الدينية والدنيوية.

كان الشيخ مجاب الدعوة عند الله

وعنه يحكى انه نظر فرج ابنته ففارق امها وعنه يحكى انه قال: أن أهل وارجلان إذا مات احد من فضلائهم في أي قرية من قراهم بعثوا إلى أهل القرى ليحضروا جنازته، فكانت هذه عادتهم، فلا يعجلون بدفن من يموت عندهم حتى يشهدوا جنازته جماعتهم، قال فمات رجل في "يمطنون" يسمى "صالح الصادق" فبعثوا إلى أهل "تينماتوس" قالوا فحضرنا جنازة الرجل وكنا قد وجدناه قبل أن تخرج جنازته وجدنا داره مشحونة بالناس قال ففعدنا على باب الدار، فجئ بالنعش فإذا الباب ضيق قصير عنه، فجهزوا الميت واخرجوا النعش ولما صلوا إلى الباب خرجوا أسهل خروج، فأختلف من حضر داخل الدار وخارجها فقال بعضهم إنما خرج من العتبة، وقال بعضهم بل اتسع الباب وخرج النعش ببركة الله تعالى.

وذكروا إن أبا محمد بن سليمان العرجا ورد من القلعة* على أبي الربيع فقال له: أني تركت عبدالله بن حسن وولده في الجيش القلعي، فادع الله أن يهلكهما فقال له كن في غيرهما، وإما هما فقد هلكا فكان كما قال وسمع ماكسن يدعو على بن ظافر فقال له ادع على غيرهم، وإما هم فقد هلكوا فكان كما قال. وكان العزابة يقولون: إذا أردت أن تعرف عدد عيال أبي الربيع فراقبه وقت التطوع بعمل المعروف يعنى أنه يتطوع على كل رأس بمعروف، وكانت له حركة في جسده فيها دلالة يعرف بها أموراً خفية، فكان الشيخ إذا دعوا وحس بما يدل على استجابة دعائهم يقول لهم: قد أجيب دعاؤكم وإلا سكت ومثل هذا من الكرامات لا تتكرر.

يأبى من ارتكاب المكروه ولو انه يجر منفعة

وعزم أبو الربيع سليما بن موسى على أن ينكس عينا أو يحفرها، وهي التي في شرق مسجد تامولسة فأعانه إخوانه بخدمة عبيد، فلما حضره العبيد وشرعوا في الخدمة جعلوا يتغنون، ويقولون ما يقول أمثالهم، فقال لهم "اطلعوا من عيني فان كانت لا تحفر إلا بمعصية الله فلا حفرت، قال أبو مرداس هلاك في طاعة خير من نجاة في معصية" فلما رأوا ذلك منه تركوا ما كره.

الشيخ أبو الربيع يكرم ابن أبي وايدران تقديرا لأبيه

وذكر أن الشيخ معاذ بن أبي علي كان مسكنه بقصر بني وليل من بلاد قبلة اريغ، فكان دأبه إن يأتي في كل ليلة الجمعة إلى اجلو فيبيت مع الحلقة، يحيى ليلة ثم يقيم حتى يشهد مجلس يوم الجمعة، ثم يصلى العصر ثم ينصرف إلى أهله، فصادف مجيئه ليلة من الليالي مجيء فتى من ولد أبي ويدران الفطناسى المراتي يسأل المعروف وكان هذا الفتى اقرع وكان أبو ويدران المذكور أول غريب دخل هذه البلاد الريغية وهو الذي بني مسجد تينسلمان، على مصلى حبيب بن زلفين قيل فلما رأى معاذ المذكور الفتى المذكور ازدارة وانتهره، فقال له، ما ها هنا إلا التلامذة وإلا فاهل المنزل قد خرجوا في طلب الربيع، وكان الشيخ أبو الربيع بحيث يسمع كلام معاذ فانتهره، وقبح عليه ما قابل به الفتى، وقال له: قال الله تعالى "وكان أبوهم صالحا" ثم التفت إلى أهل الموضع فقال لهم أعطوه ما أعطاه وقتي، فأعطوه ما أربى على مأموله، وانقلب شاكرًا، ثم إن الشيخ أبا الربيع قابل معاذًا بأشد من الوجه الذي قابل به الفتى، وأنبه كل التأنيب بكلام طويل.

ومنهم أبو العباس أحمد وأبو يعقوب يوسف

ابنا الشيخ أبي عبدالله محمد بن بكر رضي الله عنهما

كانا في طلب الخير فرسي رهان مشتركين في كل فضيلة شركة عنان ففعل أحدهما أعلم والآخر أزهدي، فلكلا الوصفين دلائل تشهد فإن المنسوب إلى أحدهما تأليف كتاب، وتهذيب جواب والمنسوب إلى الآخر دعاء مستجاب واستعداد لمآب، وبيننا انهما حائزان على هذا السباق، ومن دون اغبارهما تقطعت الأعناق ولا غرو لامثالهما في جميع أحوالهما فان مفيض ضيائهما بدر باهر النور بهيجه وهل ينبت الخطي إلا وشيجة؟

فضل أبي العباس وخدمته للمذهب

قال أبو محمد اجتاز بنا أبو القاسم عبد الرحمان بن عمر فخرجنا معه مودعين وكان فيما أورده من القول عند وداعنا أن قال: أن اقل ما نزل من السماء إلى الأرض التوفيق وقل ما يدعوه به المرء إلا استجيب له، ثم قال: رحم الله احمد بن محمد فقد كان رحمة لأهل مذهبنا حيا وميتا، وذلك انه كان في حياته بيت العلم يفيد به كل طالب وكل ذي حاجة، ولما دنت وفاته أودع علومه الكتب فصنف تصنيفات خمسة وعشرين كتابا وكتبا آخر تركه في الألواح*.

يتعجب من احوال الناس يفعلون خلاف ما يعتقدون

وذكر داوود بن يخلف عن أبي العباس أنه قال : الناس إذا أتاهم خبر خوف انتقلوا عن الحال التي كانوا عليها قبل ورود الخبر ولو كانوا في حر وبرد، وأخذوا لانفسهم بالحدز والتحرز، ولعل ذلك الخبر يكون أو لا يكون وليسوا منه على يقين ولقد أنذرهم الله النار وخوفهم من الشيطان، وكان ذلك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصدقوا المرسل والمرسل، وأيقنوا بذلك وتركوا التحرز، واغفلوا الاستعداد لذلك، والحدز من سوء ما يتوقع من ذلك ونسوا فقد إخوانهم وتفقد أحوالهم، ويا عجا الناس يكرمون اضيافهم خوفا من اللؤم والذم واضياف الله الكرام الكاتبون معهم وهم يعملون ويتيقنون انه " ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد " . " له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله " ومع ذلك فلا يعباون ملا يكثرثون.

سبب إقبال الشيخ على التأليف

وعن أبي محمد أن سبب تأليف أبي العباس كتابه الذي تسميه العزابة " ابا مسألة " ان أبا عبدالله محمد النفوسي كتب إليه من " أبيدلان " يرغب إليه في مختصر، مشتمل على مسائل في الفروع فتدبر كيف يضع هذا التأليف فنام فرأى في منامه قائلا يقول له : اذكر ابا مسألة، فجعله في جزئين فسماه العزابة ابا مسألة واما أبو محمد فكان يسميه جامع الشيخ أبي العباس.

وروى أبو محمد وأبو نوح عن أبي العباس قال: أناني أت في منامي رجل ابيض فتقدمني واتبعتة حتى دخل في قرية " تنزاج " من قرى نفزارة ثم أتى المسجد وقصد المحراب فقال لي احفر فحفرت حتى استخرجت قصعة المحراب فقال لي احفر فحفرت حتى استخرجت قصعة كبيرة، فوجدت فيهما دينارا فقال لي خذا ارث والدك فسألت " بقابس " عن تأويل رؤياي رجلا حاذقا بتفسير الرؤيا، فقال لي : القصعة العلم والخير والدينار الصافي دين والدك فرجعت إلى " تمولسة " قال فبلغ فيها في العلم مبلغا عظيما وصنف بها عشرين كتابا وكتابين معروضين عليه، وقد عرض جميع ما صنف غير كتاب واحد تركه في اجلو مبيضا في الألواح ورغب إليه الأشياخ في وصولها إليهم " بايفران " من قرى وارجلان فعرضها عليهم ولده، وهم : إسماعيل وحمود بن المعز، وأيوب بن إسماعيل، وداود بن واسلان وأبو سليمان الزواغي.

انكياب الشيخ على المطالعة زمن التلمذة

وروى أبو عمرو عن أبي العباس انه قال: كنت اقرأ على الشيخ سعدون واحضر مجالسه فاول ما وقعت فيه المذاكرة عنده مسألة ذبيحة الاقلف, هل تؤكل ام لا؟ وقال في المسألة قولان ولم يزد على هذا شيئاً قال أبو العباس وكان الديوان في نفوسة مشتولاً على تصانيف في المذهب فلازمت الدراسة أربعة أشهر لم أذق فيها نوماً ليلاً ولا نهاراً إلا فيما بين اذان الصبح إلى طلوع الفجر فنظرت في أثناء ذلك فيما هناك من كتاب المذهب التي وصلت من المشرق فإذا هي نحو ثلاثة وثلاثين ألف جزء فتخيرت أكثرها فائدة فقرأتها حينئذ.

الفتنة التي وقعت بين أهل الدعوة باريغ, وخرج المشائخ منها وذكر انه وقعت فتنة ببلاد اريغ سنة إحدى وسبعين وأربعمائة, وهي فتنة "خيران" وتغامرت" هي أول فتنة وقعت بين وهبية اريغ فلم يمكن ابا يعقوب بن الشيخ مقام فهرب إلى وارجلان فكان "بتماواط" وهرب أبو صالح من "وغلانة" ف قضى الله بوفاة أبي يعقوب بتماواط فأوصى واستخلف على تنفيذ وصية الشيخ أخاه أبا العباس, فجاء أبو العباس إلى محمد بن أخيه فلم يجد عنه ما ينفذ منه وصية والده غير دينار واحد, لانهم كانوا في عسر شديد عظيم, بعد رجوعهم إلى عين يونس, فقبض منه الدينار فصرفه في اوكد وجوده الوصية, ولم يزل يستخرجه برفق حتى انفذها كلها

وبلغ أبا محمد إن أبا العباس احتضر وكان قد استخلف أبا موسى على وصية فجاء أبو محمد مبادراً إلى "أجلو الغربي" فوجدوه في دار يحيى بن جعفر في السياق, فاعلم بقدمه هو ومن معه فقال: ايتوني به وباصحابه فلم يدخلوا عليه إلا وقد توفي رحمه الله, وكان قد أوصى بان يصل على أبيه أبو محمد, فجهزوه وصلى عليه ودفنوه وكانوا قد ألقوا على القبر سترة فقال بعضهم إنما هذا للنساء, وقال بعض نصنعها للرجال وللنساء, فهوا احسن من أن لا تكون سترة فلما دفنوه دخلوا وعزى بعضهم بعضاً, وعزوا أهله فتمثل أبو محمد عند دفن الشيخ أبي العباس بقول الشاعر:

كفى الخليلين أن الأرض بينهما

هذا عليها وهذا تحتها بالي

وكان وفاة أبي العباس بذى الحجة سنة أربع وخمسمائة رحمة الله عليه

أبو العباس أحمد الوليلي رحمه الله

ممن رزق على العبادة والطاعة طاقة, وأيد بالرضا والصبر على العدم والفاقة, وكان ذا كراما يتناقلها الراؤون وبركات لم ير مثلها الراؤون وكان له حسن اعتقاد كثرة قناعة واقتصاد.

ساعة تجل ظهرت لأبي العباس

ذكروا أن أبا العباس أحمد الوليلي طلع سنة من السنين إلى جبل بني مصعب, في أيام الربيع, فصادفه هنالك شهر رمضان فلازم ربوة * يتعبد فيها عاكفاً على القيام والصيام فلما كان في الليلة السابعة والعشرين من رمضان وكانت ليلة جمعة اقبل على ركوعه وسجوده, فينما هو كذلك إذ رأى كل شيء معه ساجداً فلما سلم رأى نورا ساطعاً وأبواب السماء مفتحة, إذا بحورتين* قد نزلتا من السماء فقصدتا نحوه وقد التقتا في لحاف واحد, إحداها كبيرة والأخرى دونها صغيرة لم يرى مثل صورتها لا مثل نورهما الذي أضاء البر, فقعدتا أمامه والصغيرة خلف الكبيرة, فخطبتهما وجرى بينهما كلام, حتى أعلمتهما انهما زوجتاه في الجنة, فحاول الدنو منهما فقالت له الكبرى: إليك, إليك عنا, فان فيك نتن الدنيا وكلن الميعاد بيننا وبينك في العم القابل ليلة الجمعة كدية الطبل من تينسلمان, وهو منزل أبي العباس قال فصعدتا ثم اتبعتهما ببصري حتى غابتا في

السماء, وغلقت الأبواب دونها فسار أبو العباس بأثر ذلك إلى وارجلا فأخبر بعض الشيوخ بما عاين فلما دنا الوقت جاء إلى اريغ فمر بالشيخ أبي العباس ابن محمد بتينيسلا فرغب إليه هو العزابة في المبيت , فأبى وجاء إلى أبي العباس أخبره أن الميعاد بينه وبين الحور العين ليلة الجمعة المقبلة , فقال لهم أبو العباس : دعوه فان الدولة عنده الليلة المقبلة, فتوجه إلى الرملة فإذا الحورتان كاسفتا اللون كأن بهما كآبة, وكان أبو العباس إذا وصفهما يقول كأن العين منهما كالقدح, والاشفار كحناح النسр, وارنبتيهما كناحية فصر بنى يخلف, فسألهما عن تغيرهما فقالت لبوحك بسرنا, ولان أولياء الله يقتلون على أمرهم بالحق, وذلك حين قتل عبد الحميد الوليلي, واستخف بأهل دين الله وماكس بن الخير يرجم بالحجارة لأمره بالقسط , قيل: وقد ذكرت له إلا بدال حينئذ إن إبدال وقتهم سبعة : عبدالله بن يحيى وإبراهيم بن إسماعيل وإبراهيم بن معاذ ويحيى بن عيسى والنعيم بن الولي وقيل سليمان بن عبدالله, وصالح بن محمد , وقيل يوسف بن ونماوى, وقيل عبدالله بن يعقوب, وهؤلاء كلهم رجال صالحون, ثم قالت له ليلة الاثنين تبيت عندنا وصعدنا إلى السماء , فلما صلى صلاة الظهر يوم الأحد بعد أن ودع أهله وقضى جميع ما أراد قضاءه موقنا بما لا بدله منه, فقال لهم أحسست صداعا فما هو إلا أن صلى العصر فمات رحمه الله.

أبو زكرياء يحيى وأخوه زكرياء

ومنهم أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر, وأخوه أبو يحيى زكرياء رحمهما الله, كان من الأفاضل المقتفين آثار الأوائل, لم تزل نفس الديانة بحياتهما حية, وطرق البر ناهجة والصلاحية وطلب علوم المذهب وسير من تتسك أو ترهب, ولهما في علوم النظر أطول باع, بادلة ذات إقناع وحجج تملأ القلوب والأسماع, وتغنى عند المحاضرة ما لا تعني المشرفية عند القراع فكانا مراد الفارين على تباعد الدارين.

ما عليه أهل وارجلان في عهد الشيخ أبي يحيى

ذكروا إن أبا يحيى زكرياء بن أبي بكر توجه ذات سنة إلى وارجلان زائرا, ثم رجع فمر بجماعة من أصحابه بقطرار, فسألوه عن أحوال هل وارجلان وكان ذا فطنة وبصيرة, فقال: إما أنا ذهب بصرى فلا أرى شيئا , ولا رأيت احدا, وأما وارجلان خلت فما بها أحد.

وحكى أن أهل وارجلان قالوا له حين وصل إليهم: أقم عندنا قليلا نتأنس بك, فقال لهم: قالوا قم عندنا قليلا يمت قلبك, وذلك لما اطلع عليه من سوء طريقته, ورداءة أحوالهم*.

وذكر غير واحد من تلامذة أبي الربيع سليمان بن يخلف قال: أردنا الطلوع إلى جبل دمر لدراسة الكتب, ونحن جماعة نقرأ بتمولسة, فلم يوافق ذلك أبا الربيع ولا أبا يحيى زكرياء فمضينا على ذلك فشيئنا أبو يحيى فقال : اعلموا أن سوء الرأي إنما يخرج منه من دخل فيه بالرجوع عنه, لا بالتمادي عليه, وقال لهم أيضا: أنكم إن مضيتم إلى اهليكم على هذا الحالة كنتم كمن تعمد إماتة الدين, وهذا تحريض وترغيب في طلب العلم.

وكان كثيرا ما يوصيهم فيقول لهم: إياكم والتسارع إلى قبول صنائع الناس وهداياهم فانه قيل كن عبدا لله ولا تكن عبدا للناس, وانشد في ذلك:

ولست وان قربت يوما ببائع

لديني وأخلاقي, رجاء التقرب

ويعتادة قوم لقوم تجارة

ويمنعني من ذلك ديني ومنصبي

وكما قيل : اترك الطمع يتركك الفقر , واحمل نفسك على مالك يحملك وارض بقليل من الرزق يرض الله عليك بقليل من العمل

وكتب أبو زكرياء إلى أبي نوح محمد في مسألتين: إحداهما خلع الفضول هل ينعقد؟ وذلك مثل رجل يقول للآخر قد رددت ل ما لامرأته عليك على وجه الطلاق, فيقول: قد قبلت فيبلغ ذلك المرأة فترضاه, فأجابه بان ليس في ذلك شيء, ولو أجازته لأنه تقدم بغير أمر, والثانية الوالد والولد والزوج والزوجة هل يجوز لكل واحد منهما حوز مال الآخر أم لا؟ فأجاب بأنه يجوز ذلك للأب والزوجة ولا يجوز ذلك للابن والبعل لأنهما خديمان وقيل فيهما غير ذلك, قلت أما المسئلة الأولى فعلى اصل قول أبي الشعثاء رحمه الله لا ينعقد الطلاق لذلك على كل حال, لأنه عنده فسخ نكاح, وأما على قول أبي عبيدة فتخرج المسئلة على انه أن قال له تركت لك صداق امرأتك على أن يطلقها, فيقول قبلت, فتجيز المرأة الترك ويقبل الخروج من العصمة فهذا ينعقد, وألا فتحتمل الخلاف. وأما الثانية فان الابن إذا كان في حجر أبيه جاز له, وان كان غير محجور فله من مال أبيه النفقة والكسوة والمؤن, وفي مذهبنا العتق في الظهار, وليس له التصرف في غير ذلك, وللمرأة في مال بعلها ما لمثلها على مثله فقط.

ينبغي للإنسان أن يتزوج كفاه

وشاور رجل أبا يحيى زكرياء في التزوج, وأي امرأة يتزوجها؟ فقال: إذا جئت إلى شجرة فأبي ثمارها ايسر عندك؟ ما مددت إليه يدك نحو فمك, ام ما أشرف إليه عنقك, أم ما طأطأت إليه رأسك؟ فقال بل ما مددت إليه يدي , وما كان أمامي فلم احتج فيه إلى مديدي إلى الأشراف ولا أن أطأطئ إليه رأسي , قال عليك بقرينتك.

وروى أبو عمرة عن أبي زكرياء بن أبي بكر انه كان كثيرا ما يردد قول يحيى بن معاذ الرازي: للتوبة ثلاثة مقامات, الندم, والاستغفار, والحقيقة, فالندم عند التحول – والشعور – بمرارة المعاصي, والاستغفار طلب الغفران بصحة الارادة, والحقيقة الأوبة إلى الله عز وجل فأفة الندم الأمل, وأفة الاستغفار الغفلة, وأفة الحقيقة الشهوة فيستحسن فيعمر به مجالسه.

من ينبغي أن تجالس

وروى أبو عمرو عن أبي يحيى قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: من نجالس بعدك يا روح الله؟ قال من يذكركم الله رؤيته, ويزيد في علمكم منطقه, ويرغبكم في الآخرة عمله قال أبو زكرياء, مثل أبي يحيى , وقال أبو عمرو مثل أبي زكرياء.

مصالاة بن يحيى ولفلول بن يحيى

ومنهم مصالاة بن يحيى, ولفلول بن يحيى رحمهما الله لكل واحد من هذين الشيخين مآثر , وفضائل مخلدة في بطون الدفاتر ينقلها عن الأوائل الأواخر, معدودين في أهل العلم والديانة والبصائر.

وكان الشيخ عظيم الثقة في الله تعالى

ذكروا إن مصالاة بن يحيى كان كثير الثقة بالله عز وجل, وكان يقول: إنما استدللنا على أن الله عز وجل قد استجاب دعائنا الذي ندعوه به في أمر الآخرة بما شاهدناه من إجابة فيما نسأله في الدنيا.

وذكروا إن مصالة بن يحيى أوصى داود بن أبي يوصف فقال: إذا عمل أهل وارجلان عملا مما لا تعلم فاحمل نفسك على أنك لا تعلم, وإن كان مما تعلم انه سوء عمل فاحمل نفسك على الكتمان, ودع عنك الاختلاف وقد حكاه آخر عن أبي عبدالله, وقال أبو نوح كان مصالة إذا سئل بماذا تصلى هذه الفضيلة أو هذه النافلة من القرآن؟ يقول: القرآن كله قدح غسل فما والاك منه وجدت عسلا.

احتقاؤه بالتلامذة

وعن جماعة من تلامذة أبي الربيع سليمان بن يخلف قال لما انفصلنا عن "تمولست" وتوجهنا إلى بلادنا جزنا على ناحية اريغ, فسلطنا من "وغلانة" ومررنا بفلفول بن يحيى فاکرم مثنانا, واحسن نزلنا, وكان يوق مع ذلك معتذرا قريتنا صغيرة, ودراهمنا قليلة, ويتمثل بالبيتين:

أرى نفسي تتوق إلى المعلى

ويقصر دون مبلغهن مالي

فلا نفسي تساعدني ببخل

ولا ماليا يبلغني المعالي

واقبل تلك الليلة على مؤانستنا وافادتنا بغرائب الأخبار والسير, حتى كاد الفجر يطلع, فمما حفظناه تلك الليلة أجوزة في الوعظ أوردناها علينا وهي قول الراجز:

إذا رأيت صلعا في الهامة

وجذبا بعد انتصاب القامة

وصار شعر الرأس كالثغامة

فأيس من الصحة والسلامة

وعد إلى التوبة والندامة

فقد عليك قامت القيامة

وقال: لما مات أبو عبدالله محمد بن بكر قلت للمشائخ "اقتفوا بنا آثاره مادات جديدة غير مندرسة , قالوا مهلا عليك, فساعدتهم حتى عفا الأثر, ودرست السير . ولما انفصلنا شيعنا فقال له أحدنا: ارجع , فقال آه, لا يقال كذلك إنما يقال انظر في الرجوع ولم يزد بعد هذا خطوة, لأنه قال: إنه ما جوز ما لم يقل له ارجع , وكان هذا الشيخ شديدا في الأمر والنهي والدب عن دين الله, فروى إنه حين احتضر كان يتمثل بقول عمران بن حطان رحمه الله:

حتى متى لا أرى عدلا اسر به

ولا أرى لدعاة الخير أعوانا

فتح عليه بالقسم الأخير, وعجز عن الأول, فطفق بسئل من حضر كيف القسم الأول من هذا البيت؟ فكان هذا من آخر كلامه , رحمه الله.

أبو موسى عيسى بن يرصوكسن

ومنهم أبو موسى عيسى بن يرصوكسن رحمه الله. الشريف منسبا, الطيب مكسبا الرفيع مطلبا الهاشمي العربي, وابن عم النبي, نماء عبد المطلب والعباس, فانتفى إلى أشرف بناء قائم على اثبت أساس, الدين حليته والحياء والكرم جبلته, والسخاء سجيته, وهو ممن يتعلم منه الورع والعلم , ممن يطعم ولا يطعم.

الشيخ أحيى مواتا وعمره فظهرت فيه البركة

فروى أن عيسى بن يرسوكسن شاور أبا يعقوب يوسف المعروف بالطرفي في نزوله المنزل المعروف "بتلاعيسى" المنسوب إليه، فأخبره بحال البلد، فدلّه على ذلك وشكره له، إلا أنه قال: إذا توطنت هذا الموضع فلا تمش راجلا ولا تشرب ماء إلا ممزوجا ولا تشربه صرفا، واستخدام ولا تخدم بنفسك، وكن للناس كالسماز مع الماء أن علاه الماء خضع، وأنا علا الماء سطع، فبلغ في هذا المنزل مبلغا عظيما هو، وبنوه من بعده، يحيى وداود، وعبدالله بن يحيى، وأنضم إليه الناس وسكنوها معهم وغرس بها الشيخ عيسى الأشجار من النخيل، وصار في النخيل ودايا كثيرة، وكان إذا قلع الودايا الراكبات في الأمهات يسلخها ويرفع جمارها إلى "باموط" مع لحم ما يصيده من الوحش والطباء والأرانب والظلمات، والبيض، والحبارى وغير ذلك، فيهدى ذلك إلى المشائخ العزابة فيأكلون اللحم والجمار فكان يتبرك بذلك فبارك له ربه في كل ما يحاوله، وسعى في إصلاح فساد المفسدين من بني وليل حتى أصلح الله فسادهم، فاستقامت عمارة هذا الموضع واشتهرت بركته وعمره جماعة معه من المشائخ، وانضافوا إليه ومنهم من ضرب في العقار بسهم وأن لم يستوطن المنزل، والجماعة المذكورة هم: أبو عبدالله بن بكر، ومحمد بن الخير، وماكسن بن الخير، ومعاد بن علي، وعبد السلام بن أبي وزجوف، وأن آثارهم بها إلى اليوم معروفة.

خبر خيل الميورقي عندما وصلت الموضع ولقد حدثني رجل ينتمي إلى "لمتونة" يعرف بابن القابلة، ورد توزر سنة ثلاث وثلاثين وستمئة، قال: وكنت في خيل يحيى بن اسحق الميروي* متوجها بعسكرة من اريغ إلى وارجلان، أو قال من وارجلان إلى اريغ، فنزل "تلاعيسى"، وأراد الأجناد والأعراب أن يطلقوا خيلهم في الزرع فأنذرهم بعض من معهم ممن عرف قديما حال الموضع وأهله، وحذرهم، فقال: هذا موضع منسوب إلى رجال عزابة، صلحاء مساكين، يتقى عقوقهم فأياكم وإياهم، فمن الجند من تتحى منهم من توقف، فقال لهم عمران كاتب الميروي: "أبكلام هذا لسخيف أمنع فرسي هذا الخصب، قال لهم، فليدعوا على فرسي، واطلقهما في الزرع ترعى واقتدى به غيره في هذا الضلال، والاستخفاف بقدر أولياء الله، قال وكانت فرس عمران تسوي أربعمئة دينار قال فوالله ما رفع من هناك إلا رستها وسرجها وإنها السابقة سبعة وعشرين فرسا للمستخفين من الأعراب، والأجناد، لكها صرعى هلكى عبرة لأولى الأبصار.

ويروى إن جماعة من دعار بني وليل بلغهم أن الشيخ عيسى عزم على المسير إلى اريغ، فهموا بقتله، ورصدوه، فركب بغلته وصرف وجهها إلى ناحية اريغ فشمست وامتعت عن المشي، فضربها فتولت وذبحت برأسها فلما رأى ذلك استخار الله تعالى في لرجوع، فما رجع إلى أهله شعر بمكر أعداء الله فقال: قد وقفت عند كل ما أوصاني به الشيخ أبو يعقوب إلا الخدمة فأني لم أجد بدا من الخدمة بنفسى، يريد لو لا سبب ركوبي ما نجوت من مكر أعداء الله.

إسماعيل بن يدير

ومنهم إسماعيل بن يدير رحمه الله. لم يتأخر عن تلك الطبقة ولا فاته أحد من تلك الحلبة ولا سبقه، بل هو معدود في المبرزين، نقي من درن إعجاز المعجزين، وإذا عد الحفاظ كان أولهم تحصيلا، أو سمي المجتهدين فهو الذي لا يفتر بكرة وأصيلا.

ديوان العزابة والذين تعاونوا على تأليفه

ذكر غير واحد من المشائخ أن جميع الطلبة العزابة لما اجتمعوا على تأليف كتاب في المذهب، يسهل على المبتدئين حفظه وجعلوه خمسة وعشرين جزاء، انفرد الشيخ إسماعيل بكتاب

الصلاة, فجاء فيما نحوه أحسنهم تأليفا, وجاء تأليفه أحسن من تلك التأليف رتبة, وأكثرها فائدة وقيل بل جميع إسماعيل كتاب الصلاة كمل ذكر, وجمع أبو العباس بن بكر كتاب الحيض, وجمع أخلفتن بن أيوب كتاب النكاح, وجمع محمد بن صالح كتاب " الوصايا " ولما مات أبو سليمان داود بن أبي يوسف اجتمع تلامذته على تأليف الكتابين المنسوبين إليه, وليس هو مؤلفهما وقال أبو العباس, وإما الذين ألفوا كتاب العزابة فهم ثمانية شيوخ عزابة طلبة مخلصون, منهم من نفوسة: امسنات يخلفتن بن أيوب, ومحمد بن صالح و ومن قنطرار: يوسف بن موسى. ومن اريغ عبد السلام بن أبي سلام, وجابر بن حمو, وإبراهيم بن أبي إبراهيم, وعرضت هذه الأجزاء على أبي العباس وأبي الربيع ماكسن, وقال أبو الربيع لا يطعن في هذا التأليف إلا شيطان, ولست ادري هل الأجزاء المتقدمة الذكر داخلة في تكيل الخمسة والعشرين أم زائدة عليها.

الطبقة الحادية عشرة 500هـ 550

عبد الرحمن بن معلى

منهم عبد الرحمن بن معلى رحمه الله ورضى عنه. ذو المقامات الكريمة, والكرامات العظيمة أول من أسس بمسجد تقورت الحلقة وانهج طرقها, واحكم عقودها واوثقها, وقيدها ووقتها, وحجر على تلامذته أزقتها, وقسط موازينها, وحقق قوانينها, فتخلق كلهم بحيمد هذه الأخلاق وتيممها طلاب الخير من جميع الآفاق, يشاهدون البراهين والعبر, يشهدون المنافع الكبيرة, ويأخذون السنن عن الثقة والسير, ويصدقون المخبر والخبر, فلا يكلفهم بمحمل العلوم, حتى يتجاوزوا هذا المقام المعلوم.

رؤى الشيخ وبشارته بالجنة

حدث أبو الربيع عن شيوخ عدة أن الشيخ عبد الرحمن رحمه الله لما حانت وفاته وبشر بلقاء الله وتحقق قربيه استدعى إخوانه, وتلامذته, فاجتمعوا عنده في جمع كبير فاعلموا أنه يروم سفرا, فأراد توديعهم وأن يوصيهم, قال: فحضروا بقلوب كليه غير كليله, وكأبة كثيرة غير قليلة, فقال لهم: أوصيكم بتقوى الله, وملازمة ما انتم عليه, وإن لا تبدلوا ولا تغيروا فإنكم والله على طريقة الهدى, فان أهل هذا الطريق لمفلحون واسمعوا أحداثكم ما رأيته البارحة, رأيتم كان القيامة قد قامت والناس من قبورهم ينتشرون, وإلى ربهم يحشرون, فانتشرت من قبري, فرأيت جمعا كبيرا نظر الوجوه بيض الثياب باهر حسنهم, وجمالهم, صالحة شؤونهم وأحوالهم قد انتشرت من مقبرة بتجديت, فقلت من هؤلاء؟ فقل لي: هؤلاء العزابة الوهبية, فوهب الله لي جناحين فطرت بهما, حتى اتصلت بهم فكنت أحدهم, فبشرت بالخير, ثم نظرت إلى ناحية أخرى فرأيت أناسا كالجدوع المحروقة, فقلت من هؤلاء؟ فقل لي: هؤلاء الأعراب, وبنو((تاكسنيت)), ولقد رأيت في الجمع الاول رجالا اعرفهم بأعينهم, منجباء بني سبتتن, فقلت لهم بم فارقتم أهل الشقاوة؟ فقالوا بمخالطة أهل الدعوة, فإذا كان بملازمة أولئك فما ظنك بالمجتهدين, وبأهل الفضل والدين؟ ثم قال: ومصدق كل ما قلت لكم: إني إذا مت وغسلتموني وأردتم تكفيني فان طراز الكفن يجئ على عاتقي فتريدون تحويله, فتحولوه ثلاث مرات فيجئ على عاتقي, فتبقونه حينئذ على حاله, ثم إذا حملتم جنازتي وخرجتم تبعتمكم عشر حمامات بيض تتبع النعش, حتى تضعوني في المصلى لتصلوا علي فأنكم تصطفون فتكون الحمامات صفا من ورائكم, فإذا همتم بتقديم من يؤم بكم في الصلاة على فان جماعة من صلحاء أهل قرى قبلة اريغ سيقدمون برسم زيارتي فيعلمون بموتي وخروج جنازتي, فيخرجون ليصلوا على فيرونكم في أهبة من تقدمون فيقولون لكم بعد : رويدا؛

لا تعجلوا، فتتظرونهم، فإذا وصلوكم كان الذي يؤم بكم أحد القادمين وهو لي من أولياء الله، فساءهم وإنالهم من الجزع عليه كلما خدثهم، حتى إذا كان عند التكفين كان ما أعلمهم به فتذكروه، ثم كان من شأن الحمام والزائرين ما أعلمهم به، فلما وصلوا قدم الجماعة أبا عبد الله محمد بن الخير، فهو الولي وأنه لذلك لحرى، قلت لعل المذكورين من الجبارة من لا يتقلد التبعات، وكذلك فيما بلغنا كانت تلك الجماعات، وأن الجبابة إذ ذاك محسنون عدول في الجهات.

أبو إسماعيل أيوب بن إسماعيل

ومنهم أبو إسماعيل أيوب بن إسماعيل رحمه الله. بحر تتقاذف في غواربه السفن، وبدر يقتدي به من بحر تتقذى به من اقتفى من المقتفين، إن سئل في العلم أجاب فاقنع، وإن استسيل غيث سمائه في سماحة صاحب فأوسع، وإن استقسى فيهما معا أروى فانفع، وملاً الأذان والأيدي، بالافادتين وانزع، وهو ممن وقف على علاماته وشوهد عجائب كراماته شيخ شيوخ أكثرهم ساد، وقل ما روى من تلامذته إلا من استفاد.

الخبر عن دار الطلبة والضيوف

حدث جدي يخلف بن يخلف التميمي رحمه الله قال: كان شيخنا أبو سليمان أيوب إسماعيل كثير الأبرار لتلامذته، وكانت له داران بوارجلان متقابلتان، يفصل بينهما طريق، وفرق الطريق ساباط وصل بين الدارين من علو، فأحدى الدارين دار سكناه والأخرى مطلقة للتلامذة، والاضيايف فما كان في دار سكناه من تحف وضيافة يتحف بها تلامذته، أو يكرم بها أضيافه فأتينا يوماً بجماعة من تلامذته إلى الدار التي أبيح لنا فيها التصرف فوجدنا بابها مغلوقاً، فقرعناه فلم يجبنا أحد؛ فوقفنا فإذا الباب مفتوح فدخلنا فلم نجد أحداً فعجبنا لكلا الأمرين فأنا لكذلك إذا نزل الشيخ من جهة الساباط فصادفنا عند دخولنا الدار، فقال من أين دخلتم؟ وأنا أغلقت الباب فقلنا: أو لست فتحته أو أمرت من فتحه؟ قال: لا ولكني أعلم أن في الدار غير الهرة التي ترونها، وكنا شاهدنا آيات ذلك مراراً، وأنا لا نراهم أنثى ذات ولد، كان يخاطبها وتجاوبه إعلاناً وكان يوماً من الأيام ملازماً للدعاء وكان الزوار يدخلون مثني وفردى لا يعرضهم مكروه، حتى دخل شخص غريب لا رفق معه، فلما دخل صرخ ورأيناه في أسوأ حال، فقال الشيخ مالك ولهذا الشيخ المسكين الضعيف؟ فسمعنا صوتاً مجاوباً له يقول: إنه ظلمني، كنت عند عضادة الباب وابني في حجري، فكل من دخل استأذن وبسمل فأنحي ابني عن الطريق، فلا يؤذيني أحد ولا ولدي، حتى دخل هذا الجافي فلم يستأذن ولم يبسمل حتى ركض ابني برجله، فألمه، فجازيته على ذلك بمثله، فقال لها: ومع ذلك كله غريب مسكين قليل الحيلة قليل القدرة فأزيلي عنه ما أصابه منك، قال سمعاً لك وطاعة يا شيخ، فذهب في الحال ما كان من سوء الحال، ومثل هذا كثير.

وكان والذي رحمه الله متألماً ذات يوم لعله كانت تعتاده فحاولت ما أسلى به نفسه، واريح به ألمه فناولت تعليقة فيها شهر الشيخ أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي رحمه الله، فصادفت القصيدة البائية فجعلت اسرد أبياتها بحيث يسمع فأصغى إلي سمعه وسلاً ما كان به، فقال: أعلم أن هذه القصيدة قالها أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم يرثى بها شيخه أبا سليمان أيوب بن إسماعيل، ثم قال وأن فيه الدلالة على صحة خبر كنت سمعته في صغري من أبي رحمه الله فقلت وما هو قال: كان أبي في زمان شبيبته مهاجراً بوارجلان يقرأ على سيخه أبي سليمان أيوب بن إسماعيل حتى قضى حاجته من الطلب فانفصل فجاء إلى قسطنطينية فأقام بموضعه بكنومة ما شاء الله، فبلغه موت عم له كان مهاجراً بوارجلان قاطناً بها بتماواط وليس له وارث سواه، قال أبي فسافرت إلى وارجلان سفرة ثانية طالب ورث لا طالب علم، فلما وصلت سألته عن شيخنا أبي سليمان

لأزوره, فأخبرت بان الله قد ابتلاه في جسده ببعض ما ابتلى به أوليائه فعلم جسده الجذام, ولازمه اشد لزما ولازم المضجع لا حركة له, فجئت عجلان ولهان, فلما دخلت ليه نظر إلي وعرفني فتقدمت إليه لاسلم عليه, فخاطبني خطاب محذر أن أعافه واتقذره, فقال إليك إليك يا سليمان يا ولدى, فليس في حلى ما تدنو منه, فقلت: حاشا الله ان أتقذك يا شيخنا, وسقطت منكبا عليه أعانقه وأقله وابكي و حتى شفيت بعض هيامي, قال سعيد: ما علمت أن سعيدا حكاها قط إلا بكى وأبكى, ولا علمت أنني حكيتها قط إلا بكيت وأبكيت, قال سليمان: وأقمت مدة إقامتي بها لا افتر عن الدخول عليه حتى اقتضت ما كان لي من حق, فلما أردت السفر قافلا وودعت الشيخ وزودني بالدعاء وعموم البركة فانفصلت وقد بشرني بان سيخلصني الله م شدة عظيمة فلما صرنا من وارجلان واريغ وكنا في رفقة كبيرة فيها أموال جلييلة ومعي مال صالح, مما خف وثقل فاغرات علينا خيل كثيرة, وقد نسي احمد من أي العرب هي, قال فبادرت ودفنت كل ما معي فعلمته بحربة كنت دفنت عودها وتركت السن بارزا ليكن لي علامة, وكانت الحربة صقلية واستباح الأعراب جميع ما في الرفقة من قليل وكثير وجليل وحقير, واسروا الرجال, فلطف الله تعالى به وعجل فرجه قال فأمنوني ولم يعرضني أحد منهم بمكروه, وصحبتهم كأني أخ لهم, فلما كان من الغد جددوا لي الأمان في نفسي ومالي فاستأجرت أحدهم وصحبني إلى الموضع الذي دفنت فيه ما كان معي فرأيت سنان الحربة من بعيد, فمشيت إليه واستخرجت كل ما دفنت فحملته وحملت الأجير والمتاع, وجئنا حتى وصلنا, والعجب للحربة إذ لم يرها أحد من العرب بالأمس, وهي ظاهرة تلمع, وقدمت إلى أهلي سالما من جميع الآفاق, وما ذلك إلا بفضل الله وبركة الشيخ رحمه الله.

والقصيدة هي هذه:

أيوب ما أيوب لا أيوب
أودى به قدر الردى المجلوب
فتلوثت أيامه وتصرمت
حينا عليه, وللردى تعقيب
علقته إشراك الردى من بعدما
أوفى على مائه, وجاب الجراب
ما خط في المكتوب لا يخطئ الفتى
وكذا الفتى لم يخطئه المكتوب
حكمت عليه يد المنية حكمها
قيل الممات ولوحته خطوب
سدكت به أمراضه وتتحلت
أوصاله, لم يصف منه طبيب
دب البلاء بجسمه بعد البلى
فله به طول الحياة ديب
ذهبت يشاشته وشره مابه
وعلاه من بد الشحوب شحوب
وتغيرت منه المحاسن كلها
فتؤوب حينا, ثم بعد تلموب
حتى تخيل كالخيل خياله
بعد النضارة والرداء قشيب

فانسل منه الروح عند وفاته
بابي وامي الطاهر المسلوب
بل مات سبع سنين قبل مماته
لم يبق إلا الروح والتركيب
في كل ما يوم يمر وليلة
أبدا يقلب طهره التقلب
ضاه النبي سمي في دأبه
إذ البلاء بجانبه تذوب
فلذا عدا الدهر الملم بصرفه
فكذلك كان سمي أيوب
قد كان ذكرى للعباد ورحمة
للعالمين وانه لمنيب
فلئن أتى أيوب يطلب أجره
يوم القيامة والإله مثيب
واتى إمام الصابرين يقودهم
فلأنت أنت الصبر المنكوب
ولئن أتى يحيى الحصور سيدا
لهو الحصور السيد المحبوب
ولئن أتى عيسى بن مريم زاهدا
لعلى هداه, وهديه المحبوب
ولئن أتى يعقوب يحتسب أبنه
إذ غاب عنه وانحنى يعقوب
فلكان هذا كان اعظم رثوة
من مثكلات جلهن رقوب
بكت السماوات العلا ونجومها
حزنا عليه , والفلا والروب
واستوحشت منه , المساجد كلها
لما خلت منه , وحن النيب
واستشعر التقوى شعارا خالصا
فدثاره الترغيب والترهيب
الف التقى فاعتاده حباله
وجفا الذنوب , وقد جفته ذنوب
سبق الخلائق كالجواد بشدة
لما استوى عتقا به إلا لهوب*
بد السوابق كلها متهللا,
كيف السؤال إذا احتفى اليعسوب
فضلت فضائله الفضائل كلها
واها لجسم لم تشنه عيوب
رجل أتاه الله ربي بسطة

في العلم والجسم الكريم لبيب
الله عبد خالص, متخشع
متهلل متهيئ متعوب
عبد دعاه الالهة فاجابه
لما تيقن انه مربوب
منحته أبصار العباد محبة
لما رأته , والوداد قلوب
طاب الثناء به فطاب رثاؤه
المدح والتبين, والتقريب
أضحى أسير الله في أيامه
في العالمين وحاله مغلوب
والعقل أوفر ما يكون , وانه
كالشمس نور ثاقب مثقوب
وجه أغر, وشيمه وجلالة
من نور رب العرش وهو مهيب
يا غائبا ما تتقضي حسراتنا
أبدا عليه ولات حين يئوب
يا غائبا سكن الثرى في حفرة
تعلوا الصفائح قبره والطوب
أن غبت عن أبصارنا وسماعنا
لم تحتجبك عن القلوب غيوب
قد كان آن لك الجواب لسائل
يدعو, ويسئل كيف كنت تجيب?
ما كان ضرك لو أجبت نداءه
أن الحشا ضرر, وأنت قريب
فلئن رحلت وغلبت عنا ميتا
للحزن في الدنيا على رقيب
ولقد رأيت الخلق يوم مصابه
والنعش بعد لقاءهم مركوب
حيرا سكارى , هائمين لما بهم
زمرأ, حيارى, مردهم والشيب
تبكي لصرعته الغواني نوادبا
عون النساء, وغادة رعيوب
في مآتم حور المدامع قرح,
كانت تمزق أثوب وجيوب
وإذا انتحبن تفرقت أكبادنا
وتصدعت منه القلوب الهيب
خطب اجل, وعبرة مسفوحة
مهرقة , إن الخطوب تنوب

وعلا النحيب على رؤوس العالمين
الحاضرين وبن منه نحيب
وترى العيون من الدموع كأنها
ديم السماء تهمل الحيا وتصوب
وإذا دعون ترنما وتقجعا
منها النفوس وللقلوب وجيب
يا يوم مات ولم أمت كمدا له
اعظم به حزنا على نديب
يا رجة للعالمين لفقدهم
علم الهدى وتغذر الأسلوب
عمدوا إلى جبل ظليل ظله
سكنوا ذراه, ورأسه لشحوب
جعلوه تحت الأرض ثم تتعموا
يا للخلائق, أن ذا لعجيب
لهفى على الظل الذي ضمنته
بطن الثرى والمستراد رحيب
جادت به الدنيا وثم بدالها
سلبته, أن السالب المسلوب
نسبت مناقبه التي سلبت له
والباقيات الصالحات الطيب
فالدين يبكي شجوه من فقده
بحلاله وحرامه منسوب
فكان مجلسه مساجد أسست
سكنا على تقوى, ولا تصخب
يعلوهم فيه الوقار تخشعا
أن الطيور على الرؤوس رقيب
لم يشنأوا فيه بغيبة غائب
سفهما ولا نبز ولا تقليب
طوبى له, عمرا طويلا خالصا
في طاعة الرحمن وهو أديب
من للصلاة بجوف ليل مظلم
والليل اسود حالك وغريب؟
أو للصيام إذا تطاول يومه
وامتد طرفاه وهاج لهيب
أو لليتامى والأرامل بعده
وتواترت في العالمين حروب؟
أو للأمور إذا تقاقم هولها
أهل النهى والرأى بعد غريب
وتقاقم الخطب العظيم لفقده

ولربما هانت عليه خطوب
في المعظلات تلاحت وتلايكت*
واستعجمت واستبهم المطلوب
أو للحموع إذا أتت وتباينت
وعلا الكلام , فجفف الخطيب
وترى الخلائق أفحموا وتهافتوا
والناس منهم مخطئ ومصيب
يكفيك , بل يشفيك مما ترتجى
فهو الخطيب وانه لمنيب
جمعت محاسنه المكارم كلها
والمسلمون خلائق وضروب
ما ضرنا ما فاتنا من بعده
لم تبق إلا روضة وكثيب
ما يعبأ الأعمى بظلمة ليلة
أو حال من شمس النهار غروب
فعليه رحمه ربه وسلامه
حتى القيامة والإله وهوب
سبقت به الأيام باقي دهرنا
فمضى وما أدراك ما أيوب
خلق ابن آدم عرضة لمالك
إن المنية يومها لعصيب

أبو زكرياء يحيى

ومنهم أبو زكرياء يحيى بن أبي زكرياء رحمه الله. كثير الغضب في الله وعلى دينه شديد الغيرة
مستشعر خشية الله عز وجل, لا يخشى غيره, وقف عندما حده المشائخ, واعتقد أن طريقهم
لجميع الطرق ناسخ فهو على بصيرة في دين راسخ , قرأ العلوم أتقنها ووضع المشكلات وبينها ,
ورتب السير واحكمها, وتعلم العلوم وعلمها.

روى أبو عمرو عن الشيخ أبي زكرياء أن وجد الشيخين عبدالله بن عيسى , ويوسف بن موسى
متصارمين, فسعى بينهما حتى أزال ما وجد بينهما من وحشة, وما كان له علم بسبب ذلك ما هو
فقال له يوسف أما ترى يا أخي ما نالني منه من العقوق وأنا اقرأ في جزء من كتاب "الأشراف
على مسائل الخلاف؟" فتوجه إلى "تونين" فاجتمع بالمشائخ فاعلمهم بما رأى فبعثوا إلي
بالهجران, فأسرعت في اللحاق بهم فلاموني ثم قبلوا توبتي فسعى في طيب نفس كل واحد منهما
على الآخر حتى طابت نفوسهم وله في الأدب نبذ تذكر في مواضعها أن شاء الله.

أبو محمد عبدالله اللواتي

ومنهم أبو محمد عبدالله بن محمد اللواتي رحمه الله هو عبدالله بن محمد بن ناصر بن مياي بن
يوسف وزير الإمام افلح رضي الله عنه وتربته القديمة "بمرقة*" فيما ذكره, نجيب النجباء
وإما الأدباء , المعتمتي بحفظ الأخبار وتقييد سير الأخبار , درس العلوم زمانا وصحب الأشياخ
ضروباً وألواناً, حتى غدا وافر البضاعة في كل الفنون, مقلداً في كل مفروض ومسنون مميزاً في
مكيل ومدروع وموزون, قرأ عليه جماعة من التلامذة فنجبوا , وطلبوا ففازوا بما طلبوا.

اننا جعلنا الله أحراراً لنملك أمر نفوسنا

ذكر أبو الربيع أن أبا محمد عبدالله قدم إلى اريغ سنة خمسين وأربعمائة وهو ابن ثماني عشرة سنة، وكان في حلقة الشيخ يزيد بن يخلف الزواغي وله لوح طويل فلما وصلوا إلى "اجلو" خرج إليهم الشيخ "ماكسن" فصافح العزابة ورجع إلى أهله فلحقته خارجاً، فقلت له "يا شيخ أن العزابة قد انتفقوا أن لا يفترقوا فهل يجوز لي أن أفارقهم أن رأيت في مفارقتهم مصلحة؟ فقال لي إنما جعلنا الله أحراراً لنملك أمرنا فصحبته فكان هذا أمره مع أبي محمد ماكسن.

سفر الشيخ إلى القلعة بحثاً عن تفسير الإمام عبد الرحمن

وذكروا أن سبب سفر أبي محمد إلى القلعة فكان مما عرفه به مدوار أن قال له: تركت كتاباً في تفسير القرآن من تأليف الإمام عبد الرحمن ينادى عليه بالبيع في سوق القلعة، فسافر ولي له هم ولا ارب غير الكتاب المذكور، واستبضع شيئاً من الشب يظهر أنه تاجر، وغرضه أن نستتر به فيما اعتمده، وكان وصوله إليها في فصل الخريف فلما وصلها جعل يسأل عن الكتاب في خفاء برفق وسياسة، فبينما هو يسأل ذات يوم لقي رجلاً نكاريًا يدعى علم مسائل الفروع، فسأله عن الكتاب المذكور فقال له: متأسفاً على فواته، قد بيع قبل قدومك، قال أبو محمد وكان في القلعة حينئذ رجل من أهلها يعرف "بمحمد بن عصمة"، متفقه مدرس عليه حلقة فكنيت احضر مجلسه واعد من جملة أهل حلقة، فحضرنا عنده ذات يوم فقال لابن له سمعت بأن أغناماً لبني ينجاسن دخلت السوق، وما ضرنا إن نجتبت الشراء من السوق ثلاثة أيام فان من العلماء من يقول: إذا دخل السوق ربية فدع الشراء ثلاثة أيام ثم لا حرج بعدها في شراء، قال أبو محمد فاعجبني ما قاله، فجلسنا يوماً عنده حتى تذكروا الفقهاء وذكروا أبا حنيفة فقلت: أليس قد قال مالك: أبو حنيفة شيطان قذفه اليم، أبو حنيفة أضل لهذه الأمة من شيطان رجيم؟ وذلك لوجهين أحدهما كونه يقول بالأرجاء، والآخر لنقضه السنن بالرأي فلما قلت لهم ذلك وقعت عليهم وجمة وعلتهم كآبة، ودهشوا فقام إلى رحل منهم وفي لسانه ثقل فقال: ما حملك على ما قلت؟ فقلت له إنني لم أقل من عندي شيئاً إنما هو قول قاله مالك، فقال لي: حسبك بالعلماء بينهم كالضرائر قال أبو محمد فاشتريت كتباً ووجهتها في رفقة فأصيبت ثم استأنفت النظر في شراء كتب أخرى فبلغ أصحابي أن كتبي التي وجهت قد أصيب فقالوا لي: ألا تكلم السلطان في حقك لتكون من قبله معونة في الذي تحاوله من تحصيل الكتب فانه شغل ليس بحقير؟ قلت لهم: لا، بل أن كانت لي حاجة في شئ رجعت إليكم، ثم استعنت بكم، قال ثم اشتريت كتباً أخرى فلقيني الرجل الكاري فسلم علي فرددت عليه السلام، فلما انصرف قالوا لي مالك تسلم على مثل هذا؟ فقلت مالكم تسلمون على اليهود وهم مشركون ولا اسلم أنا على رجل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فأفحمتهم، ولم يجدوا جواباً، ورأني رجل منهم في موقف الشب وهو مكان معروف بأهل وارجلان، فقال لي وارجلاني والله! فقلت له أيحل لك أن تخاطب بهذا رجلاً مسلماً؟ فقال له أهل سوق ذلك الموضع بنس ما قلت! وكان ذلك في مدة قتل فيها أهل وارجلان جماعة من الاشعرية وسمعت رجلاً منهم يقول: قال لهم فليخرجوا أو يظهروا أو نقتلهم، فلما رأيت ذلك أسرعت في قضاء حوائجي ثم أن السلطان أخرج عسكراً فخرجت معه، فلما حضرت الصلاة قال لي قائد العسكر: ماذا تصلي يا عبدالله، وقد علمت الذي خرجنا إليه؟ فقلت له اشتغل بنفسك يا إنسان، وسرنا حتى وصلت "وغلانة" سالماً، وسمع شيوخ "وغلانة" بما أصابني في الكتب فاجتمعوا واجمع رأيهم على أن ينظروا في إعانتني بقدر ما أصيب مني ليخلفوه علي - فالله يحسن عونهم، ويخلف عليهم - فلما

أحسست بالذي عزموا عليه أردت الخروج في خفية, فخرجت بالهجرة فلم يشعروا بي إلا وأنا خارج البلد, فوصلت " تتوال " سالما والحمد لله رب العالمين.
فهذا الذي كان منه في مواطن كثيرة من هذه الحكاية من تقية وستر حسن جميل لا كما زعمه الحاسدون ونسبوه إليه, فان وإياهم كما قال ابن أبي ربيعة شعرا:
حسدا حملنه في حسنها
وقديما كان في الناس الحسد
وذلك أنهم زعموا أنه بدل وغير, وطول وقصر, وحاشا فضيلته من ذلك.

قائد لبنى حماد يحاصر وغلانه
وذكر أبو الربيع عن أبي محمد أن أبا زعل الخزري حاصر " وغلانة " فاجتمع هو ومثاله من المشائخ فدعوا عليه, فسلط الله على جنوده مطرا وابلا هطالا, فاوهنهم وأركسهم حتى أنه لاشيء ل أحد منهم قبل منهم بشيء, فتحققوا هذه العبرة, فقال أبو زعل, أكون لهذا الخوارج دولة بعد هذا وان فيها لدلائل استقامة احوالهم وأيامهم؟ فقال له وزراؤه: إنما أرسل الله إليهم هذا المطر ليهدم الحيطان ويكسر شوكتهم, حتى ندخل عليهم بغير قتال, فدام المطر أياما فجعله الله على أبي زعل عذابا واصبا, وجعله لأهل وغلانة خصبا ورفقا وتثيتا وأذل الله اعداءه ويحل بينهم وبين ما يشتهون فلما يئسوا منهما ارتحلوا صاغرين داحضين.

على الأب أن يعين ولده على بره
قال أبو الربيع تحدثت مع أبي محمد حتى ذكر أولاده ونظر في أمرهم فهونت عليه وقلت: انهم ذكران, رحال, فلا يهملك أمرهم فقال لا تقل هذا القول فإن على الأب أن يعين ولده على إبراره, وقد قال بعض المفسرين في الذين سماهم الله أبرارا لانهم برروا الآباء والأبناء, ثم قلت له: كيف حالك وابنك أحمد ويوسف إذا جاءا من المكتب؟ قال كيف حال ولدى العجوز, يعني الدنيا وانشد:
فمن لم يؤدبه أبوه وأمه
تؤدبه روعاته, وزلازله
وقال آخر:

وليس يؤدب الإنسان ابنا
كتاديب الدوائر إذ تدور
ووجدته في وقت الهجرة يكنس غديرا له فقلت ما هذا؟ فانشد:
نروح ونغدو لحاجتنا
وحاجة من عاش لا تنقضى
تموت مع المرء حاجته
وتبقى له حاجة ما بقي
وكان كثيرا ما يتمثل إذا أصابه خوف أو مكروه بقول الشاعر:
إذا ما خفت في أرض مضيقا
فشد اليعملات إلى سواها
فانك واجد أرضا بأرض
ولست بواجد نفسا سواها

فنفسك فزبها أن خفت منها
وخل الدار تنعى من بناها
ويتمثل لمن يتعاطى ما لا قل له بقول الشاعر:
ومستعجل للحرب والسلم حظه
فلما استدرات كل عنها محافره
ويتمثل أيضا في الخادعين الخالبيين, وفيما ينبغي أن يصحب به الزمان وأهله بقول الشاعر:
إذا اقتصد الفتى في المال قالوا
بخيل لا يهش إلى المعالي
وأنه سامح الأقوام جودا
فيالك فيه من حسن المقال!!
خداعا يخلبون نداه حتى
إذا عروه من نشب ومال
فعادوا بعد تقديس بشتهم
وصار بعد مذموم الفعال
أنا أبين الدهر, تجربة خبرا
به, وباهله في كل حال
أرى لك أن تمد يدك قصدا
بلا سرف ولا إمساك غال

وقال أبو الربيع قعدت أنا وأبو محمد على طريق فمرت بنا امرأة فالتفت إليها, فقال لي لا يجوز
فعود على الصعدات الا لمن أدى حقها, قلت وما حقها؟ قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم
وما حقه؟ قال: إغاثة الملهوف, وهداية الأعمى, وغض البصر عن المحرمات واماطة الأذى

وصية أبي محمد اللواتي لأهل الدعوة
وله كلام وعظ في أثر ما مضى يقول فيه: " ثم أني موصيكم أخواني ونفسي بتقوى الله العظيم في
السر والإعلان, وباتباع آثار دعوة المسلمين فان الاتباع أولى بالهدى من الابتداع, وعليكم
بالإنتمار لما أمر الله به من طاعته, والانتهاء عما أنهى عنه من معصيته, فاقتفوا آثارهم, فان الله
أوعد النار من خالفهم كما أوعد بها من خالفه وخالف رسوله, إذ قال تبارك وتعالى: " ومن
يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم
وساءت مصيرا " فاتقوا الله أخواني واحذروا مخالفة أئمتكم في القليل والجليل, فإنه قيل في المثل:
حيثما مال الحمل وقع, واحذروا كثرة مجالسة المخالفين, في ذلك اثر مشهور عند المسلمين,
كالذي يروى عن أبي نوح وأبي خزر رضي الله عنهما, وتجنبوا مخالطتهم والميل إليهم, وكثرة
مطالعة كتبهم, وحذروا من ذلك سواكم, إلا ترون مسألة السخط والرضا قد وقعت عند من وقعت
من أهل الدعوة من كتاب أحمد بن الحسن الضليل, فرسخت في قلوبهم ودانوا بها فضلوا واضلوا,
وكذلك خبر سليمان بن يعقوب بن الإمام وما تفرس فيه أبوه أنه سيضل بقراءته ديوان ابن
الحسين, فضل وقال بمسائل لم يوافقه عليها أحد من الأئمة إلا الشاذ الذي لا يخرج على قوله,
حتى برأ منه صالح وكان معه من المباهلة ما هو مشهور, واحذركم الترك بعد الحج, وعليكم
بالحذر من الانهماك في الشر والخلاف بعد الزجر عنه, فان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى
عن ذلك وغضب منه وقال: أمنهمكون أنتم فيها بعد ما جئتم بها بيضاء نقية سمحة سهلة؟ وقد

قال الإمام رضي الله عنه: بلغنا أنه قد ألقى في ديوان المسلمين ألف مسألة من مسائل الزنادقة فكيف ديوان غيرهم؟ وليس عليكم رحمكم الله إلا الاتباع فانهم سنوا لكم ما ترشدون به. ولقد بلغنا عن أبي عبيدة الحميد الجناوني رحمه الله أنه قال لأهل الجبل " والله ما تركتكم إلا على الواضحة النيرة، ما بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاث رجال لم أرهم، وفي بعض الروايات أن أبا خليل هو المتكلم بهذا الكلام، وقال النفوسى*: " نحن أصحاب آثار لو سلخوا بنا على جدار لسكانه" فيكيف يقول هذا بل قل سلخوا بنا على ظلمات المرهفات، وسلخناها، فيكيف الجدار؟ وبلغنا عن أبي عبد الله بن يزيد الفزارى قال: " إنما غلبنا أصحاب لربيع باتباع الآثار" وقال أبو صالح يعلو: " السبيل محفور إلى الركبة، فلا يؤخذ منه مخرج إلا بالوثنية" وقد حكى أبو سفيان رحمه الله عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال: " قد بينت الأمور، الحجة، وانقطع العذر، فلا جهل ولا تجاهل في الإسلام" وقد روى عن الإمام افلح رضى الله عنه انه قال: " عليكم بدراسة كتب المسلمين لاسيما هذا الكتاب، يعنى كتاب أبى سفيان محبوب رحمه الله " فانا لله وأنا إليه راجعون على موت الصلحاء والأولياء، وذهاب سيرهم وآثارهم، وقد بلغنا عن أبى مسرور رضى الله عنه انه قال: ما أرى رميات الأولين مخطئكم، ولقد صدق نبينا عليه السلام حيث قال: " بدأ هذا الدين غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء في ذلك الزمان قيل ومن الغرباء؟ قال: الذين يصلحون أنفسهم عند فساد الناس ويحيون من سنتي ما أماته الناس". وقد قال أبو محمد واسلان بن أبى صالح رضى الله عنه: ما مر قط على هذا الدين شر من هذا الزمان قيل له ما يئس الناس، بل نحن في جموع وجماعات وحلق وظهور، غير مستخفين ولا خائفين من احد، لم نكن كالأولين مختقين مكنتمين معتزلين في الجبال الغارات،. والبرارى والقرى، فقال لهم: هيهات لم يرزمان منذ قام هذا الدين إلا ولهم إمام أما ظهور وأما دفاع، وأما شراء، يقتلون ويقتلون ولا يهابون القتل في ذلت الله تعالى، القتل عندهم أثر من الحياة في رغد عيش، ولا يريدون غير إظهار الدين ودعوة الإسلام " ليبين للناس ما نزل إليهم" " ولتستبين سبيل المجرمين" " ليهلك من هلك قبل حال اضعف من حال أهل هذا الزمان؟ هذا قوله رحمه الله، فكيف بنا وقد قل العلماء، وكثر الجهال فلا تابع ولا متبوع، إلا من شاء الله.

لا يموت الإسلام حتى يفر عنه أهله ويتدافعون وقد بلغنا في بعض الأخبار: " إنه لا يذهب الإسلام حتى يتدافعه الناس وكل منه خال، فنعوذ بالله من أماته مذهب المسلمين ورفض سيرهم. وقد بلغنا من سليمان بن موسى أن قال: اثبتوا ثلاثا حرمة الإسلام، والحق، وصلة الحرم، خذوا لانفسكم أخواني منها واتبعوا لها مجالس الذكر، واختاروا لها الأرشد، ولا تأخذوا بمتروك العلم الذي جفاه المسلمون فقد قال جماعة من العلماء: " من عمل بمتروك العلم واخذ به لا يموت حتى يفارق الإسلام، ولا يموت إلا محتاجا" نعوذ بالله من خالفه المسلمين ونبذ سيرهم، وقالوا: لا يذهب الإسلام وتبقى سيره وأعلامه ولكن تذهب سيره وأعلامه ثم يذهب واحذروا غمض الحق وتغميضه، فان من سفه مقالة المسلمين فقد طعن واباح دمه، وتسفيه سيرهم وآثرهم كل ذلك طعن في الدين.

روى عن أبى الربيع سليمان بن يخلف رضى الله عنه: أنه قلما يقول من المجلس إلا قال: نعوذ بالله من تهوين راي المسلمين وتخطئتهم، ومن الترك بعد الاجتهاد ومن الحور بعد الكور، ومن ذم ما يأتي، ومن تحسين القول وتقبيح الفعل، وقد قال أبى بركة العماني رضى الله عنه، قلما تعسف أحد مذاهب المسلمين بغير فهم إلا حرم التوفيق، وقال أيضا: أعوذ بالله من مسامحة الآراء، وتقليد الأباء والكبراء، وابتاع الأمراء.

وبلغنا عن رجال من أهل هذا الزمان، أنهم قد صاروا إلى ما حذر منه السلف الأولون من التعسف وقلة التعفف. ولقد بلغنا عن بعض أهل العم من أصحابنا أنهم قالوا بقيت فرقة ستخرج من هذا المذهب، نعوذ بالله من سوابق الشقاء، ومما يعوق عن التقى نعوذ بالله من اتباع الهوى المضل ومن قسوة القلب، وجفاء الذكر، وعليكم أخواني بالنظر لأنفسكم مما يخلصها من نار عذابها طويل، ليس لها من آخر، ولا تغرنكم هذه الدار الفانية الغرارة، ولا ترغبوا فيما يفنى، وتدروا ما يبقى فان الموت من قريب سيفاجئكم، ولا تغفلوا عن الاستعداد لحياة الآخرة فأنكم لم تخلقوا لهذه الفانية، إنما خلقتكم للباقية، رحم الله عبدا اخذ من نفسه لرمسه، ومن داره لغاره، ومن مره لحلوه، ومن مرتحلة المنزل قطنتم فظعنتم، ورجفتم ففجعتكم، والدنيا قد أذنت بصرم، وأنذرت بكلم، يا أخواني بيعوا ما يفنى تربحوا ما يبقى فان الله لا يعذر جاهلا مرتكبا لمعاصيه، وعليكم بان تعملوا ما يهديكم وينجيكم، أخواني الم تروا التغيير في الناس فاشيا؟ وقد ذهب الأخبار فزالوا، وبقي الأشرار فاستطالوا، فلا مذكر يذكر، ولا موقظ يوقظ، فاتقوا الله وجدوا، واجتهدوا، وعضوا بالنواجذ على ما أدركتم عليه الأخيار، فان الدعاة إلى الضلال كثير، واستعينوا بالله، واصبروا، " وتزودوا فان خير الزاد التقوى " واحسنوا أن الله يحب المحسنين "، وقيل أ، الكلام لإسماعيل بن صالح رحمه الله، فالله أعلم.

وذكر أبو عمرو عن أبي محمد عبدالله بن محمد أنه تلقى جماعة عزابة " بايرغت " وقد قدموا من فحص " قسطلية " فقال: لهم إنما ينبغي ا، نلقاكم في " سوف " وإلا ففى " وغلانة " ولكن الزمان غير مساعد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تزال امتى بخير ما إذا قالت صدقت، وإذا حكمت عدلت وإذا استرحمت رحمت، جعل الله مجيئكم مجئ أبي مودود إلى حضر موت، فقام عندهم هذا الكلام أشرف مقام.

أبو محمد عبدالله بن محمد اللنثي

ومنهم أبو محمد عبدالله بن محمد اللنثي رحمه الله شيخ المشائخ وأستاذهم، ومن إذا التجأوا فهو ملاذهم منه تقتبس الفوائد، وفي منهله العذب تطيب الموارد، نور هده يكشف الغماء، وغيث حياته يروى فيشفى الظماء، كثير الانبساط والانبساط، والإقبال والأعراض، أن احب في الله انبسط وأقبل، وأن ابغض في الله انقبض لا يتأول ولا يتأمل.

حكم من رمى أحدا من أهل الإسلام بالشرك

قال أبو الربيع لما أسن عبد السلام بن أبي وزجون جلس ذات يوم مجلسا يكلم في العقائد، وقد حضر فيه جماعة ممن ينسب إلى النهوض في الفن الذي بسط فيه القول، فقال: أن من رمى أحدا من أهل الاسلام بالشرك فليس على من سمعه أن يشركه، إلا أن يكون المرمى من أهل الولاية، فلما سمع الطلبة كلامه حملوه على الضعف والخرف والكبر، ولم يردوا عليه في مجلسه ذلك بكلمة واحدة، وكان في المجلس عبدالله بن محمد اللنثي وغيره، فاجمعوا بعد قيامهم من المجلس على أن يتكلموا إذا عن المسئلة، ويصرحوا بتشريك الرامي، فلما كان الغد جعلوا منهم من سأل عن المسئلة فاتفقوا على أن الرامي مشرك، لم يخالف أحد من الطلبة في هذا الجواب، وبلغه ما اتفقوا عليه فطن أنه تعريض بما جرى أمس في المجلس، فلما انتهى السؤال إليه أجاب كجواب أمس، فلم يخلوه أيضا إجلالا لسنه وتعظيما لقدره قال الشيخ أبو عمرو أن أدعى التأويل كان الرامي منافقا كالصفريه وإن لم يدع التأويل كان مشركا.

تصرف أهوج يثير فتنه

وكانت لأبي محمد حلقة في تينزارتين ولم يزل به الحلقة قائمة، قد رتبت على الشيخ أبي محمد لا يخشون احدا ولا يمسهم سوء، حتى جعل الله لخروجها سببا، وسبب ذلك فيما ذكر أبو الربيع فيما ساقه من هذا الحكاية، قال: كان تلامذة، أبي الربيع سليمان بن يخلف من أهل سوف، واريغ، ووارجلان، ومزاب، وقسطيلية، حلقوا على أبي محمد في تين زراتين، وكانت الفتنة حينئذ بين بني "تاكسينت" وهيتهم، ومالكيتهم، والوهبيه منهم قبيلة يقال لها "بنو يرويتن" والمالكية من عداهم من قبائل بني تاكسينت، فكانت بينهم الفتنة، والعزابة منها في أمان لا يخافون مكروها ولا يسمعون، فقدر بأن حضر بنو يريتن فرقى على السور رجل جاهل ممن شملته الحلقة، يقال له: توزين من أهل قنطرار، فقال لأهل العسكر: أنصتوا واسكتوا. فقال لهم: فلان وفلان وفلان حتى عد جماعة من أئمتهم عليهم اللعنة ولهم سوء الدار، فلما سمعوا ذلك منه تركوا القتال، واستدعوا شيخا لهم، يقال له: مظهر بن نفاط، فاخبروه الخبر، فقال أسمعتم ذلك حقا؟ قالوا: نعم فقال لهم: احرقوا، واسبوا، واقتلوا، فلما سمع العزابة ذلك خرجوا ليلا وتفرقوا إلى اليوم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أبو عمرو عثمان بن خليفة

ومنهم أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي رحمه الله. هو في أهل المذهب أحد الاعلام، الكاشف بحسن بيانه ونور منطق لسانه دياجي الظلام، المفتي في العلوم لا سيما علم الكلام، المجاحش المدافع عن كلمة الإسلام، حتى إن له في موطن اللين قراعا بلسان مخدام، وربما كان في محل هدنة فاشتعل الاضرار، ولم يعبأ بمن قال، كل مقال له مقام.

مجادلة بالباطل تؤدي إلى انقراض أهل الدعوة من حامة قابس

فمن ذلك ما حكى أبي رحمه الله وقد سأله بعش الجلساء ما سبب انقراض المذهب من الحامة؟ قال: أن الحامة لم تنزل في أدبار منذ عهد أبي القاسم وأبي خزر رحمهما الله وما طرأ على كل واحد منهما وعلى من بعدهما، حتى إذا كان في زمان الشيخ عثمان بن خليفة فورد الحامة، وليس فيها من أهل المذهب إلا أطلال بالية، ومساجد عامرة كالخالية، وكان أبو عمرو عابر سبيل فأراد أن يذكر من هناك من أهل المذهب بما يثبتهم في الدين، ويمسكهم في عقائدهم على يقين، وكان المخالفون من أهل الموضع قد سكنت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم بانقراض مذهبنا من بلدهم وضعف من بقي من أهله، فلما سمعوا بقدوم أبي عمرو بما شرع فيه عضوا عليه الأنامل من الغيظ، واجتمعوا فيما بينهم، وادوا ما يفضح أبا عمرو إذا ناظروه، ولا طاقة لكم به أن حاولتم أخذه في الطريق المهيح، لكن إن سلكتهم معه بنات الطريق وجادلتموه بالباطل أو قعتموه في آذان العوام، وإن طلتم فأنكم تطفرون به فقالوا وكيف يمكن الظفر به من طريق الباطل؟ قالوا: يسئله أحدكم هل يجوز في مذهبكم تزوج نساءنا؟ فانه حينئذ يقول الحق وجيب بأن يستعظم هذا، ويقول: ياسبحان الله قد جاز عندنا تزوج اليهوديات والنصرانيات فيكيف نساؤكم؟ فإذا قال هذا الزمناه الذنب بأن نقول نرك أنزلتنا منزلة اليهود والنصارى، فنكفروه ونفحمه وأن هو أجاب بنعم فقد استأنفنا سؤالا ثانيا، فلما كان غدا اجلبوا عليهم بخيلهم ورجلهم، وحضروه هو وتلامذته فسأله سائلهم بما اعد من مسألة النكاح، فأجاب بما كان خصمه ينتظره منه، فلما قال ذلك قال مدره القوم: ألا أن هذا أنزلكم منزلة اليهود والنصارى فقاموا عليه قيام رجل واحد شتما وصفعا وضربا، وطرده عن نفوسهم من البلد وكرهوا كثيرا ممن بقي من أهل المذهب على الرجوع إلى مذهبهم، وعمدوا إلى المسجد الكبير من مساجد الوهبية، وغسلوه بمياه كثيرة، حتى جرت أنهارا وسالت في الطرقات، وخرجت من البلد هامية يعتقدون أن ذلك تطهيرا للمسجد، قال: ودعوا

عليهم فأجاب الله دعاءهم ولكن بعد حين فلما دخلها إسحاق واختلطت عجاجا شبيهه, من رآه بالوادي الذي أجروه ليظهروا به المسجد فيما زعموا, قال فلم يبق إلا مستضعف لم يكن على بصيرة, أو هارب بدينه إلى حيث أمكنه من البلاد.

وقال عثمان خرجت من وارجلان أريد ناحية بلادنا فخرج معي أيوب ابن إسماعيل وموسى بن علي يودعاني فقال لي أيوب "يا عثمان العلم والوطن لا يجتمعان" وقال له موسى الحجر المتقلب لا يثبت على بناء, فرأيت ما أشار به هو الصواب.

١

الحكم في العطايا

وقال أبو الربيع قال لي الشيخ أبو عمرو عثمان : العطايا اربع: اثنتان جائزتان؛ عطية الله وعطية ثواب الدنيا. واثنتان غير جائزتين عطية إكراه وخوف, وعطية على وجه الركون.

الطبقة الثانية عشر 550هـ 600هـ

أبو عمار عبد لكافي

منهم أبو عمار عبد الكوفي رضي الله عنه. هو ابن أبي يعقوب التتواتي. تدارك المذهب قد أقبر فأنشره نشورا, ونوه به وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا , فأحى الله به رفاقته, وجمع ببركته شتاته خدم العلم دهرًا حتى وعاه, وواعى منه الاوعية, ثم أخذ يفتيه ويعلمه, فسالت منه الاودية, في تصنيف كتاب, أو تهذيب جواب, أو تدرب متكلم, أو إفادة متعلم وهو الذي أرى بموجزه* على الماضين, واتعب الحاضرين والآتين, فانه رتب مقدماته أرتب تقديم, وقوم فصوله أحسن تقويم, وقسم الفرق أبين تقسيم, بألفاظ عذبة وقصد مستقيم, وله تصانيف يشفى بربها هيام النفوس الهيم, وأما الورع والسخاء فيهما أقل صفات خلاله, فذكرهما الشيخ بالنسبة إلى حاله.

ما كان من الشيخ أبي عمار وهو بتونس

ذكر شيوخنا إن أبا عمار لما عزم على طلب العلوم رأى أن أهل ما يقدمه إصلاح اللسان ثم إصلاح الجنان بعلوم القوانين والبراهين, فهاجر إلى تونس فاقام فيها أعواما يدرس الليل والنهار ولا يحضر بباله ذكر الأهل والدار, والذي توخاه في قصده تونس شيتين أحدهما ملاقة من يشغل خاطره عن ذكر أهله, والثاني أراد أن ينقطع عن اللسان البربري بالبعد عن مخاطبه به, والتدرب على لسان العربية, بكثرة مخالطة به, وكان أوب عمار موسعا عليه فكانت تأتيه من بلده في كل عام ألف دينار, وبطاقة فيضع البطاقة في موضع, ويقسم الدنانير نصفين فيدفع النصف إلى شيخه ويصرف النصف في نفقته وكسوته, وشراء ما يحتاجه من الكتب, فلما كان عند عزمه على السفر وقد رأى أنه قضى حاجته من طلب العلوم التي اعتمدها هنالك اعلم شيخه بذلك, وأجمع على الارتحال فأخذ في قراءة الكتب الأولى أعلاما بوفاة أحد أبويه وفي الثاني وفاة الثاني ووجد شواغل لا علم له بها, فاطلع على ذلك شيخ وأصحابه فعزوه وانفصل إلى بلده, ولقد حدثني بعض الطلبة النفطين الذين قرأوا بتونس عن بعض أشياخه أنهم قالوا: أدركنا أشياخنا يذكرهم طالبا من أهل وارجلان قرأ معهم على شيخهم إذ ذاك, قالوا أدركناهم يتعجبون من فهمه وحفظه ومواظبته وورعه, وسخائه ودلاله نفسه وسعة خلقه, قالوا ولم ير مثله من العرب ولا من البربر, قال لي وكانوا يذكرون انهم اطلعوا على كتاب معه في علوم مذهبه, وكان نظما في قصائد فما هذا الكتاب؟ فقلت له: هو دعائم ابن النظر كانت منه في بلادنا من قبل هذا نسخه غير محلوله, ولما حله ابن صاف* لم يرد بلادنا حتى ورد به الشيخ أبو موسى عيسى بن زكرياء

وأعلمته إن الطالب المذكور هو أبو عمار, وأطلعته على كتاب الدعائم لما ذكره وسأل عنه, فلما رآه جعل يتعجب منه فنظر منه بعض قصائد العقائد وهي الرائية التي في الرد على القدرية فقال معرضا ما أرى هاهنا إلا موافقة أهل السنة, فقلت له: وما خالف هذا الكتاب فهو خلاف السنة.. وكان أبو عمار ذا كرامات فمن كراماته ماحدثنا به في وارجلان شيخ من أهل الصدق والبر حكاه عن ثقات قال خرج أبو عمار في سنة من السنين في فصل الربيع إلى بادية بني مصعب بغنمه فتوغلوا في البرية, تتبعا لطلب المرعى, حتى قربوا من جبال " بني راشد" فلما كان يوما من الأيام قال أبو عمار لاهله اشتغلوا بعشاء عمار الليلة المقبلة, وكان هذا القول منه غدوه وكانوا قد عهدوا عمار بوارجلان, إلا أنهم لم يمكنهم إلا امتثال أمر الشيخ, فوافق وقت أعلامه أيامه توجه عمار من وارجلان إلى قصور بني مصعب, فلما أصبح صباح يومئذ, قال لمضيفه: انظر لي دليلا استأجره أن يصحبني إلى موضع الشيخ, بشرط أن يكون على نجيب, ليكون مبيتني عند الشيخ فإنني شديد الاشتياق إليه, فقال له: ليس لها إلا " فلان" فأرسلوا إليه فوجدوه ينضح زرعا له بالطبق, فقال أخشى على زرعي ولا بد من موافقة ابن الشيخ, قال فاستأجره بدينار فركب كل واحد منهما نجيبه, وصارا يرفجان ويجدان السير بجهدهما, قال وكان نجيب المصعبي أسبق من نجيب عمار, وكان إذا تقدم قال له: مالك يا هذا الوارجلاني؟ هلكت زرعي عطشا يعني أجهد ليكون رجوعي إلى زرعي سريعا, فقال وكان بين الموضع الذي فيه الشيخ وبين القصر الذي خرجا منه مسيرة ثلاثة أيام, فما صلى الشيخ إلا عمار وصاحبه قد انا خوا عندهم, وأكلوا العشاء معهم.

وذكر عيسى بن أحمد إن أبا عبد الرحمن الكرثي كبت إلى جماعة الشيوخ بوارجلان كتابا يسئلهم سؤال مسترشد قال: فلما ورد عيهم كتابه لم يروا نفوسهم أهلا لمجاوبته إلا أبا عمار, فجأوبه عن جميعها حسبما يفسر.

أسئلة لشيخ أبي عبد الرحمن الكرثي والإجابة عنها

(سؤال) ما اليقين والقدر وما الفرق بينهما؟

(الجواب) : اليقين صحة الاعتقاد, وهو من أفعال القلب ومن أفضل أفعال العباد, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم , اعبد الله على الرضى واليقين, وإلا ففى الصبر على ما تكره خير كثير" وقال : او ازداد يقينا لمشى على الهواء . والقدر ما قدره الله قبل أن يكون قال عليه السلام في الأيمان: " أن تؤمن بالقدر خيره وشره أنه من الله"

(سؤال): هل يقال لله تعالى بالبربرية ايراد؟

(الجوال): ما سمعنا أحدا أجازه إلا أبو سهل, ولعل هروبهم من جوازه اشتراك اللفظة في لغة البربر, فانهم يسمون الداجن من الطير الوحش " ايرادن" ولمن اخلف الوعد " يردى" وهذا على حسب اللغات, والهروب من المشكل إلى الواضح أولى.

(سؤال): ما الحكم فيمن قال أن الله ليس ببيكش؟

(الجواب): أن كان بربريا أو ممن يعرف اللسان البربري فهو كمن قال: " أن الله لي بإلاه" ومن اقل ذلك فهو مشرك, فقال بعض من حضر أراك أدرجت المسئلة فقال أو تشكون في ربكم؟ فقال حينئذ عبدالله بن سجمان سمعت شيخنا أيوب بن إسماعيل يقول: من قال أن ايكش السلحافة فهو مشرك بالله العظيم.

(سؤال) ما اعلام الساعة؟

(الجواب) أنها خمس اثنتان منصوصتان واثان مسخرجتان من النص وواحدة من الحديث, فالمنصوصتان قوله تعالى: حتى إذا فتحت ياجوج وما جوج الآية وقوله في عيسى عليه السلام وأنه لعلم للساعة الآية والمستخرجتان من النص طلوع الشمس من مغربها قال الله تعالى " يوم

يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها" والدابة, قال الله تعالى " وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون" والحديث قوله عليه السلام : " نار تخرج من عدون تطرد الناس إلى محشرهم" وحشي يعلو على الكعبة بفأسه يهدمها, وخسف بجزيرة العرب.

قلت وهذا الإجابة أنها هي على قدر وسع السائل لا بكونه مقدار المجاوب, بل إنما عرض في تلك السوق ما أشبهها من المتاع وما ينفذ فيها, وادخر الخز والديباج لأشكاله, اللهم إلا في جواب السؤال الأخير.

وقال أبو عمار حضرت أنا , , أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم , مجلس شيخنا أبي زكرياء يوما فقصصت رؤيا رأيته, وذلك أني رأيت إبراهيم عليه السلام نزل من السماء إلى " تموصين" قرية من قرى وارجلان فتعلقت نفس الشيخ أبي زكرياء إلى الرؤيا فجعل يقول كيف رؤياك يا عبد الكافي؟ يحب أن أكررها عليه فالتقت إلى أبي يعقوب فقلت له , لا أعلم أحدا كملت نيه هذه الصفات غير النبوءة في هذا الزمان إلا هذا الشيخ وأناي لاحسب انه سيموت في العام, فمات فيه بعد اشهر, وهذا الحكاية من مناقب أبي زكرياء إلا أن لابي عمار فيها صدق الرؤيا وأصابة التأويل.

حكم مال من اشتهد بالإغارة والنهب
وسأل الشيخ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم أبا عمار رحمهما الله بمحضر من أصحابها وذلك بجبال مكة, فقال عجا منا نتتزه من أموال العرب* التي بأيديهم , وننهي عن الدنو منها, وعن الدنو ممن يدنو منها, ونتجه في وجوه من يصاحبهم إذ كنا ببلادنا ها نحن الآن نأكل منها ونحمل عليها, ونتزود منها, ونحن في أركم بقعة وابرک بلده ونحن عايناهم يأخذون أموال الحجاج, ويسلبونهم, ويقتلون من دافع منهم عن نفسه إضراب" بنى مجزية" وغيرهم ممن شهر بالنهب والغضب, فقال أبو عمار هذه جزيرتهم إلا قعد فيما بأيديهم والأغلب عليه الحلال, وتلك جزيرة البربر أنهم فيها غارة وكل ما بأيدي الغارة ريبة, إلا من ابصر شيئا عيانا فلا يحل له الدنو منه في بدو ولا حضر, فأنهم في بلادنا غارة ونحن البربر في جزيرتنا كالعرب في جزيرتهم. قلت هكذا وجدتها وأقول والله أعلم, أن الذي استثناه من قوله " من ابصر شيئا عيانا فيجب تنبهه" إنما ذلك في بلاد العرب وجزيرتهم, والصواب أن يذكر أولا قبل ذكر بلاد المغرب*.

رأي الشيخ في أهل الفتنة
وروى إن أبا عمار كان يقول: إذا وقعت الفتنة بين فئتين من المؤمنين فالأحب إلى أن يصطلحوا, فإن لم يفعلوا فالأحب إلى أن لا تغلب فئة, فإن من أحب أن تغلب إحداها الأخرى فقد دخل في الفتنة, ولزمه ما لزم أهل تلك, وكأن سيفه يقطر دما. وروى عنه عيسى بن أحمد أنه قال السلامة عندي أن يكون في البراءة سواء, لا يرجح إحدى الطائفتين, فانه متى رجح أثم.

ومنهم أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي

وابنه أبو إسحاق إبراهيم رحمهما الله

نبداً بذكر أبي يعقوب في صدر الأسلوب فنقول: هو بحر العلم الزاخر, المسخر للنفع فتري الفلك فيه مواخر الرفيع القدر والهمة, الجامع لفضائل كل أمة, المحتوى على علوم جمة, كأن التوحيد ينظر إليه في وصفه للقاضي أبي حامد, وما اشتمل عليه من صنوف الفوائد إذ كان له في كل جو منتفس, ومن كل نار مقتبس, وهذا الشيخ له يد في علم القرآن , وفي علم اللسان, وفي الحديث والأخبار, وفي رواية السير والآثار. وعلم فرائض المواريث, ومعرفة رجال الأحاديث , ولم

يخل من اطلاع على علوم الأقدمين, بل حصل مع ملازمة السنة قطعة من علم الحكماء المنجمين.

وأما أبو إسحاق إبراهيم فأمام في علم الأدب, وأن ذاكر في الفروع فيما للعجب, لقد تمسك من الحديث والأصول بسبب أقوى سبب, وعند كليهما من الورع والزهد والتواضع والاقتصاد, ما ليس يدركه أحد من المنتسكين وذوى الاجتهاد, وأن تقاربا في نظم الكريز فإن للشيخ قدرة على تأليف التو أليف, وله من ذلك الصدر الفسيح الغليظ, وقد كان لا تهمه عظام المهامات, إلا خدمة العلم منذ نشأ حتى مات.

انقطاع الشيخ إلى خدمة العلم

وذكروا عنه أنه أقام سبعة أعوام ملازما داره لا ينصرف فكان متى زاره أحد من الزوار وجدة أما ينسخ و'ما يدرس, وأما يقابل, وأما يبرئى الأقالم, وأما يطبخ الحبر, وأما يسفر كتابا, لا يعدل عن هذا الفن إلى ما سواه إلا أن قام لاداء فريضة, وكان إذا اعتمد تأليفا أو نسخ ديوان لا يهوله ولا يستعظم فيه صعوبة ولا كثرة فإن له على ذلك قدرة, ولقد حدثنا بعض الثقة قال: وقفت ببلادنا قسطنطينية وسوف واريغ ووارجلان على سبع نسخ أو ثمان من كتاب العدل والأنصاف* تأليف أبي يعقوب كلها بخط يده, وأما أنا فرأيت منها ثلاثا.

حرص أهل وارجلان على الاستفادة منه

وكان إذا جاء إلى موضع الوضوء في مسجد في وارجلان انصرف كل من حول المتوضى, فيضع من يده سفرا ومفتاحا ويضع عمامته وكساءه, ويقعد في ثوب واحد فيدخل المطهرة, فيرجعون ويأخذ أحدهم شيئا منها ويأخذ الآخر شيئا آخر, حتى يرجع الشيخ فلا يجد شيئا فيقول ردوا علي علائقي, فيقول أحدهم أرد بعوض فيسأل عن مسألة في النحو ثم يجيب فيرد ما أخذ, ثم يسأل الآخر عن فريضة ويسأل الآخر عن مسألة فقهية ويسأل الآخر عن تأويل آية, ويسأل الآخر عن تأويل رؤيا وعن غير ذلك, فيجيب كلهم فحينئذ يردون عليه ما أخذوا, فكان هذا دأبه رحمه الله حتى لقي الله.

وحدثني أبي رحمه الله قال حدثنا بعض أصحاب أبي سليمان أيوب بن نوح قال: سألت أبا سليمان علما حصل من علم النجامة قال: رحم الله شيخنا أبا يعقوب عمد إلى العلوم النافعة كعلم القرآن والفقه وعلم اللسان فحملها ابنه أبا إسحاق, ووجد عندنا إفهاما قابلة لعلم لا ينفع يعني علم النجامة فعلمناها, وقلت له ما غاية المنجم المحقق أيعلم يومه متى يكون؟ قال اعلم أن غاية المنجم العالم يعرف أسعيد هو أم شقي, وكان أيوب هذا يقول يكون أجلى يوم كذا, فكان كما قال*.

وصول الدعوة الموحدية إلى وارجلان

وحدثنا بعض أهل وارجلان أن أول داع وصل إلى وارجلان من دعاة الدعوة المهدية العيتروسي وصلها في خيل, فلما قدم إليهم دعاهم إلى إجابة الدعوة, فنتشاوروا فيما يأتون وما يدرون, فاجمع رأى أكثرهم على قتله وأصحابه, حتى لا يظهر لهم ذكر, فقال علماءهم ما ضرنا إن نصل إلى الفقيه أبي يعقوب نعلمه بما وقع في نفوسنا ونأخذ ما عنده, فجأؤوه بجمعهم, فقالوا له, أن هذه خيل تدعو إلى سلطان قد ظهر, وقد جمعنا على أن نقتلهم قبل أن يعرفوا بلادنا, فان نخاف أن يخرجوا بلادنا أن عرفوها, فقال لهم, هؤلاء لا يخربون بلادكم بل تتالون في أيامهم عزا وإقبالا, وتلقون منهم في بلادهم خير لقاء وإكراما وإحسانا, أكثر مما تلقونه في بلادكم فأجيبوا دعوتهم تغلحوا فليسوا بالذين يخربون بلادكم, وأما الذي يخرب بلادكم فيخرج من سلجاسة يموت في البحر

وأن خرج من البحر فإنه يموت في سلجاسة, وهو المثلث , فإذا ظهر فلا بد أن يرد بلادكم قاعا صفصفا, وسمعت هذا الخبر سنة عشرين وستمئة فلما كان سنة ست وعشرين وأو سبع وعشرين دخلها يحيى بن إسحاق الميروي المثلث, فهدم كل ما دار عليه سورها إلى المسجد, وعاد وارجلان كان لم تغن بالأمس*.

الحديث عن حجازية أبي يعقوب

وبلغنا أن أبا يعقوب كان في عصر شببته يقرأ بقرطبة ففيها أنقن هذا الفن وفيها حصل بضاعة وافرة من اللغة غير مزجاة, وفيها قرأ جملة من كتب الحديث, ومما يدل على سعة ما عنده من هذه الفنون قصيدته الحجازية المتطولة فان أودعها فصول لا على ما ذكرته من ذلك, أبياتها عدد أيام العام بدأ فيها بغزل رقيق, ثم الرحلة عن وارجلان, والتبنيه عن أصحابهم في ذلك الركب, وذكر الطريق منزلة منزلة في سيرهم حتى وصلوا, وذكر المناسك, ثم فعل كذلك حتى خرج, ثم خرج إلى شئ من علم الحدثان ثم وعظ أحسن وعظ, وتذكير, ففيها ما يشهد له باتساع الفن, فكنت اعتقدت أن أودعها هذا الكتاب وأشرحها إجابة لرغبة من رغب إلى ذلك, لكن منعني العجلة في تعليق هذا الكتاب, وكوني أيضا لم أجد من يرويها عن أبي يعقوب فارويها عنه على صحة وأعرف مقاصده فأحدو حدوها, ولعمر الله أن فيها لفوائد كثيرة.

ولأبي يعقوب تأليف كثيرة, أحسنها فيما ذكر لي أبو العباس ابن محمد كتاب الدليل والبرهان هو في علم الأصول, وأما أنا فلم أقف عليه لاني إذ كنت بوارجلان لم أعلق همتي بنظر هذا الفن, فلا قوة إلا بالله, وأيضا فإن الأمهات منه قليلة.

وسمعت في وارجلان من جماعة من شيوخ إن أبا إسحاق رأي في منامه كان نخلتين صنوان أحدهما باسقة والأخرى قصيرة وكان والده في الطويلة منهما يجتنى منها ثمارا وكأنه عالج الطلوع فقدر على الصغيرة, فلما صار إليها عالج طلوع الكبيرة إلى حيث كان أبوه فلم يطلق, فقصها على أبيه فقال يا بني أنك تحاول منزلة أبيك في العلم وأنت دونها.

أبو يعقوب يوسف بن خلفون

ومنهم أبو يعقوب يوسف بن خلفون المزاتي رحمه الله المحقق الوصول إلى الغاية في علم الفروع والأصول, إن درس فلحن أحسن تلقين, وإن أفتى فمغترف من عذب معين, لا يخشى منه تعسف, ولا يدرك الفاظه تكلف, كثير الاطلاع على مسائل الاتفاق والاختلاف, وكثير الدفاع عما قيده فقهاء الأسلاف, وله تعليقات عجيبة, وأجوبة عما قيده على بيضة الدين, محصن للمذهب امنع نحسين, مقنعة مصيبة, إلا أنه كان مع محافظته وكثرة حفظة يعجب من ضعف بخته مع الأخوان, وقله حظه, فإنهم لم يقلوه في لعشرة أنصافا, ولم يهبوه من أنفسهم إسعافا, بل قد أذاقوه العقوق أنصافا, وجرعوه منه مرارا عافا.

خبر اختلاف الشيخ مع العزابة في مطالعة كتب المخالفين المذهب

حدثني غير واحد من أصحابنا أن أبا يعقوب يوسف بن خلفون كان كثير المطالعة في كتاب الأشراف* وغيره من تصانيف علم الخلاف, فكان العزابة يكرهون ذلك وينتقمون عليه, وينهون عنه, حتى أنه ربما شافهه بعضهم يقول "ترك المذهب, أو رغبت عن المذهب" وأظهروا له الكيل بهذا الصاع, فلم يكن رغبة عما أكرهه ولا إقلاع, قال فلم يروه معرضا عن سلوك ذلك لمنهاج ورأوا منه التماذي واللجج فأوجبوا عليه كلمة الهجران وقالوا له لا تقربنا من الآن فانك أسهبت في المناقضة أي إسهاب, ورغبت عن طريقة إمامك عبد الوهاب, فعند ذلك التفت إليهم وقد ولى فقال لهم: "والله ما فيكم وهبي غيري" ومما نقموه منه إعلان القول بان يقول لهم والله

ما علمت لكم كتابا غير كتاب " اختلاف الفتيا " و " والغامى " فكانوا ينسبوه بذلك إلى تعجيز العزابة وذم تواليهم، والبحث عن معائبهم والتصريح عما يضع منهم، وحاشاه بل لو قال الآن أحد هذا القول لم انسبه إلى نقص ولا تنقيص، والذي يظهر في هذا الشأن أن كلهم مصيب، فإن العزابة إذا فضلوا كتب العزابة وعصبو الترجيح غيرها عليها فوجه العذر لهم وللمولعين بين ظاهر، وهو أن الذي صنفه الأشياخ إنما جاءوا به على حسب موافقة المبتدئين أهل اللسان البربري، وذلك جهد طاقتهم، فإذا أوجبوا الذنب على أمثال أبي يعقوب فإنما اقتدوا بقول من قال من المشائخ لم وقف على الخمسة والعشرين جزاء، لا يطعن في هذا التأليف إلا منافق، يتخيلون أن قد حقت عليهم كلمة الخلاف، وأنه لم يبلغه هذا القول، ولعله إذ بلغه جعل للمطعن وجها وللنفاق وجها غير الوجهين الذين ذهبوا إليهما، وينبغي أن يحمل ذلك على أحسن محتملاته، تركية للفضلاء، وقياما بحق أولياء الله العلماء.

ووجه العذر له في ترجيح الكتابين ظاهر، وهو أنهما كلام عربي غير متكلف مع كثير ما تجد في مسائلهم المسند إليه، والمعتمد فيها غير المبتدئين، فكأنهما أرفق لنفوس النجباء مثل أبي يعقوب، ولقد حدثني أبو الربيع عن أبي الحاج أبي عبدالله محمد بن سعيد رحمه الله، أنه يحكي عن جدي يخلف حكاية تدل على براءته مما قذف به، قال أبو عبدالله: خرجنا حجاجا مع شيخنا يخلف بن يخلف حتى إذا كنا "بعقاب" قدم علينا في وقت المساء رجل لا نعرفه، فرأينا يسأل عنا، فقال له يخلف من هذا السائل؟ ومن هو؟ قال أنا ابن صباح المزاني، فاستحال ذلك شيخنا فبادره بأن قال كذبت، قال أبو عبدالله وما رأيته قط عجل بسوء معاملة قاصدا إلا تلك الليلة، ثم تدارك فسأله ما شأنك؟ وما وراءك؟ قال قدمت مع عمي يوسف؟ قال يبيت عندكم الليلة المقبلة، قال أبو عبدالله فلما كان في الليلة المقبلة لحق بنا هو ومن معه، فلما حل بنا أبو يعقوب لم يمكننا إقبال عليه لأننا قد خرجنا من بلادنا والعلم عندنا بأنه في الهجران، ولا علم عندنا بتوبته ولا غيرها، فجهدنا أنا نتأسى بشيخنا فما تقدم فيه تقدمنا، قال فلما نزل الشيخان وضع شيخنا يده في يد أبي يعقوب وتتحينا عنا بغير بعيد، فجعل يثرّب عليه ويعدد ما نسبوه إليه بنثرّيب، لم نفهم منه إلا ما عاينا الشيخ كلما ذكر خطيئة خط بإصبعه في الأرض فكلما عد عليه شيئا ذكر وجهه وسببه واعتذار، واستغفر، حتى أتى على جميعها وظهرت براءته وكان الشيخ يخلف يقول له في تنزيهه يا ابن خلفون كيت وكيت ثم يخط، ويقول يا ابن خلفون كيت وكيت، وأطال العتاب، وأبو يعقوب مطرق إلا أنه مهما عد عليه شيئا ذكر عذره ووجهه، وسببه حتى توجه عند الشيخ عذره فسمعنا شيخنا يقول الحمد لله رب العالمين، وقاما معا واعتقا وقمنا نحن أيضا وسلمنا على الفقيه أبي يعقوب وسلم علينا وتأنسنا به، وسرنا إلى بلد الله الحرام، فأدر كنا هنالك ركب إخواننا أهل عمان، ومعهم فقيهم الذي حج بهم يسمى ناجية بن ناجية، قال أبو عبدالله فحججنا حجة لم يحججها مغربي قبلنا ولا بعدنا وذلك أنه لا يضيق الحال بأحد من أصحابنا أو تنزل عليه نازلة من مسائل المناسك أو غيرها من مسائل الدنيا إلا والاهأ أحد الفقهاء الثلاثة، فيجد عنده الشفاء فيما يأتي أو يذر، ورجعنا إلى بلادنا وأبو يعقوب راض مرضي عنه.

وبلغنا عن بعض من عاصره أنه قال قدمت من جهة طرابلس بعد قراءتي فيه على لشيخين أبي محمد عبدالله و أبي عمران موسى النفوسيين مسائل المذهب فقصدت جهة وارجلان لألقي لشيخ "أبا رحمة اليكشى" وأعرض عليه ما أخذت، قال فاجتزت على "تينماطوس" وبها الشيخ أبو يعقوب ثم جئت إلى أبي رحمة "بايفران" فلما رأيته قال لي: "تينماطوس" كان طريقك؟ قلت نعم قال هل سلمت على فلان؟ قلت لا، قال لو سلمت عليه لم أسلم عليك، فهذا الخبر وشبهه لعله كان قبل أبي يعقوب إلى الحج، أو كانت وحشة بين الشيخين لا ذنب فيها على أحدهما، أو لا ذنب فيها على أبي يعقوب، وإلا فليكن صحيح اعتقادك على ما حكاه أبو عبدالله بن سعيد

ومما قيد من تعليقات أبي يعقوب للأجوبة عن المسائل التي سأله عنه سائل فكتب بها إليه وبين ما في جميعها من أقاويل العلماء, فوجه ما قال أصحابنا, واستدل على صحته بأدلة قاطعة, رسالته إلى أهل جبل نفوسة مشتملة على فقه ووعظ.

أبو عبدالله محمد بن علي

ومنهم أبو عبدالله محمد بن علي السوفي رحمه الله. ذو السخاء والفتوة والدين والمروءة, والقيام والصيام, والسهر إذا الناس نيام المتحرى الأورع, والوقور الأروع, الحازم ولم يفرط, الزاهد ولم يقرط, سلمت له ديناه مع سلامة الدين, وكان يذكر في الهتدين, وممن تجرى الصالحات على يديه, ويفزع في الصغائر إليه, فانه لحليم أواب, وذو دعاء مستجاب, وله يد في مسائل المذهب, وفي المواعظ إذا رغب أو رهب.

الصلح الذي تم على يده بين أهل درجين

وحدثونا أنه وقعت فتنة ببلاد درجين السفلى الجديدة, فأفضت إلى حرب الأوطان وذهاب الأنفس والأموال, وأشفى كلا فريقها على التلاشي فبلغ ذلك أهل الدعوة في الجهات الشرقية والغربية, فعظم عليهم ما نال أهل درجين من الضعف واستبدال أحوالهم, واستبعدوا استصلاح حالهم بعدم الأسباب المعينة على ذلك, فحرك الله سبحانه إلى ذلك أبا عبدالله محمد ووفقه لما يحبه ويرضاه من امتثال أمره في الإصلاح بين الفئتين من المؤمنين إذا اقتتلوا, ونصرة السبيل الذي منه يتوصل إلى إصلاح ذات بينهم فقدم من سوف إلى أن وصل " درجين " فتمادى إلى خارج ريفطة" ولم يدخل درجين, فنزل إليه من بربط نفطة من العزابة فيهما الحاجان يخلف بن يخلف, ومحمد ابن سعيد, فرغب إليه يخلف في النزول إلى الضيافة فامتنع, وقال أنا أحب معاونتكم بأن تستحضروا له كل مهاجر إليكم, وفارق لوطنه بسبب هذه الفتنة, وترغبوا إليهم في الدخول في هذا الصلح, فانهم عندي اشد ممن في درجين, وارجوا أن أجد ممن في درجين من المطاوعة ما لا أجده فيمن عندكم, فأغيثوني بإحضارهم و هلموا بهم إلى خارج درجين, فصحبه غرابة الربض ومعهم من طاوعوا أو أنابوا, ولما صاروا بأجمعهم مع الشيخ أبي عبدالله حول مسجد قنطرار الفوقية خرجت إليه جماعة بنى درجين من كلا الفريقين, فيهم ألوا تر والموتور, ورغب إلى أولياء الدماء فغفوا عنها, وندب جميعهم إلى الصلح فأجابوا, وعقد بينهم الصلح, فلما اصطاح الفريقين استدعى سبع حصيات من أبدى سبعة رجال حجاج حضروا حينئذ, ثم قال هذه حصيات تناولتها أيد قد استلمت الحجر الأسود, وحفر في الأرض على قدر ذراعين حتى غاب عاتقه ودفن الحصيات, ثم قال هذه فتنة أهل درجين قد دفنت فمن أثارها جعل الله بأسه في رأسه, فآمنوا كلهم على دعائه, وقطع الله تلك الفتنة إلى اليوم, وكان الذين تخلفوا بالربض وأبوا أن يحضروا الصلح وأن يرجعوا إلى البلد ثلاثة أشخاص, فدعا عليهم فلم يعقبهم خيرا, ودعا على الذين عفوا عن الدماء وأنابوا إلى الصلح فتموا وكثروا.

وذكروا عنه أنه قال: دعوى القبائل هي التي تحرك الفتن فادعوا الله على من دعا بها, ففعلوا, فلما انعقد الصلح دخل وتضيف وحمد الله تعالى وشكره على ما جرى على يديه من الخير والصلح.

وذكروا عنه أنه لما عزم على السير إلى الحج أودع عند الشيخ أفلح المرغنى مائتي دينار, فلما قدم بعد عامين قال له ما فعلت الوديعة يا أفلح؟ قال أكلها الزمان يا محمد فلم يسأله عنها حتى لقي الله تعالى.

وكان أبو عبدالله عظيم القدر في أهل المذهب بحيث لا يجهل موضعه, ولا يجحد حقه, ولا ينكر فضله فما يشهد بذلك قصيدة الشيخ أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي الحجازية وقد

حضرت الفقيه أبي العباس أحمد مرارا وفي يده ديوان شعر أبي يعقوب فإذا قرأ لنا القصيدة المذكورة وبلغ قوله فيها:

خرجنا نؤم الشرق من حيز وارجلان
بفتيان صدق من وجوه العشائر

إلى قوله : ومغراوة عليا زنانة كلها يقول لنا لم يسافر في ذلك الركب من مغراوة غير أبي , يعني الشيخ أبا عبدالله فيسلم له بذلك جميع من حضر من مغراوة , وناهيك بواحد يقوم مقام جماعة في مثل تلك القصيدة التي بقيت تاريخا .

أبو يحيى زكرياء اليراسني

ومنهم الشيخ أبو يحيى زكرياء بن صالح اليراسني رحمه الله , علم المذهب ومناره , المحمود فيه عينه وآثاره وناصره متى قلت وكلت أنصاره , وعامر ربه متى ولت واعتلت عمارة , أتاه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة , أشهره الله في خدمته فأطال عن خدمة الدنيا وسنه , وأوسع عليه في الأخلاق والأرزاق والأعمال والمال والعطاء والثناء سعة تناقلتها الألسنة . ومنحه من البركة ويمن الحركة ما أقام في ساعة من العمر مقام سنة , وهو الذي فضله الله بأشياء فضا بها الإله الأموات والأحياء : الورع و السخاء , ولزوم السيرة , ونفوذ عين البصيرة , وتساوى صلاح العلانية والسريرة , واليد العليا في الكبيرة من الصلاة والصغيرة .

ما كان منه وهم في الطريق إلى نفزاوه ومعهم أموال سمعت من غير واحد من المشائخ حكايات في مناقب الشيخ أبي يحيى زكرياء بن صالح , منها ما هو في باب الجود والكرم , ومنها ما هو في الكرامات وعجائب البطائن , ويمن الناصية وبركة الرأي فمن ذلك ما سمعته مرارا عن أبي رحمه الله قال : وصل الشيخ أبو زكرياء ذات مرة من سلجماسة إلى وارجلان , ثم خرج من وارجلان متوجها إلى جربة في جماعة من أصحابه يكونون خمسة وعشرين راكبا , أو عشرين راكبا ومعهم قريب من مائتين وخمسين مثقالا ذهباً تبرأ , لما صاروا ببعض الطريق بين وارجلان ونفزاوة وأصبحوا راحلين غادين بين كثنان رمل اشرفوا من أعلى كثن فرأوا نعما كثيرا في المرعى , ومن ورائها أحياء فائسوا من السلامة , إلا أنهم تضاموا وأخفوا شخوصهم قبل أن يراهم أحد , ثم تشاوروا فيما بينهم , فقائل يقول " ندفع ما معنا " وقائل " نولى خلفنا " وقائل " نرسل إليهم من يجاعل على سلامتنا بجزء مما معنا " ثم قالوا في ما عندك ياشيخ البركة ؟ فقال إنما مثلنا مثل أعمى سلم عينيهِ إلى القادح ليقدها رجاء انجلاء العمى , فان ابصر نورا فضل من الله ولطفه به , وان لم يبصر فإنما كان أعمى وبقي أعمى , وكذلك نحن , وعندي رأى هو بمنزلة القدح فان فعلنا ونجونا فبلطف من الله , وان عطبنا فنحن عاطبون من قبل ذلك , قالوا وما رأيك المبارك إن شاء الله ؟ قال : أرى إن نستدير مع بعض الأحقاف إلى اقرب قطيع يلينا من النعم الذي رأيناه , فنخرج إلى القطيع على حين غفله نم أرباب الإبل ورعاتها , ثم ندخل في وسط القطيع , ثم نقول لهم , نحن دخلاء هذه الإبل , ففعلوا فعند مروقهم من بين الكتبان ودخلهم الإبل رأتهم فرسان , فما كان بأسرع من اتیان الخيل إليهم مثتى وفرادى متوجهين مرجفين , فإذا هم من "المغترف" وللمغترفين إذ ذاك احساب طيبة , وإذا برب القطيع من اشرف أول فارس , فقال لراعى ابله ما هذا ؟ قال لا أدري , إلا إن الإبل كانت ترعى فلم اشعر إلا والركبان كانت في وسطها , وقالوا نحن دخلاء لصاحب هذا الإبل وقال الفارس لهم أمان الله , وإذا بالخيـل تركض فقال لهم : لا تتعبوا خيلكم فقد حرموا , قال : فأنزلهم واكرم مثواهم , ثم صحبتهم أو اصحبهم من خيله من بغلهم إلى مأمنهم من قراري "نفزاوة" .

مكانة الشيخ لدى العبيدين بمراكش

وسمعت من جماعة منهم أبي رحمه الله أن الشيخ أبا زكرياء يحيى كان بمراكش في أيام ولاتلها، فلبغت عندهم منزلته مبلغا عظيما وكان له بها جاه عظيم لما أشتهر من أمانته وصلاحه، ومحافظة على دينه، ولما ظهر من كراماته وبركاته، وكان مختصا ببيعقوب "*" وهو إذا ذاك وزير أبيه وقبل أن يلي الوزارة فكان يلبي له كل مطلب، ولا يكاد يحرجه في كثير سبب تأمله عند أمير لمؤمنين ظهيرا، وأتمشى لك به كلما تحب، فقال له: بل أن عندي شئ أريد أن القيه إليك، قال وما هو؟ قال صح عندي بدليل لا أردده أنك الذي تلي الخلافة بعد أبيك دون من سواك من بنيه، وأراك أن تكتب في ظهيرا بما ذكرته فيكون منك، ولا أحب أن يكون من سؤال، فقال له أن كتابي لا ينفك شيئا، ثم من أين لك ما ذكرته؟ قال له ما ذكرت لك إلا قولا صحيحا، فكن منه على يقين، ولا أعتقد النفع إلا في كتابك، فاستبشر وكتب له بما أحب، فلما ولى انحدر إلى إفريقية بعساكره فوقف إليه وذكره الموطن وأحضر كتابه، فضاغف إكرامه وقضى مسائله، وأعلى منزلته وشفعه في كل من شفع فيه، وأنتفع بعنايته جميع أهل الجزيرة بل أكثر أهل المذهب إلا ما شاء الله.

ومنهم أبو يحيى فصيل بن مسعود رحمه الله

شيخ الانبساط والانباض، والعزوب عن الدنيا والأعراض والاحتقار لما يستعظم الناس فيها من الأعراض، وسلامة الصدر من الشهوات والأعراض المجدد لما كان من السير قد أشفى على الانقراض، المزرى بجزيل معرفته ومعروفه على البحر الفياض، المبنى أيام عمره في الصلاح فتساوى عنده مستقبل وماض، الموفى لله عز وجل بما تعين عليه من الافتراض.

الشيخان أبو عبدالله محمد، وأبو الربيع سليمان

ومنهم الشيخان أبو عبدالله محمد بن داود وأبو الربيع سليمان بن داود رحمهما الله كلاهما بحر العلم والسماح، وعمادا أهل التقوى والصلاح فسيحا الجنان وإن كل في اللسان تعذر إفصاح، نصيحا في الله متى عدم النصاح، إن وعظا أو ذكرا فنور الإيمان يمتاح، وكذا الزيغ والفساد ينكشف عن مستعمه أي انكشاف وينزاح، طالت أيا أبي الربيع فعمت السعادة غدوها والرواح، وشملت بركته أهل القرب والانتزاح.

حدث أبو الربيع عن أبيه قال حججنا وقفنا إلى بلادنا فنتشبت رجال من أصحابنا من نفوسة الجبل بشيخنا يخلف رحمه الله، فلما وصلنا حيز طرابلس رغبوا إليه كل الرغبة في أن يصحبهم إلى بلدهم، ليبين حدودا جهلوا في نسبهم ونسبهم، ورجوا أن يجدوا عند حفظ ما مخلصهم في دينهم ومذهبهم، قال فأجاب رغبتهم وإذن لنا في التقدم عنه، فودعناه وتقدمنا، فلما فارقتهم وجدت من الوحشة لفراقه أضعاف ما كنت وجدت من التأنس به، فكنت المطلق المسجون، والمؤلف الشجون، فما راقني من لقيت بعده حتى قدمت على الشيخ سلميان بن داود رحمه الله وذلك بمنزله "بتونين" قال فلما لقيته لقيت شيئا جليلا عظيم القدر، متناها في الصلاح ووجدت منه تأنيسا وأفادة، حتى سلوت عن كل هم، وكان مما حفظت عنه عند التسليم أني قالت: ادع، فقال: بل ادع أنت، ففي الأثر "استقبلوا الحاج واستدبروا الغازي" وحضرت الصلاة وهي رباعية وأظنها صلاة الظهر، قال فأقام الصلاة وقدمني، فقلت: أني مسافر فقال لي اعتقد الإقامة هنالك، وصل بنا، فامتنعت منه كل الامتناع، فقال ساعد، فما من ذلك بد، قال فلما قضيت الصلاة وحضرنا طعامه أوتى بزجاجه فيها شراب، فعرض علي الشراب فامتنعت فلم يكرر علي، وشرب هو، وقال هذا شراب حلاب اقتات به، إذ لا أقدر على الطعام لضعفي، ولما أكلنا تناول بإصبعه من الفضلة، فقال أكل هذا تبركا وأن كنت لا أقدر عليه.

الشيخ أبو عبدالله يعظ أهل جربة وينهاهم عن المداينة:

وحدث بعض أصحابنا أن أبا عبدالله محمد بن داود رحمة الله دخل جربة سنة من السنين زائراً فجلسوا عنده ذات يوم فجعل يعظهم ويذكرهم ويخصهم واحداً بعد واحد، حتى أفضت النوبة إلى الشيخ أبي مسعود؟ فقال وما هو؟ قال بلغني عنك أنك تداين ضعفاء أهل جربة في حال العسر ثم تأتيتهم لتقاضي دينك، فإذا رأوك من بعيد أدخلت الروعة على المرأة والطفل، وأثمت فيهم، ويروع المديان منك، واستدعيت منه بذلك ضعف دينك وقلة مروءتك، وما هو إلا أن يروك ويقولوا هذا ابن أبي زكرياء قد أقل، فعل الله به وصنع، أترضى لنفسك ومنزلتك وأبويتك ومنصبك أن تكون هذه منزلتك؟ كلا والله، ولكن جانب المداينات ما استطعت، فإن لذلك رجالاً فقال إني تأنب يا شيخ ولا أعود.

ومنهم أبو محمد عبدالله بن يحيى بن عيسى العباسي رحمه الله:

ممن يقدمونه إذ عد الأتقياء، وينسبون إليه السخاء متى عد الأسخياء، وكان لتحرجه لا يتحرى من الطرق إلا ما يجري في خلاصه، ومن جوده الذي حيل عليه كان من المؤثرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

الشيخ يدخر كرائم ماله لإكرام الضيف:

حدثني بعد العزابة عن الشيخ عبدالله بن علي قال خرجت مع أريغ أريد وارجلان في جماعة من العزابة، فسلطنا على تلا منزل الشيخ عبدالله بن يحيى، قال فخرج إلى العزابة فسلم عليهم، وأنزلهم للضيافة، فلما دخلنا موضعه قدم لنا تمراً كبيراً معسلاً، ولبنا عجيباً، فلما أكلنا من ذلك ما اشتهينا أحضر صحفة ثريد، يقدر كل واحد منا أن يأتي على آخرها وحده، أو هو وآخر حتى لا يبقى منها شيئاً ولا يدره، قال وعليها من الزبد ما أخرجه من اللبن الذي شربناه أولاً مع التمر، قال: فينظر كل واحد منا إلى صاحبه تعجباً منه كيف قابلنا بالطعام القليل ونحن تسعة أو عشرة، قال: ووضعنا فيه أيدينا وكلنا قد استقله، قال: فوالله لقد صدرنا شباعاً غاية الشبع، وفضلت منه فضلة صالحة، قال: فلما أراد العزابة الخروج عدت إليه لأخبره، بذلك فوجته يفرق تلك الفضلة على الجيران، ثم دخلت عليه فصادفته على مرضخه وبين يديه حشف أحرش يابس وكوز ماء، وكلما رفع حشفة رضخها وأزال نواتها وأكلها، وأتبعها بجرعة ماء من الكوز، وفض النواة لعلف الغنم، فقلت له: ما هذا يا شيخ؟ هلا أكلت من التمر الذي أطعمتكم منه؟ فقال: يا بني إن من أكل خيار ماله فقد أكل دم وجهه، وذلك مدخر لأمثالكم، وإن الذي بين يدي مع العافية كثير.

يعرض عليه الإقامة والنفقة ليحفظه القرآن:

ثم قل هل لك يا عبدالرحمن في رأي هو خير لك من السفر؟ قلت: وما هو؟ قال: أن تقيم هنا وتنتفع بتحصيل القرآن، وفوائد ولا تعدم ما تنزود به من المال؟ قال: فقبلت بنصحه وأقمت عنده، وكان قوي الحفظ لكتاب الله العزيز، فكنت عنده في أرغد عيش وفي اجتهاده وعكوف على درس القرآن قال: وأقبل فصل الربيع وخرجت أغنامهم إلى المنزل الموالي للبرية طلباً للمرعى، ولينفقوا بألبانها، وخرج بعض العيالات، وكان الشيخ مقيماً فيمن أقام إلا أنه لإبراره بي قال: يا بني إني لأكره أن يفوتك اللبن وهو في هذا الفصل غنم، والاعتداء به نعم، وأرى لك أن تخرج مع العيال إلى المنزل والبراني، وتخرج معك مصحفاً ولوحك، فإذا حفظت محوت كلتي صفحتيه ثم كتبتها من المصحف، ثم جئتني فتعرضه علي، ثم تخرج وتكون هنالك حتى تحفظ ما تحصل في اللوح، فلا يزال ذلك دأبك مدة الربيع، قال: ففعلت وأمر من تكفل بمعيشتي أن يخرج تمراً

طيباً برمسي وأمر المتكلف بعيشي أن يجعل وصيباً مملوءاً برسمي لا يتناوله غيري، فكنت على ذلك حيناً حتى نلت ما مناني به من حفظ القرآن والسير والفوائد، وإفادة المال.

عبدالسلام بن عبدالكريم:

ومنهم عبدالسلام بن عبدالكريم المزاتي رحمه الله، الورع الجواد الكثير الاجتهاد، كم تردد على الخلق حتى استفاد، وتكرر في زيارة الشيخ حتى فاز بالمراد.

حكى عنه أنه قدم أول قدمه من الحلقة فسأله يوسف بن أبي حسان عن ثلاث مسائل مما يستعجز به المبتدئون العاجزون، فلم يجبه عن واحدة، فقال: عجلت بالرجوع يا عبدالسلام وأنت محتاج إلى الحلقة فليت شعري ما الذي جاء بك؟ قال: وقد أخجله بكلام شافهه به، فكان ذلك سبباً لرجوعه إلى الحلقة، قال: فرجعت إلى عيسى بن أحمد فقرأت عليه ما شاء الله، ثم رجعت فأجبت السائل الذي سألني عن مسأله وعن غيرها، قبل وكان مفتياً لأهل مكانه يحتاج إليه أهل زمانه، وعنه يحكون أنه قال: سافرت مرات فأحسن سفرة سافرتها أنني سافرت مرة ومعني أصحابي عزابة قدر ثلاثين رجلاً، فإذا دعا أهل الرفقة بالكلام الذي هو إشعار بالأكمل حط العريف الزاد عن البعير، فما يحطه إلا وأصحابي محدقون به لم يرغب منهم أحد، وأحسن كتاب قرأته كتاب كتب إلي به الشيخ أبو عبدالله محمد بن داود وكتب لي فيه أخبار أهل الدعوة كلهم، وأحسن مركوب ركبته حمار صحبت به خيل الأعراب، فكانوا يهمزون خيولهم بالأشابر وحماري لم يتخلف عنهم.

أبو نوح يوسف وابنه أبو زكرياء يحيى:

ومنهم أبو نوح يوسف وابنه أبو زكرياء يحيى رحمهما الله، لكليهما فيضان في العلوم يزري بفيضان البحر، ونظم يزري بالدر، يباهي قلائد النحر، بل تزان به فوائد الدهر، ومآثر حميدة الذكر، لها أنفاس نفيس العطر، وهما اللذان أحيا ما ورثا عن جدهما محمد بن بكر، وبقيت فيهما بركته تتوارث إلى هذا العصر، بل هي باقية إن شاء الله إلى يوم الحشر، وكان كل واحد منهما شديد الغضب في الله متى قام في إنكار المنكر، معتمداً على الحق في السير والجهر، فأما أبو نوح فقد كان ساعية دأبه في تنمية الصلاح، ومحو آثار الفساد بحيث ما كان لا يفتر عن هذا الفن، وكان مطاعاً مسخراً إلى القوي والضعيف، والقريب والبعيد من أهل مذهبه وغيرهم، وكان أوسع بضائع حفظه سير أهل الدعوة وأخبار السلف، فمتى رأيت في هذا الكتاب أو في غيره من كتب المشائخ رواية عن أبي نوح فهو هذا الشيخ فاعرفه، وأما أبو زكرياء فحدثوني عنه أنه كان أكثر حفظاً من أبيه وله تأليف في المذهب، وله فضائل مشهورة منها القصيدة الحجازية، وقصيدة في الاعتقاد، ومخاطبته إلى الفقيه أبي إسحاق وغيره، أمسكت عن تقييد لك كله اختصاراً.

قيام الشيخ بإحقاق الحق في وغلانة:

احتقاء أهل وغلانة بالشيخ وقيامه بالعدل والإصلاح:

وحدثنا بعض تلامذته قال: انتقل الشيخ أبو زكرياء وبعض آلِه من «تينيسلي» إلى «وغلانة» فأنزلهم أهل وغلانة، وأكرمهم إكراماً بليغاً، ووهبوا لهم أنواع المواهب حتى ملكوهم أنواع الأملاك العظيمة من مركوب ومسكن وجنات وعيون، وأكثر ذلك لأبي زكرياء وكان فيها بحلقته على أبر الأحوال، وكان متى سمع عن أحد من أهل قرى أريغ فعلة شنيعة عن فساد أو فعل شيء من الكبائر أو ما يفضي إلى الفتنة وتخريب العمار كائناً ذلك ما كان فإنه ينهض إليه بالحلقة، وإن احتاج إلى عسكر استنهضه حتى يتمكن من الفاعل، فإذا ثبت ذلك عليه واستحق ووجب حد أن قتل قتل، وإن سجن سجن، وإن تعزير بالحد أو بالنكال أنفذ ذلك كله، قال: فلقد كنت في جملة تلامذة حلقتة مرة من المرات، وكان في فصل الشتاء وكان البرد في ذلك العام شديداً، فنال التلامذة ألمه فأثره بعض أهل الموضع بقطيفة، فكانوا يتدثرون بها في الليل في بيت بالمدرسة،

مكان مبيتهم، وكان إذ ذك ببلاد «تتمرت» رجل عات من أفتك الفتاك، وأشهر الدعار، فبات التلامذة ليلة من الليالي فنزع عنهم القطيفة، فقاموا ليدافعوا عنها فأصاب بعضهم بجراحات، فلما أصبح وقد عرف الفاعل استعظم أهل الموضع ذلك، فخرج الشيخ وقد بلغت فيه هذه الفعلة مبلغاً عظيماً لتعديه على غرباء مساكين منقطعين إلى الله، وكان الفاعل ليس من أهل المذهب وفي بلد ليس فيه أحد من أهل المذهب، فأجمع رأي جميعهم على أن يخرجوا بعسكر عظيم وينزلوا على البلد، ويطلبوا من أهله أن يدفعوا لهم الجاني فإن دفعوه لهم ارتحلوا عنهم، وإن أبوا قاتلوهم، فرحلوا بعسكرهم حتى نزلوا تتمرت فدفعوا لهم الجاني وارتحلوا عنها، فلما صاروا ببعض الطرق ابتدره بعض العبيد فقتلوه.

ميمون بن أحمد المزاتي ويوسف بن أحمد:

ومنهم ميمون بن أحمد المزاتي ويوسف بن أحمد الوسياني رحمهما الله، كلاهما لخلال الخير جامع، وقد ألجأهما إلى سكنى درجين زمان غير مطاوع، فكان كل ما حفظاه من المسائل كالمضائع، وإن كان أحدهما أكثر حفظاً بل الآخر أفقه في الشرائع، وأعلم بالأجوبة المقاطع. ذكروا أن الشيخ ميمون بن أحمد كان ذا فطنة وذكاء، وعقل وذهن، وكان مصدراً بدرجين من قبل مقدمهما مولاهم أبي علي والجماعة، فكان حكمه عدلاً، وقوله فصلاً، إلا أنه طال عمره، حتى كف بصره، فتخلى عن التشديد، وكان يتمنى أن يلقي من يسأله من المسألة سؤال مستفيد، فقلما ظفر بسائل، أو بقاء عارف، أو معترف بما أوتي من الفضائل.

حدثني أبي رحمه الله قال: دخلت حلقة بني درجين وأنا صبي قبل أن أكمل حفظ القرآن فكان الشيخ ميمون سبباً لتمرني على قراءة الكتاب، لأنه كان يعظمني إجلالاً لوالدي، ويخصني بالفوائد، وذلك أنه متى خرج إلى المسجد دعاني وقال اقرأ فأقرأ الكتاب فاقراً، فمتى توقفت في بعض ما يشكل علي قال لي حرك ولا ترهب، فإذا قرأت حرفاً فأصبت أو صحت استحسن ذلك، وكان يقول لي: لما كف بصره اقرأ علي سورة كذا وكذل، وكان لا يخليني من فائدة وحدثني من لا اتهم عن جدي يخلف أنه كان متى حضرته تحفة ذكر عندها الشيخ ميمون وكان يحض على إكرامه، ويقول: أكرموا ميمون بن أحمد، قد اجتمعت فيه الصفات الثلاث عزيز ذل، وغني افتقر، وعالم بين الجهال.

وأما يوسف بن أحمد فلا يبعد أن يكون حامل فقه إلى من هو أفقه منه، فإنه كان حافظاً، ولكن لا يحسن التصريف فيما يحفظه.

بلغني أن رجلاً من أهل توزر قدم نبطه ثم حضر إلى درجين فطلب مناظراً من أهل مذهبنا، فيمن ينسب إلى التقفه، فأبرزوا له يوسف، فذاكره في مسألة يحفظها سرداً فتلعثم فيها ولم يتكلم بفائدة تقنع، فبلغ ذلك الشيخ ميمون فغاضه واستقبحه، وقال: أقدمتم ذلك الجبان لمناظرة المخالف؟ وبئسما فعل، وكان الشيخ يوسف كثير الورع والاجتهاد، ذا خمول واقتصار ممن يتعلم منه ويستفاد.

أبو الربيع سليمان بن عبد السلام:

ومنهم أبو الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني رحمه الله، أحد شيوخ الحلق الكبار، الحافظ للسيرة والآثار، المروي عنه التواريخ والأخبار، لم تقتته سيرة لأهل الدعوة في كل الإصصار، وجملة أوصافه باختصار أنك متى وجدت في هذا الكتاب أو غيره رواية قديمة عن أبي الربيع فهو راويها عن شيوخه الأخير.

يخلف بن يخلف وعلي بن يخلف:

ومنهم يخلف بن يخلف وابنه علي رحمهما الله، أما الشيخ فعلمة نسابة، ذو خشوع وإنابة، وأجوبة في فنونه معونات الإصابة، وأدعية سريعة الإجابة، وفتوة على ذي الجنبات والغرابية،

يستطيع بذل المعروف كل الاستطاب إن كهم قلمه فاللسان قد حدث الآداب غرابية، وأما الابن ففصيح اللسان، ذكي الجنان، كثير الإصابة والبيان، ممن يقلد في فنون الآداب وعلوم الأديان. مكانة الشيخ يخلف لدى أهل الدعوة وغيرهم:

وحدثني من لا اتهم أنه كانت جماعة البربر وجماعة العرب من قبائل مختلفة، ومذاهب مفترقة يقصدون الشيخ يخلف، فيجتمعون عنده أفواجاً يقضي بينهم في الجراحات وغيرها، كلهم راضون بحكمه، لا يرغب عنه أحد لمخالفة مذهبه، ولا يرد عليه قوله، وأما سكان الحاضرة فكانوا مفتقرين إلى علمه، وحدثني أبو عبدالله بن بهلول النفطي قال: ورد بعض الزوار على شيخنا أبي علي حسن بن محمد النفطي، قال: فأخذ جلساؤه من أهل بيته نقطة في ذكر مناقب يخلف العزابي وبنيه وأهل بيته، فأوسعوا في القول والزائر الغريب يستحسن ويستغرب، حتى قال أحد الجلساء للشيخ: أترى يا سيدي أنهم يرجي لهم الخير عند الله لهذه الأوصاف؟ وهم على ذلك المذهب فلم يجبه بغير الصمت؟ فقال الزائر للشيخ: يا سيدي وما مذهبهم؟ قال الصلاح، وانقطع الكلام.

وحدثني أبو الربيع عن أبيه قال: قبلنا يوماً أنا والشيخ يخلف من جنته بغابة نقطة فلقينا محمد بن عمرن والد أبي علي المرابطي فسلم، وسأل عن الحال، ثم قال: يا يخلف ما منزلتي عندكم جملة العزابة؟ قال: منزلة مشمش ومشفش يعني جلوازين حسينين كان بين يدي قاضي نقطة، فاستعظم ذلك لما سمعه وكرهه، ثم قال: بماذا؟ قال: لأنك تقول تدخل النار ثم تخرج منها، وهما يقولان أنهما يدخلان النار ثم يخرجان منها، فانبسط بعد الانقباض، فقال: أها هنا عدت؟ قال: نعم، قال: والله إنكم لمعذرون وإن حجتكم لقاطعة.

وقوع الشيخ والركب الذي معه في ضائفة عند رجوعهم من الحج:

وحدثني أبو الربيع عن أبيه قال: لما قفلنا من أرض الحجاز بعد قضاء الحج ووصلنا الإسكندرية وقد قل ما بأيدينا فأجمع الرأي على الخروج من زي هؤلاء المشاة، لأننا لا نقدر على ركوب البحر، ولا نجد ما نشترى به أبخرة، فنحمل عليها، فاقتضى نظر الشيخ أن اشترينا بثمن ما بعناه من ثيابنا ومن فضلة ما بأيدينا سقط المتاع كالإبر والمسلات وما خف من عطر، ثم خرجنا متوجهين إلى المغرب ونحن نسير في قبائل الأعراب كل يوم، فإذا كان في آخر النهار بعنا فيما والانا من الأحياء بما نقتات به من ذلك السقط، فما خرجنا من برقة إلا وقد نفذ الزاد، وانقطع الأحياء من طريقنا، وليس لنا رفيق ولا دليل إلا الله تعالى، وقال لنا الشيخ يخلف: توكلوا على الله واستخبروه وسيروا، قال: فسرنا في مهامه لا شيء فيها، فربما وجدنا من المباح ما نقتات به مما تثبت الأرض، وسلطنا جزراً لا نبات بها وليست بمسلك معتاد لسالك، فسرنا يومين أو ثلاثة، وليس منا من ذاق طعاماً، فلما كان في ضحى الثالث أو الرابع قام إمامنا شيء لونه مخالف للون الحمرة، فتيمناه حتى وقفنا عليه، فإذا هو لبنة من جنب عجيب، قال العزابة: ما ترى في هذا؟ فقال الشيخ يخلف: ما هذه بأرض عمارة، ولا بطريق فنقول لعل له رباً، وما هذه إلا كرامة أكرمكم الله بها، فاقبلوا كرامته، ثم تناول ذلك الجبن فقسمه بخنجر كان عنده على عددنا، ثم تقدم يقطع الأرض، ونحن نتبعه، وقد اقتات كل واحد منا بنصيبه، ثم تمادينا نجد السير إلى الغد، وقد كدنا نهلك جوعاً فشكونا إليه ما أصابنا فأخرج من جيبه ما كان أخذ بالأمس فإذا هو لم يذقه، فقسمه على عددنا وأكل معنا سهمه من هذه القسمة الثانية، ثم سرنا غير طويل فلفظ الله بنا ووصلنا ما والانا من البلاد على أحسن حال، والحمد لله.

وسمعت جماعة ممن أدركه وممن أدرك من أدركه يروون عنه ألفاظاً من منشور الحكم هو منشؤها لو قيدت صارت دواوين كلها نافعة للدنيا والدين، وكان ابنه قد أسرع التنقل عن سلوك طريقة المتخصصين إلى النظر في علوم الدين، وبقي أصحابه جاعلين شعارهم الأشعار، فربما

عائبهم على ذلك وبين أن في الاستغراق في الغر والعار، وهم يصدون عنه، ولا يسمعون منه فمنهم الخلف بن الخلف المنبوز بالزناد الوارجلاني، وعظه يوماً فقال: أفلح عن هذه الأشعار فقد أكثرت، واشتغل بالفقه، فقال مرتجلاً:

اشتغال الشيخ بالفقه وميل بعض أصحابه إلى الأشعار:

دعني بفقهك يا ابن يخلف إنني رجل غدا بفوائد الأشعار

إن التفقه والتسك والتقى أنساك ذكر الخرد الأبكار

ولا أقول إن هذا في الزناد مجون أو نقلته مما عبر عنه لسان شجون، بل إنما حنينه إلى الأدب فجعل له صفات الحجون.

مقابلة مع ابن العمودي المتصوف:

وكان القاضي عمر بن غزوة النفطي يقول له: ما رأيت مثل علي بن يخلف من الناس، فمن عجيب ما رأيته منه أن أبا القاسم بن العمودي كان من مشائخ المتصوفين قدم من توزر ومعه طلبته، فأكرمه طلبه نفطة وصوفيتهم وبالغوا في إكرامه، فقلت: لا ينبغي أن يغيب أبو الحس علي بن العزابي عن مثل هذا الحضور، فأحضرتة وقد حضروا، فلما رآه ابن العمودي قال لي من هذا الجالس معنا؟ قلت: هذا الفقيه أبو الحسن ابن العزابي، فقال: أهو من الذين ييغضون علياً؟ فلما قال ذلك رأيت ظلمة حالت بين وبينه وندمت على الاشتغال بإكرامهم أو إذا اشتغلت بإكرامه، لم جنبت على نفسي وعلى صاحبي فما أغنائي وإياه عن هذا الحضور، فلما سمع علي منه هذا قال له: من أنباك هذا يا شيخ؟ قال: كذا يذكرون عنكم، قال: فهل رأيت أحداً يسمى وليه باسم عدوه؟ قال: لا، قال: كان أبي من فقهاء الوهبية وقد سماني علياً، قال: ثم أخذ معه في مذاكرة تشفي الصدر، حتى استمال قلبه ومالك لبه، فجعلت تلك الظلمة تتجلي حتى صرت في ابتهاج عظيم، ولم يفترقا حتى قال أبو الحس: أريد أن لا تقارقني مدة إقامتي بهذا البلد، وانفصل ابن العمودي يحمد ويحمد مذهبه.

سفرة الشيخ إلى غانة ودخول الإسلام إليها على يده:

وحدث جماعة من أصحابنا أن علي بن يخلف سافر إلى غانة سنة خمس وسبعين وخمسمائة، فأنتهى إلى مدينة «مالي» فأكرمه ملكها غاية الإكرام، وكان هذا الملك مشركاً وتحت مملكة عظيمة كل أهلها مشركون، وتحت اثنا عشر معدناً يستخرج منها الذهب التبر، فكان الملك قلماً يجلس مجلساً إلا أجلسه معه إكراماً له، وكان يتعجب من خلقه وخلقه، وكثرة عبادة ومحافظته على دينه، حتى عقد النيلة على الانفصال، وقد قضى حاجته، وكان ذلك في سنة قحط شديد فشكت الرعية ما أصابهم إلى ملكهم، فأمرهم بالاستسقاء فجعلوا يستسقون ويتقربون بقربانهم التي يعتادونها في ملتهم، وذبحوا أنواع الحيات من البقر والغنم والحمير، حتى الأناسي والسنانير، فلم يسقوا، فقال الملك: لعلني ألا تدعو إلهك الذي تعبد به أن يسقينا؟ فقال له: لا يسعني ذلك وأنتم تكفرون به وتعصونه، وتعبدون غيره، فإن أنتم به وأطعتموه فعلت ذلك ورجوت أن يسقيكم، فقال له الملك: علمني الإسلام وفرائضه حتى أتابعك عليه، وتستقي لنا، فعلمه كيف يقر بالشهادتين فعلمهما.

ثم قال اصحبني إلى نهر النيل ففعل، فعلمه كيف يتطهر فتطهر، ولبس ثياباً طاهرة ورقى به ربوة فوق النيل* فعلمه الصلاة فصلى، ثم قال إن أنا صليت فافعل ما تراني أفعل، وإذا دعوت فقل آمين، فباتا ليلتهما في عبادتهما وضراعة إلى الله عز وجل، فلما كان بعد صلاة الصبح أنشأ الله سبحانه سحابة فما حاولا الانحدار من الربوة حتى حالت السيول بينهما وبين المدينة، فجاءهما زورق في النيل، فركبا حتى دخلا المدينة ودامت السحابة سبعة غير مقلعة تسبح ليلاً ونهاراً، فزادت المؤمن إيماناً واستدعت إيمان الكافر، فلما رأى الملك صنع الله تعالى دعا جميع أهل بيته

إلى الإسلام، فأجابوا ثم دعا أهل المدينة فقالوا: نحن عبيدك فأجابوا، ثم دعا من دنا من المدينة من رعيته فأجاب أكثرهم ثم دعا الأقصين فقالوا: نحن عبيدك ولك منا الطاعة وتتركنا على ما ألفينا عليه آبائنا فسمح لهم، ثم حكم بأن المدينة لا يدخلها إلا من آمن بالله ورسوله ومتى رأى فيها كافر قتل، ثم قال له علمني القرآن وشرائع الإسلام فجعل يعمل حتى تعلم جملة ينتفع بها، فبينما هو عنده في ذلك إذ ورد عليه كتاب أبيه يستدعي منه المجيء ويحجز عليه في الإقامة، فقال للملك: اعلم أنني على السفر فقال لا يحل لك أن تتركنا نعود إلى العمى بعد أن أبصرتنا دين الهدى، فقال اعلم أن من فرائض هذا الدين إمرار الوالدين وقد حجز علي والدي المقام، وهذا كتابه فلما رأى جده أحسن منقلبه وانفصل، وبقوا على الإسلام والحمد لله رب العالمين.

ومن عجائب ما يحكى أن يخلف بن يخلف وجماعة من أصحابه صلوا صلاة الصبح بمسجد ربض نفطة فقرعوا ما شاء الله وختموا، وذلك في يوم من أيام الشتاء فقال لهم على وجه الدعابة، والبسط والدلال من يغدينا اليوم وتوليه الإمارة على أنفسنا؟ أوما إلى موسى بن الياس المزاتي، فقال أنا أغديكم، وأكون أميركم، وكان قريب عهد بالقوم من البادية وقد صحبه من غلة غنمه ما يجهز به غداءهم فقام فاحتفل لهم بالغداء، فلما أكلوا ودعوا بالبركة، قال له الشيخ يخلف أما إمارتك فلا تمكن فإنك واحد منا، ولكن إن شاء الله سيولد لك ولد من الحمل الذي عندكم، وتسميه أفلح على اسم إمام المسلمين، ونرجو أن يكون عنده غنى وتكون فيه بركة إن شاء الله قال رواه هذا الحديث فقدر إن ولد له ولد من ذلك الحمل، هذا الشيخ المبارك أبو سعيد أفلح، فسرت فيه همة الشيخ يخلف وأصحابه، فكان أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر مطاعا متبعا في كل ما تقدم فيه من أفعال الخير، فهذا أمر شاهدناه عيانا، ألا ترى أن ذلك بفضل الله وبركة الشيخ وأصحابه؟ الشيخ سليمان بن علي:

ومنهم سليمان بن علي رحمه الله، ذو سقاء ونزاهة نفس وورع، وكان فرضيا متقنا لمسائل الفروع في المذاهب ناظما للقريظ إلا أن بضاعته من النحو مزجاة، وإن اتسع في اللغة، فلذلك قد يوجد في شعره ما لا يجيزه أهل الصناعة، إلا أن أشعاره في الوعظ قد رويت وانتفع بها وله قصيدة وعظية بلسان البربر، وهي مقفاة وإنما لمن العجائب، ومن أهم أموره المحافظة على المذهب وله كرامات.

إن كانوا أولياء الله فإن الله لا يضيعهم:

وأما سخاؤه فقد قال أبي رحمه الله: كان والدي رحمه الله ذا مال بكنومة من عقار وناض، فلم يزل مبسوط اليد فيه حتى أنفذه ولم يبق لنفسه غير دويرة وبستانين، وكان كلما رآوا فيه من كثرة الأضياف وقلة المبالاة بتلف المال لم يعدم ناصحا يقول: ابق لأولادك بقية، واتق الله فيهم، فيقول إن يكونوا أولياء الله فإن الله لا يضيعهم وإن يكونوا غير ذلك فإننا أولى بمالي منهم، قال: وكان دأبه إذا قم من نومه إلى صلاة الصبح يقول: "اللهم، أرضني بما قضيت علي حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا أحب تأخير ما عجلت" قال وكان كذلك.

يرفض إعانتته ويدعوه أن يقوم بالواجب بنفسه:

وأما نزاهة نفسه فحدثوني أنه لما قل ماله ولم تنقص أفعاله أوصاه بياضة بن عزوز وصاية نصيح مشفق، قال له: يا شيخ إن مالك قد قل، ومؤنثك قد كثرت، فهل في خمسين وبيبة تمرا أو مائة شاة من أحمد تكون من عندي في كل عام تستعين بها على أضيافك، وأضياف المسجد، وضعفاء أهل الدعوة، فقال له: لا والله إن فيما أبقي الله لكفاية أؤدي منها حقوق من ذكرت ولو على عسر، ولكن إذا كنت فاعلا فقم بحقوقهم كما قم به غيرك، وتولى ذلك بنفسك ومالك. اعتراله للفتنة والهروب منها:

وأما ورعه فإن وهيبة كنومة لما خرجوا منها لمكيدة كانت من نكارتها خرج جدي من البلد يلتحق بإخوانه غير معلى فتنه ولا مسعرها، فقاموا إليه بجمع من أهل الفتنة من النكار، فقال قائلهم كيف نترك فقيه القوم ينجو وضربوه بل طعنوه طعنة من أراد قتله، فنجاه الله منهم، وخرج جريحا وكان معه بعض أصهاره فافلتوه، واستحوذوا على دور الوهيبة فلم يدعوا فيها شيئا إلا انتهبوه، وكانوا قد أصابوا له ذخرا كثيرا، أفلا ترى أنهم قد أدوه في النفس والحصن والمال والآل؟ ومع ذلك فلم يكن منه إلى أحد منهم أذى في شيء من الأشياء قبل الفتنة ولا بعدها.

وأما نظمه فقد سمعته من أبي وامتنع أن يروي لي شيئا من شعر أبيه أو شعر نفسه، فإنه كان يقول لي أنت أشعر مني وأنا أشعر من أبي، وحدثوني أن رجلا جاء إلى جماعة في "كنومة" بعد موته فشكا علة مزمنة أشرفت به على الموت لا يدري ما هي، ولم يدع علاجاً إلا عالجها فلم يجد الشفاء فقال له رجل منهم هلم بثلاث بيضات من بيض الدجاج فأتاه بها، فقال له: إذا كان الغد فجئني فقال له اطبخ هذه البيضات في ثلاثة أيام كل يوم واحدة وكلها متواليات كل صباح واحدة، وفعل الرجل العليل ما أمره به فبرئ بإذن الله في أسرع وقت، فجعلوا يتعجبون ثم سألوا الرجل العالج ما زدت في البيضة من خصائص؟ فقال: ما زدت فيها شيئا، غير أنني رأيت علة أعيت الأطباء فعملت أنها لا تبرأ إلا بمنة من الله الذي ابتلاه، فناجيتني نفسي أن أتوسل إلى الله ببعض أوليائه فخرجت إلى قبر سليمان العزابي فلما كان الصباح استخرجتها فكان فيها ما رأيت من البركة.

ومما حدثني به أبي عه رحمهما الله أن أهل قرى "تقيوس" كانوا يعمرّون جنات غاباتهم بالمناصفة، فيكون لهم النصف من تمرتها وللسلطان النصف، ثم يؤدون العشر من النصف فكانوا بذلك في ضيق شديد، وكان كل واحد منهم يحتال فيما يتخلص به من ذلك قبل امتداد يد عامل السلطان، ولما كان سنة من السنين خرج الخراصون إلى "تقيوس" يخرصون التمر، فلما قربوا من جنة الشيخ وعلى أنهم يدخلونها بعد غد وكان ذلك يوم الجمعة، فتقدم الشيخ إلى الخدام فقال أريد تخفيف ما قدرنا عليه لنسلم من أن يخرص علينا، فجعلوا يقتلعون العراجين من كل نخلة نصف غلتها والثالث والرابع على حسب ما يأمنون غائلة العامل، فلما جمعوا ما أرادوا جمعه من التمر وجعلوا يحتالون في تنقيله حتى يدخلوه البلد ليلا إذا بالخراصين قد دخلوا في طرف الجنة، لأنهم قالوا نريد أن تخرص هذه الجنة ونطلع لئلا تفوتنا صلاة الجمعة، فلما رأوهم وبين أيديهم كدس عظيم يراه الأعمش عن بعد فخاف ما يخاف أمثاله، وقال: "اللهم لا تقضح شيبتي" قال: فوالله لقد اجتازوا إلى الجنة وخرصوا ثمرها فأعماههم الله عن الكدس فلم يروه ولا خرصوا النخل التي هو فيها، فقال أما الآن فنرفع ثمرنا علانية والحمد لله رب العالمين.

يوسف بن سد ميمان: ومنهم يوسف بن سد ميمان رحمه الله، من المعدودين في القوام بالليل، والصوامين بالليل، والداعين المستجابين المصيبين والصابرين وإن كانوا مصابين، حدث أبي رحمه الله قال كان هذا الشيخ آخر أشياخ أهل الدعوة من أهل "دقاش" يعني منزله من قرى "تقيوس" وكان في آخر عمره وقد أصيب بصره، وقل ماله فلم يزد بذلك إلا رضى بقضاء الله، واجتهادا في طاعته، وكان الزوار بقصدونه من كل ناحية تبركا به، قال فقصدته يوما عزابة كنومة يزورونه وفيهم أخي محمد، وكان حدثا، وذلك بعد وفاة أبيه، قال محمد: فدخلنا عليه فصافحناه وسلمنا عليه، وقال للعزابة من هذا معكم أسمع صوته ولا أعرفه؟ قالوا له: إن هذا من أولاد الشيخ سليمان قال ثم بكى عند ذلك، وقال إلي يا ابن الحبيب ثم أنشد متمثلا:

كأنهم لم يكونوا عارفين بنا ولم نكن لهم بالأمس إخوانا

قال ثم أورد علينا من المواعظ والحكم والأمثال، ما لم أسمعه من أحد قبله ولا في حلقة من الحلق.

الشيخ يأبى من أكل المال المراب:

وحدثنا أبو الربيع أن يوسف بن سد ميمان سار من درجين يريد توزر فصحب ناسا من العرب فكانوا في إبلهم ووجدوا في الطريق خصبا عظيما لم تسمح نفوسهم بأن يتجاوزوه ولم ترعه إبلهم، فساروا ثلاثة أيام بين نفطة وتوزر، قال والشيخ معهم لم يذق طعامهم ولا شرابهم، قال فلم يدخل توزر إلا وقد آذاه الجوع والعطش، فكان أول من لقي بها جماعة من أهل درجين فرغبوا إليه أن يتغدى معهم، وقد عرفوا ما دلهم على شدة ما ناله من الجوع، قال ومعه صرة ينفقون منها ويقضون بها حوائجهم فأخذوا منها ما اشتروا به غذاءهم وغذاء الشيخ فأكلوا ودعا لهم بالبركة وانصرف إلى تقيوس، قال الدرجينيون فأقمنا أياما ننفق من تلك الصرة ونقضي بها حوائجنا وخرجنا من توزر والصرة بحالها لم ينقص منها شيء، والحمد لله رب العالمين.

تم كتاب الطبقات بحمد الله العظيم.

وحسن عونه الكريم والله الموفق

فهرس العناوين والمواضيع الواردة في الجزء الثاني من كتاب الطبقات:
ذكر طبقات المشائخ وسيرهم الطبقة الثانية 50-100هـ

عبدالله بن وهب الراسبي

حرقوص بن زهير

الأحاديث المنتحلة فيه

جابر بن زيد الأزدي

جابر يدعو الناس إلى الاعتبار

جابر يتمنى لقاء الحسن قبل أن يموت

يحبس لكي لا يذهب إلى الحج

حكم عطاء الجبابرة من الحكام

رأي جابر في الهرم العاجز عن الصيام

لا نكافئ الإساءة بمثلها

جابر يتهرب من القضاء

رأي جابر في القدر

عبدالله بن إياض التميمي

أبو بلال وعروة الشاريان

أول سيف سل للشراة

أبو بلال مرداس ينجو من الموت فيعود إليه

رأي الشراة وخروجهم على الظلمة يقتلون غدار لأجل محافظتهم على الصلاة

بقية الشراة تقتص ممن حاربهم حوار عروة مع ابن زياد وقد أخذ للقتل

خشيه أبي بلال وخوفه من الله

عمران بن حطان

تتقل عمران في أحياء العرب مختفيا

جعفر بن السماك العبدى

وفوده مع جماعة على عمر بن عبد العزيز

صهار العبدى

قريب وزحاف أبنا مالك

يكفرون عن خطئهم بالخروج لشراء

الناس يومئذ على ثلاث فرق

الأحنف بن قيس

اياس بن معاوية

اياس يتهرب من القضاء تخرجاً

الطبقة الثالثة 100هـ - 150هـ

أبو عبيدة مسلم

أبو عبيدة يتسم بالتشدد

حد الغبن في البيع كما يراه

حجة أبي عبيدة في القدر

رأي أبي عبيدة في ضمان المكترى

يوصى أن ينوب عنه الربيع في الموسم
أبو عبيدة يحاجج واصل بن عطاء
ضمام بن السائب
حاجب الطائي أبو مودود
أخوانه يتحملون عنه دينه بعد موته
الفقيه من يفتي الناس بما يسعهم
الخروج على الظلمة غير وأجب إلا على من تطوع
يتأخر عن رفقته ليشهد الجمعة
أبو عبيدة عبدالله بن القاسم
يترك نصيبه في الربح من المال المراب
أبو نوح صالح الدهان
عاتكة تسأل جابر عن ثلاث مسائل
أبو روح ومازن أبنا كنانة
أجتهدهما في التقوى والعبادة
أبو محمد النهدي
الحسن البصري ليس قدريا
أن لك أخوانا على مذهبك وأنت لا تدري
أبو زيد الخوارزمي
عبدالله طالب الحق وأبو حمزة المختار الشاربي
نحن احوج إلى العمل لا إلى القول
اخبار ثورة طالب الحق وأبي حمزة
يتعظ به ميتا فيتوب
لا تكون للرجل مكانة أن لم يرغب في الشراء
وقوع أبي الحر في الاسر
اجتماع أبي حمزة بوفود الحجيج
تعرض أله المدينة لأبي حمزة
خطبة أبي حمزة بمكة
خطبته بالمدينة
أبو الحر وطريقته الحكمة في استصلاح الاحداث

الطبقة الرابعة 150هـ - 200هـ

الربيع بن حبيب
اليمن تتعقد على العلم
مات فاخرجوا عنه الوصية لانه يدين بها
في الربيع كفاية عمن سواء
وائل بن أيوب الحضرمي
محبوب بن الرحيل
عهد محبوب ورسالته إلى طالب الحق
ليست الطاعات في مستوى واحد وكذلك المعاصي

البشر لا يخلون من عيب
محبوب يشكر أهل زمانه
هو لاء أولى بالافتداء بهم
الشيء يعرف بضده
الحكام الجورة لا يقفون عند حدود الله
علماء السوء يخدمون ركابهم
جملة ما يدين به أهل الدعوة ويدعون إليه
أبو غسان مخلد

الطبقة الخامسة 200هـ - 250هـ

أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني
أبو زكرياء التكويتي وأبو مرداس مهاصر
سيشملنا غضب الله أن سكتنا عن المنكر
أبو مرداس كالغزال يفر بنفسه
أبو ميمون البطالي
معاذ الله أن أكون واجدا وتكونوا معدمين
أبو المنيب محمد بن يانس
كرامة يظهرها الشيخ لرفيقه
لم يغضب الله قط إلا نصره
الشيخ يقتصر على القليل من الزاد اثناء تفرغه للعبادة
أبو خليل اليدر كل
شهادة المشائخ له عند احتضاره
يحث أولاده على ملازمة مجالس الذكر والبحث عنها
الشيخ أبان بن وسيم
أبان سهل للناس في ثلاث شددوا فيها
مكانة أخيه تحفزه على التعلم والاجتهاد
كيف كان الناس وكيف أصبحوا
الشيخ أبو مهاصر موسى بن جعفر
يذم البادية لأنه لا يمكن فيها من الطهارة
لم تضحكون من اتاني وقد اقامت عليكم الحجة؟
أبو عثمان المزاتي "بائمان"
يتعظ بالحيوان الذي يسعى ولا يدخر
نساء يتمنين التقاني في خدمة الغير رجل ما عند الله
منزو بنت بائمان وامنيته المتعبة
مهدى النفوسى
أبو مسور يصلتين النفوسى
عمر الشيخ حتى صار غريبا في أهله
أبنة الشيخ وأراؤها المصيبة
أبو محمد عبدالله بن الخير

الطهارة تغلب النجاسة ما وجدت لها وجهها
صلاة الشيخ وتبتله
الشحيح محروم من خير الدنيا والآخرة

الطبقة السادسة 250هـ - 300هـ
الإمامان محمد بن أفلح وابنه يوسف
عمروس بن فتح النفوسى
شدة عمروس في الحق وصرامته
استتساخ عمروس للمدونة
التقاء عمروس بالشيخ محمد بن محبوب
توكله أمه على وصيتها وهو في المهد
أبو معروف ويدران بن جواد
يصلون مال اليتيم بحيلة
يحسم النزاعو التهور بحسن التصرف
يلوم شيخه لانه رآه على هيئه غير لائقة
أبو منصور اليباس
ثلاث مكام لم يخل منها بيت أبي منصور
الشيخ يعقوب بن سهلوب الطرفى
وصية الشيخ لأبنه
أبو محمد ملى
يأبى أن ياكل من طعامه لانه يحمل له شهادة
تغير النعم من سوء تصرف الناس
الشيخ سعد بن إبي يوسف
الشيخ ياكور وداود بن يكرين

الطبقة السابعة 300هـ - 350هـ
الشيخ أبي مسور يسجا اليراسنى
رأى العالم له جانب من الصواب
الصبر الجميل وصفته
الشيخ سحنون بن أيوب
أبو الخطاب وسيل بن ستتن
الشيخان أبو القاسم مخلد وأبو خزر يغلا
لا تتسرع إلى الحكم السئى ما وجدت محملا
الشيخ أبو صالح جنون بن يمریان الوریان
وصية الشيخ لبنیه
الشيخ أبو محمد جمال المدونى
يختلفان لاجل كتاب فيفصل بينهما الشيخ برأى مصيب
يشح على نفسه وعیاله فطعمه الشيخ قسرا
على العالم أن ينظر للجاهل ما يصلح له

يقتت في الصلاة موافقة للجماعة
راي الشيخ في طهارة الثياب بمرور الزمن
سليمان بن زرقون وأبن ماطوس
التعبد بدون العلم يوقع في الخطأ
الفاهم لعله الحكم هو الفقيه
الشيخ أبو سهل الفارسي
الديوان الذي نظمه في جزائر بنى مزغنة

الطبقة الثامنة 350هـ-400هـ

أبو نوح سعيد بن زنگيل
أبو صالح بكر بن قاسم
شدة الشيخ على الجناة
العرف له اعتباره في المعاملات
الحق لا يختلف باختلاف الناس
الحكم فيما إذا تولى الورثة عن التركة
يتحمل الشيخ المشاق للبقاء على أثر الصالحين
الرخص الثلاث التي آفتي بها
أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور
تسلط ابن وانموى على الجزيرة
اهتمام الشيخ بالطلبة وأعانتهم
أبو عمرو النميلي
جند المعز ينكلون بعدة مشائخ
أبو موسى عيسى الزواغى
أبو نوح سعيد بن يخلف
التصرف في مال الغير جلبا للمنفعة
أبو محمد واسلان بن يعقوب المزاني
اجتهاده في طلب العلم
يتعجبون من حلمه فيمتحنونه
أبو صالح الياحراني
بعض ما ذكر من كرامات للشيخ
خروجه من وارجلان اعتزالا للفتنة
إتخرج الشيخ وشدة ورعه يقينه وقوة إيمانه
الطبقة التاسعة 400-450هـ

أبو عبدالله محمد بن بكر
ذكر بعض كرامات الشيخ
خبر الجني قيل أنه كلم الناس جملة من الأحكام الشرعية مما استجوب فيه القاضي أبا الحسن
مشائخ يتسابقون إلى قضاء دين أخيه
الجماعة أهم وأولى من الفرد
ضيوف الله أولى بالإكرام

خير خروج الشيخ من أريغ
رأي الشيخ في بعض كتب الفقه الآخرة تقوم أحياناً بالدنيا
الخوض من جديد في مسألة الحارث وعد الجبار
الاستبداد بالرأي يفرق الجماعة
وصيته رحمه الله لبعض تلامذته
تخرج الشيخ من الأموال العامة
أبو يحيى زكرياء وأبو القاسم يونس
حكم طهارة ما صنع من نبات الأرض
أخوة في الله تصل إلى الدلالة
الشيوخ الثلاثة من كنومة
يتخرج من تقديم مساعدة لعبد أبى
دين الله لا يرضى بالذلة
للغرماء طبائع مختلفة
اختل الأمن من زمنهم حتى سقط فرض الحج
تسارع مزاة إلى الخير
حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن
أبو محمد عبدالله بن مانوج
شيخ حكيم يؤثر في ابن مانوج
أخبار عن قناعة الشيخ وجوده
تخرج الشيخ من الأموال المجهولة
العبادة هي التقوى والإخلاص
لا يرضى منه أن يزوره وعليه دين
وصيته لعمر وس الزواغي
يختار أن يترك الناس قبل أن يتركوه
أحمد بن خيران
قطع عذرهم يا أهل قسطنطينية
أبو الخطاب عبدالسلام
مؤازرة الشيخ الإمام أبي عبدالله محمد
يهجر أهل ويقيم بينهم لإحياء دين الله
محاصرة قلعة بني درجين وتهديمها
الشيخ أبو عمران موسى بن زكرياء المزاتي
المشائخ السبعة وتأليفهم للديوان
الشيخ يتأسف على ثلاثة فائته
فصل تعلم العلم ونشره
أبو إسماعيل البصير إبراهيم بن ملال
لا يحل المبيت عند قوم أعلنوا بالمنكر
أبو محمد عبدالله بن الأمير
العمل في الحلال فضيلة ما لم يضر بالآخرة

أبو زكرياء يحيى بن ويجمن
الناس في شأن علي بين الإفراط والتفريط
الشيخ يابى علي أن يذكر الحديث بدون سند
يحاسب الله العبد على مبلغ عقله
الشيخ يحبس الاب ليؤدى دينه على أبنه
أبو عبدالله محمد بن سليمان
يعلم الطلبة وينفق عليهم
حكم التزوج في مرض الموت
الشيخ أبو مكحول الزنزفي
أبو موسى الشيخ لقبايل مزاة
يسأل المرء عن جاهه كما يسأل عن ماله
أبو يعقوب يوسف بن سهلوب
مصاب الشيخ في لسانه وسبب ذلك الحكم الشرعي في التي يدعى زواجها رجلا
كتابة عقود الطلاق والنكاح تدفع الشك

الطبقة العاشرة 450هـ 500هـ
أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي يستهزئ بدعوة الصالحين فيصاب بها
الحكم الشرعي في الوصية لو ارث
وصية الشيخ ابي الربيع لتلامذته
هل العلم بالفرض واجب كالعامل به؟
الشيخان ماكسن بن الخير ومزين الوسيانيان
الحكم فيمن عليه تباعة لا يعلم صاحبها
كيف كان الشيخ أيام التلمذة
أبو العزيز يدعو الشيخ ماكسن إلى الاهتمام بأولاده
يطلبون منه أن يرخص لهم في الأموال والأنساب ليرجعوا إلى مذهبه
أهل جربة يبتهجون بمقدمهم
فتن أهليه في وغلانة وسوء مصيرها
يفرمن وغلانة اعتزالا للفتنة
أبو سليمان داود بن أبي يوسف
الشيخ يشكو جهل الناس بالأحكام الشرعية
أبو القاسم يونس بن أبي الحسن
أبو الربيع سليمان الزلفيني
يأبى من ارتكاب المكروه ولو يجره إلى منفعة
أبو العباس أحمد وأخوه يوسف أبنا الشيخ أبي عبدالله
فضل أبي العباس وخدمته للمذهب
عجبا لآحوال الناس يفعلون خلاف ما يعلمون
سبب اقبال الشيخ على التأليف
الفتنة التي وقعت بأريغ وخروج المشائخ منها
أبو العباس احمد الوليلي

ساعة تجل ظهرت له ونزول حوراوين عليه
أبو زكرياء يحيى وأخوه زكرياء
يأبى من تلامذته التوقف دون إكمال الدراسة
أحكام شرعية في الخلع والتصرف في مال الابن والزوجه
ينبغي للانسان أن يتزوج كفأه
من ينبغي أن تجالس
مصاله بن يحيى وفلفول بن يحيى
شدة ثقته في الله
احتقاء الشيخ بتلامذته
أبو موسى عيسى بن يرسوكسن
الشيخ أحيى مواتا فظهرت فيه البركه
خبر خيل الميورقي عندما وصلت الموضع
إسماعيل بن يدير
ديوان العزبة والذين تعاونوا على تأليفه

الطبقة الحادية عشر 500هـ - 550هـ
عبد الرحمن بن معلا
رؤى الشيخ وبشارته بالجنة
أبو إسماعيل أيوب بن إسماعيل
الخبر عن دار الطلبة والضيوف
زيارة والد المؤلف للشيخ أبي إسماعيل
قصيدة أبي يعقوب يوسف في رثاء الشيخ
أبو زكرياء يحيى بن أبي زكرياء
أبو محمد عبدالله اللواتي
إنما جعلنا الله أحرارا لنملك أمر نفوسنا
سفر الشيخ إلى قلعة بني حماد
قائد بني حماد يحاصر وغلانة
مكانة لشيخ لدى العبيديين بمراكش
أبو يحيى فصيل بن مسعود
الشيخان أبو عبدالله محمد, وأبو الربيع سليمان
أبو عبدالله ينهى أهل جزبة عن المداينة
أبو محمد عبدالله بن يحيى العباسي
يعرض عليه الإقامة والنفقة ليحفظ القرآن
عبد السلام بن عبد الكريم
أبو نوح يوسف وابنه أبو زكرياء يحيى
احتقاء أهل وغلانة بالشيخ, وقيامه فيها بالعدل والاصلاح
ميمون بن أحمد المزاتي ويوسف بن أحمد
أبو الربيع سليمان بن عبد السلام
يخلف بن يخلف وابنه على

مكانة الشيخ خلف لدى مواطنيه
خبر وقوع الشيخ في ضائقة عند رجوعهم من الحج
مقابلته مع ابن العمودي المتصوف
سفرة الشيخ على بن خلف إلى غانة ودخول الإسلام إليها
الشيخ سليمان بن علي
أنكانوا أولياء الله فإن الله لا يضيعهم
الشيخ يوسف بن سد ميمان
الفهارس